

صِفْحَةٌ مِنْ صُبْرِ الْعُلَمَاءِ

على شذائذ العلم والتحصيل

بقلم

عبد الفتاح أبو غدة

الطبعة الثانية

مزيدة و محققة

الناشر

مكتب المطبوعات الإسلامية

حلب - باب الحديد - مكتبة النهضة - هاتف ١٥٢٩١

ويطلب من بيروت :

الشركة المتحدة للتوزيع ص. ب. - ٧٤٦٠ هاتف ٢٩٥٥٠١

حقوق الطبع محفوظة للناسر

الطبعة الأولى

١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م

الطبعة الثانية

١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م

مقدمة الطبعة الثانية :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمداً شاكرين ، والصلاة والسلامُ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد فإنّ أخبار العلماء العاملين ، والنبهاء الصالحين ، من خير الوسائل التي تغرس الفضائل في النفوس ، وتدفعها إلى تحمّل الشدائد والمكاره في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة ، وتبعثها إلى التأسّي بذوي التضحيات والعزّات ، لتسبّحوا إلى أعلى الدرجات وأشرف المقامات .

ومن هنا قال بعض العلماء من السلف : (الحكايات جُندٌ من جنود الله تعالى ، يُشَبِّتُ اللهُ بها قلوبَ أوليائه) . وشاهدُه من كتاب الله تعالى قوله سبحانه : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَشِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ . وقال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه : (الحكايات عن العلماء ومخاسنهم أحبُّ إليّ من كثيرٍ من الفقه ، لأنها آدابُ القوم) . وشاهدُه من كتاب الله تعالى قوله سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهِدَاهِهِمْ اقْتَدِهْ ﴾ . وقوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ . نقله الحافظ السيخاوي في « الإعلان بالتوبيخ » ص ٢٠ ، والمؤرّخ المقرّري في « أزهار الرياض » ١ : ٢١ - ٢٢ .

هذا ، وقد لقي هذا الكتابُ : « صفحات من صير العلماء على شذائد العلم والتحصيل » قبولاً كريماً من القراء وطلبة العلم ، والفضلُ لله والحمدُ له ، وتلقَّيتُ كلمات كثيرةً من كبار العلماء تخصُّصه بالتقدير والثناء ، ونفِدتُ طبعته الأولى في وقتٍ قصيرٍ لم يكن مقدراً أن تنفذ فيه .

ولمَّا كثر الطالبُ عليه رأيتُ إعادة طبعه ، وخَرَصْتُ أن يخرج في حُلَّة قشبيَّة جميلة مُحِبَّة إلى القراء ، لِيَبْقَى مُحَافِظاً على سَمِيَّتِهِ الرَفِيعِ الَّذِي خَرَجَ فِيهِ فِي طَبْعَتِهِ الْأُولَى .

وزِدْتُ في هذه الطبعة الثانية زيادات كثيرةً نحو نصف الكتاب على الطبعة الأولى ، وصنعتُ له محتوىً عاماً للآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والمصادر ، والكتب ، والأعلام ، والشعر ، والموضوعات ؛ لِيَسْهُلَ الرجوعُ إلى الخبر وصاحبه بأيسر وقت ، ورَقَمْتُ الأخبار برقم متسلسل ، لِيُحَالَ إلى الخبر عند الحاجة برقمه ، وليكونَ الرقْمُ في أوَّلِ الخبر أداة فصلٍ بينه وبين سابقه ، وجوِّدتُ فيه الخدمة والضبط ما استطعت .

واللهُ سبحانه هو وليُّ التوفيق والسداد ، وبيده الهدى والرشاد ، وهو المسئول سبحانه أن ينفعَ به ويَجْعَلَهُ في صحيفة الحسنات عنده ، ويستفَعِيَ بدعوات المنتفعين به ، ويَجْعَلَنِي وإياهم من الذين يَسْتَمْعُونَ القولَ فيتَّبِعُونَ أحسنه ، وهو ربُّنا ومولانا ونعم الربُّ والمولى ، والحمدُ لله رب العالمين .

في بيروت ٢٤ / من رجب ١٣٩٤ وكتبه عبد الفتاح أبو غدة

مقدمة الطبعة الأولى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العليم الحكيم حقَّ حَمْدُهُ ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسولِهِ وعبدِهِ ، وعلى من سار على نهجه القويم المبين ، من الصحابة والتابعين ، والعلماء العاملين ، ومن تَبِعَهُمْ بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد كنتُ أقِفُ خِلالَ مطالعائي ومراجعتي ، على كثير من أخبار علمائنا المتقدمين ، ووقائعهم وشدائدهم التي عانَوْها أيامَ التحصيل والطلب ، أو خِلالَ حياتِهِم العلمية المملوءة بالتقشف والحشونة والعقباتِ والمتاعب .

و كنتُ أرى في سطور تلك الأخبار والوقائع دروساً صامتة عظيمة ، يجب أن يَطَّلَعَ عليها شبابُنا المثقف ، وجيلُنا المتعلم ، واللَّفِيفُ الغامطُ لتراثِهِ العظيم ، لِيُدرِ كَوا منها منزلةَ هذه العلوم الإسلامية ، التي أُلقيَتْ بين أيديهم دانيةَ القُطُوف ، طيِّبةَ الثمراتِ والجَنَى ، فيَعْرِفُوا قيمَتَها وقيمةَ الجهودِ الجبَّارةِ الهائلةِ التي بُذِلَتْ في تحصيلِها وتدوينِها ، ونقلِها وضبطِها وتلقيِها .

ويَتَبَدَّى لهم بالتالي من ثنايا تلك الأخبار وسيرةِ أهلِها : عظمتُ المكتبةِ الإسلامية التي ملأت ما بين الخافقين ، وعظمتُ رجالِها الذين شادوها بأفكارهم وأقلامهم ، وأسفارهم وأعمارهم ، وجُوعهم وعَطَشِهِم ، وصَبْرِهِم وسَهَرِهِم ،

وكذلك هم ونصيبهم ، كما يتبدى لهم أيضاً أن هذه المكتبة الإسلامية الزاخرة :
نسيجٌ وحدها في هذا الجانب العظيم .

وقد شدت مني العزم على جمع هذه الصفحات : أن إدارة (كلية الشريعة)
بالرياض ، طلبت مني إلقاء محاضرة في سلسلة محاضراتها العامة ، فرأيتها
مناسبةً حسنةً لاختيار هذا الموضوع ، إذ فيه عرضٌ للجانب هامٍّ من تاريخ
علوم الإسلام ، وتاريخ علمائه الأبرار ، يتعرف منه أبناؤنا الطلبة : كيف
صارت هذه العلوم الكريمة إليهم ، وكيف كان آباؤهم العلماء يتحمسون
المشاق والشدائد في سبيلها ... ، فيكون لهم من ذلك حافزٌ على تقدير هذا
التراث العظيم ، وتبصيرٌ بما عليهم من المسؤوليات نحوه ، من خدمته ونشره
والحفاظ عليه والدفاع عنه .

فكتبتُ جُلَّ هذه الصفحات ^(١) ، ثم أضفتُ إليها من الأخبار ما يستقيم
مقاصدها ، ويزيدُ فوائدها . واقتصرتُ فيها على إيراد الأخبار والوقائع
دون تحليل أو تعليق عليها ، إذ هي ناطقة بذاتها . وعزوتُها إلى مصادرها
ومراجعتها .

وقد يرى القارئ في هذه الصفحات بعض المصادفات العجيبة الغريبة ،
التي يكاد المرءُ يظنُّ أنها مصنوعةٌ غيرُ واقعة ، لولا أن يتذكر أن هذا
التاريخ الطويل عبّرَ مئات السنين ، وهذا العالم الواسع العريض ، الذي كان
يموج بالعلماء موجاً في كل جانب من جوانبه ، ومن مشارق الأرض إلى مغاربها
: لا يُستبعدُ أن تقع فيه — على طویل امتداده وتكاثر أهله وتباين أحوالهم
وأيامهم — لا يُستبعدُ أن تقع فيه بعض الغرائب والعجائب من المصادفات
والمصادفات .

(١) وألقيتها محاضرة في ليلة الأحد ٢٣ من المحرم سنة ١٣٩١ ، في قاعة المحاضرات العامة
في كلية الشريعة بالرياض .

والإنسانُ قد يَسْتَبْعِدُ الشيءَ الغريبَ أحياناً ، إذا قاس قبوله أو رَفَضَهُ بمقياس مألوفه في حياته القصيرة وقُطْرِهِ الصغير ! وقد يَسْتَغْرِبُهُ أحياناً إذا وجده كثيراً مع غرابته ، ولكن يكون مبعثُ استغرابه له في هذه الحال آتياً من كثرته التي رَقِفَ عليها دفعةً واحدةً في صعيد واحد وآن واحد .

أما إذا تذكّر أن ذلك الغريب العجيب — بمقياس مألوفه — وقع في آماذ مترامية من الزمن ، وفي أناسٍ لا يَعْلَمُ عددَهم إلا الله تعالى ، تقاربَ لديه قبولُ وقوعه ، وزال منه إنكارُ حدوثه ، وعَلِمَ أن مشكله في إنكاره الأوّل مَسْئَلُ إنسان وقف على مقطع من البحر ، ثم غاص فيه وضربَ يميناً ويساراً من جَسَبَاتِ موقفه ، فلم يشاهد في أعماق (بحره) إلا الأسماك المعتادة ، والحيوانات المائية المعروفة ، فأنكر ما يحكى عن البحر من عجائب المخلوقات .

وما درى أن تلك المخلوقات العجيبة الغريبة لم تُجْمَع من مقطع واحد من البحر الكبير ، ولا في زمن واحد ، وإنما جُمِعَتْ من أطراف البحر التي تنحسر عندها الأنظار والأفكار ، وجُمِعَتْ في آماذ متباعدة ، ومن أماكن متباينة ، وإنما وقع له : أنه حَدَثَ عنها دَفْعَةً واحدةً فأنكرها ، فاذا تذكّر هذه الحقيقة خضعَ لقبولها ولم ينكرها .

وقد وقع لي في أوّل حياة الدراسة والطلب ، أني كنتُ أقف في كتب فقهاءنا المتأخرين رحمهم الله تعالى ، على فروع فقهية ، بيّنوا فيها الأحكامَ لصور من الغرائب الخَلْقِيَّةِ ، التي تقع لبني الإنسان على مرور الزمان ، وحكوا فيها بعض الأشكال الغريبة النادرة ، فكان يُساورني ردّها والعتبُ على ذاكرها ، وكنت أحكمُ عليهم أنهم أوغلوا في الخيال والتصور والإغراب إلى ما لا يُتصوّرُ وقوعه .

حتى إذا ما وقفتُ على كتاب « عجائب المخلوقات » لخرجي زيدان ، فرأيت فيه الصورَ لتلك المخلوقات الإنسانية العجيبة ، التي سجّلتها عدسةُ التصوير فألزمَتْ بقبولها وتصديقها ، وفيها ما هو أعظم وأدهش مما ذكره فقهاؤنا

عليهم الرحمة والرضوان : زال من خاطري العتبُ عليهم ، وخلقه الإذعانُ والتقديرُ لهم .

وتفتّحَ أمامي أن الفقيه في القُطر قد تُعرَضُ عليه الحادثة الغريبة ، تقعُ في الناس بين الأزمان والأزمان ، فيُسجَلُها ويُبيِّنُ حكمها ، فاذا جَمَعَ جامع بين تلك الغرائب في تلك الكتب ، التي دُوِّنت على مرور الأجيال ، ونظَر إليها نظرة واحدة قاصرة ، وغفلَ عن الأزمان والأجيال التي وقعت فيها ، قام في نفسه الاستبعادُ لها ، والميلُ عن قبولها . وإنما أتى من غفَلَتِهِ وقِصَرِ نَظَرَتِهِ .

وليس معنى هذا : أنه يُلزَمُ الإنسان أن يُصدِّق بكل ما يُنقل أو يقال ، لا ، وإنما عليه أن يقيس الأمور إذا استغربها بمقياسها الزمني البشري الكبير ، لا بمقياسه الفردي الإنساني الصغير (١) .

(١) ومن لطيف ما وقفتُ عليه من أخبار الغرائب في الخلقة ، والعجائب في كثرة الأولاد في البطن الواحد ، ما حكاه الحافظ المحدث المعمّر أبو طاهر السَّلَفي (أحمد بن محمد) ، المولود بأصبهان سنة ٤٧٨ ، والمتوفى بالإسكندرية سنة ٥٧٦ ، في كتابه : « معجم السفّر » ، فقد جاء في القسم الذي استخرجه منه الدكتور إحسان عباس ، وطُبِعَ في بيروت سنة ١٩٦٣ بعنوان « أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفّر للسَّلَفي » :

جاء في هذا القسم المذكور في ص ٥٩ قولُ الحافظ السَّلَفي رحمه الله تعالى : « سمعتُ أبا محمد عبد الله بن تويت بن الوران اللَّسَمِيَّ وفي بالشعر — يعني بالإسكندرية حيث كان يُقيم السَّلَفي — يقول — وجربته وكان ثقةً يتحرّى الصدق — : سمعتُ أخي الأمير أبا يعقوب يمتنان بن تويت الفقيه وغيره من المرابطين الثقات بالمغرب يقولون :

وُلِدَ في بني نورت — بطن من الملتئمين — جِسمان كاملان برأس واحد ، فعاشا زماناً ، ثم مات أحدهما وثَقُلَ الآخر ، فراموا قطعهُ منه ، فشاوروا الفقهاء ، فقبِلَ لهم : يَصْبِرُ أياماً ، فلم يمضِ قليلٌ حتى مات الآخر .

قال أبو محمد : ووُلِدَ بالأندلس في أيامنا مولودٌ برأسين . وكان ابنُ غَلَّاب

وإنما فَرَضَ بعضُ الفقهاء تلك الصُّورَ والفروعَ الغرائب ، جريئاً على عاداتهم في ذكر ما يمكن أن يقع عقلاً - وإن كان لا يقع عادةً أو شرعاً - للتفقيه بالتفريع للمتفقه ، ولمعرفة حكم ما قد يقع ، وإن كان ما افترضوه وتخلوه من الحوادث النادرة قد وقع فعلاً عِبرَ العصور والأزمان ، فرحمهم الله تعالى وجزاهم عن العلم وأهله خيراً .

هذا ، وقد قسمتُ هذه الصفحات إلى ستة جوانب من حياة العلماء :

الجانب الأول : في أخبارهم في التعب والنصب والرحلة في طلب العلم وقطع المسافات .

الجانب الثاني : في أخبارهم في هجر النوم والسراحة والدعة وسائر اللذات .

الجانب الثالث : في أخبارهم في الصبر على شطَف العيش ومسرارة الفقر وبيع الملبوسات أو المفروشات .

السُّوسِي حاضراً ، فقال : الذي بَشَّعْنَا أَنَّهُ وَلِدٌ بِالْمَغْرِبِ مولود برأسٍ واحدٍ له وجهان .

قال أبو محمد : وقد رأيت بحمص الأندلس امرأةً وَلِدَتْ أول ولادتها : ولداً ، ثم في المرة الثانية : ولدين ، وفي الثالثة : ثلاثة ، وفي الرابعة : أربعة ، وفي الخامسة : خمسة ، وفي السادسة : ستة ، وفي المرة السابعة : سبعةً في بطن واحد ! وآيست من رُوحها ! وأَشْرَفَتْ على الهلاك ، ثم امتنعت عن زوجها وأبت أن تطاوعه ، واشتهر أمرها عند الناس بأقطار الأندلس . وأبو محمد هذا : رجلٌ صالحٌ من أمراء المرابطين . انتهى .

فتكون هذه المرأة قد ولدت ٢٨ ولداً في سبعة بطون ، وإنها لمن العجائب ، ولكن (اللهُ يُسَخِّلُ ما يشاء) . سبحانه .

الجانب الرابع : في أخبارهم في الجوع أو العطش في الهواجر الأيام والساعات .

الجانب الخامس : في أخبارهم في العُري الدائم ونفاد المال والنفقات في الغُرَبات .

الجانب السادس : في أخبارهم في فقْد الكتب أو بيعها والخروج عنها أو نحو ذلك عند المَلِمات .

خاتمة : استخلصتُ فيها ما يُستفاد من هذه الصفحات ، من الحقائق والنصائح والعِظاتِ البالغات .

وهناك جانب هام جداً كان ينبغي أن يُدخل في هذه الصفحات ، ولكني لم أدخله فيها لأنه تاريخ مستقل بنفسه ، وهو جانب الشدائد التي لحقت العلماء من الحكام الظُلَّام ، فألت بهم إلى غياهب السجون ، وحجَز الحريات والنفوس ، وهو جانب هام واسع ، جدير أن تستقل به صفحات ضافية ، بل إن أخبارهم المشرفة في هذا الجانب تخرُج في مجلد ضخم كبير لمن تتبعها .

وهذا التقسيم الذي أشرتُ إليه ، إنما هو تقريبي تنظيمي ، فإننا سنرى أن أخبارهم في هذه الجوانب سيتداخل بعضها في بعض ، ويجتمع في الخبر الواحد الذي أورده مثلاً (في أخبارهم في نفاد النفقة) ، يجمع فيه إلى نفاد النفقة : العُري والجوع والصبر على خشونة الحياة . . . ، وهكذا سنرى كل جانب معه جوانب أخرى ، لأن حياة الإنسان متشابكة الأطراف ، فالعلّة إذا نزلت في جانب من جسمه ، أصابت جانباً آخر بآثارها ومخلقاتها ولا ريب .

وفي الختام : أسأل الله أن يتقبل هذه الصفحات وينفع بها ، وهو ولي الهداية والتوفيق .

الجانب الأول

في أخبارهم في التعب والنصب والرحلة في طلب العلم وقطع المسافات

وأستهلّه بما جاء عن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام في هذا الجانب ،
ثم أتبعه ما جاء عن بعض الصحابة فيه أيضاً ، ثم أتبعه ما جاء فيه عن العلماء
الأجلاء .

١ — قال الإمام أبو عبد الله البخاري في « صحيحه » في كتاب العلم
١ : ١٥٣ : باب ما ذكر في ذهاب موسى في البحر الى الخيضر عليهما السلام ،
وقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ .

ثم روى البخاري بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما « أنه تَمَارَى — أي
اختلف — هو والحُرُّ بن قَيْسٍ الفَزَارِيُّ في صاحب موسى عليه السلام — من
هو ؟ — فقال ابن عباس : هو خيضر .

فمَرَّ بهما أُبَيُّ بن كعب ، فدعا ابن عباس فقال : إني تماريتُنا وصاحبي
هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيلَ إلى لُتَيْيَةِ ، هل سمعتَ النبيَّ صلى
الله عليه وسلم يذكر شأنه ؟ قال : نعم ، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : بينما موسى في مَلَأ من بني إسرائيل ، جاءه رجل فقال : هل تَعَلِّمُ
أحدًا أعلمَ منك ؟ قال موسى : لا ، فأوحى الله إلى موسى : بَلِّغْ عِبْدُنَا

خَضِرَ ، فسأل موسى السبيلَ إليه ، فجعل الله له الحُوتَ آيةً ، وقيل له :
إذا فَقَدْتَ الحُوتَ فارْجِعْ فإنك ستلقاه .

وكان يَتَّبِعُ أثرَ الحوت في البحر ، فقال لموسى فتاه ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا
إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ... ،
قال : ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فارتدَّا على آثارهما قَصَصاً ﴿ فوجدَا خَضِرًا ،
فكان مِن شَأْنِهِمَا الَّذِي قَصَصَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ .

قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ١ : ١٥٣ عند شرحه لهذا الحديث
« هذا الباب معقودٌ للترغيب في احتمال المشقة في طلب العلم ، لأنَّ ما يُغْتَبَطُ
به تُحْتَمَلُ المشقة فيه ، ولأنَّ موسى عليه الصلاة والسلام لم يمنعه بلوغه من
السيادة المحلِّ الأعلى من طلب العلم وركوب البر والبحر لأجله .

وفي الحديث : ركوبُ البحر في طلب العلم ، بل في طلب الاستكثار منه ،
ولزومُ التواضع في كل حال . انتهى .

قال الحافظ الخطيب البغدادي في « الرحلة في طلب الحديث » ص ٥٣
عقبَ هذا الحديث : « قال بعضُ أهل العلم : إنَّ فيما عاناه موسى من الدَّاءِ
والسَّفَرِ ، وصَبَرٍ عليه من التواضع والخضوع للخضر ، بعد مُعَانَاةِ قَصْدِهِ
مع محلِّ موسى من الله عز وجل ، وموضِعه من كرامته وشرفِ نبوته :
دلالةٌ على ارتفاع قَدْرِ العلم وعُلُوِّ منزلةِ أهله ، وحُسْنِ التواضع لمن
يُلْتَمَسُ منه ويؤخَذُ عنه .

ولو امتنع عن التواضع لمخلوق أحدٌ ، لارتفاعِ درجةِ وسُموِّ منزلةِ ،
لَسَبَقَ إلى ذلك موسى . فلما كان الجِدُّ والاجتهادُ والانزعاجُ عن الوطن لمن
يُحِرِّصُ على الاستفادة منه ، مع الاعتراف بالحاجة إلى أن يتَّصِلَ من العلم إلى
ما هو غائب عنه : دَلَّ على أنه ليس في الخلق من يعملو على هذه الحال ولا
يَكْبُرُ عنها . انتهى مصححاً بقدر الإمكان .

٢ - وروى البخاري في « صحيحه » في كتاب المناقب في (باب قصة إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه) ٦ : ٤٠٠ ، وفي (باب قصة زمزم) ٦ : ٤٠٠ أيضاً ، وفي (باب إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه) ٧ : ١٣٢ ، وروى مسلم في « صحيحه » في (فضائل أبي ذر رضي الله عنه) ١٦ : ٣٢ واللفظ له عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما بلغ أبا ذر مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، قال لأخيه - أنيس - : اركب إلى هذا الوادي ، فاعلم لي علم هذا الرجل ، الذي يزعجهم أنه يأتيه الخبر من السماء ، فاستمع من قوله ثم اثني .

فانطلق - أنيس - حتى قدم مكة وسمع من قوله ، ثم رجع إلى أبي ذر فقال : رأيتك يأمر بمكارم الأخلاق ، و - سمعته يقول - كلاماً ما هو بالشعر ، فقال أبو ذر : ما شفتني فيما أردت !

فتزود - أبو ذر - وحمل شنة له فيها ماء (١) ، حتى قدم مكة ، فأتى المسجد ، فالتمس النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركه الليل فاضطجع ، فرآه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فعرف أنه غريب ، ودعاه إلى منزله - فتبعه ، فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح .

ثم احتمل قريبتة وزاده إلى المسجد ، وظل ذلك اليوم ولا يرى النبي صلى الله عليه وسلم حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه ، فمر به علي فقال : ما آن للرجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه فذهب به معه ، ولا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى إذا كان يوم الثالث فعل مثل ذلك ، فأقامه علي معه . ثم قال له : ألا تحدثني ما الذي أقدمك ؟ قال : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني ففعلت ، ففعل ، فأخبره ، فقال : فإنه حق ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) الشنة هي القربة البالية .

فاذا أصبحت فاتَّبِعني ، فإن رأيتُ شيئاً أخاف عليكَ قمتُ كأني أريق الماء ، فإن مضيتُ فاتَّبِعني حتى تدخلَ مدخلَ خالي ، ففعل فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ودخل معه ، فسمع من قوله وأسلم مكانه ، الحديث .

٣ — وهناك رواية أخرى في حادثة إسلام أبي ذر ، رواها عنه ابنُ أخيه عبد الله بن الصامت الغفاري ، وقد رواها مسلم أيضاً ١٦ : ٢٧ من طريق عبد الله بن الصامت الغفاري ابن أخي أبي ذر ، وما خَصَّصها : قال : قال أبو ذر : خرجنا من قومنا غفار ، وكانوا يُحِلُّون الشهر الحرام ، فخرجتُ أنا وأخي أنيس وأُمنا ، فانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة .

فقال أنيس : إنَّ لي حاجة بمكة فاكفني ^(١) ، فانطلق أنيس حتى أتى مكة فرائث عليّ — أي أبطأ — ، ثم جاء ، فقلت : ما صنعتَ ؟ قال : لقيتُ رجلاً بمكة يزعم أنَّ الله أرسله ، قلت : فما يقول الناسُ ؟ قال : يقولون : شاعر كاهن ساحر ، — وكان أنيس أحدَ الشعراء — قال أنيس : لقد سمعتُ قولَ الكهنة ، فما هو بقولهم ، ولقد وَصَّعتُ قوله على أقراء الشعر — أي طُرُقِهِ — فما يلتئم على لسان أحد أنه شعر ، والله إنه لصادق ، وإنهم لكاذبون . قال أبو ذر : قلت : فاكفني حتى أذهب فأنظر ، قال : فأتيتُ مكة ، فتضعفتُ رجلاً منهم — يعني نظرتُ إلى أضعفهم فسألته ، لأن الضعيف يكون مأمون الغائلة غالباً — . فقلتُ له : أين هذا الذي تدعونه الصابىء ؟ فأشار إليّ

(١) وقع في « صحيح مسلم » المطبوع معه « شرح النووي » بلفظ (فاكفني) هنا وفيما يأتي : بهمزة فوق الألف وعليها فتحة . وهو تحريف . وصوابه (فاكفني) بدون همزة ، فعلاً ثلاثياً كما أثبتته . ولم أجِد في كتب اللغة التي رجعت إليها : (أكفني) فعلاً رباعياً ، ولو كان مروياً بهذا الضبطه شراح « صحيح مسلم » مثل النووي والأبني والسُّنُوسِي ، وعَدَمُ تعرُّضهم لضبطه يفيد أنه جاء على الجادة ثلاثياً ، فيُصحَّح ما وقع في « صحيح مسلم » .

فقال : الصابىء ! فمالَ عليَّ أهل الوادي بكل مَدَرَةٍ وَعَظْمٍ ، حتى خررت مغشياً علي ، فارتفعت حين ارتفعت كأني نُصِبُ أَحْمَرٌ — يعني من كثرة الدماء التي سالت منه ، صار كالنُصْب وهو الحَجَر الذي كان أهل الجاهلية ينصبونه ويلذبحون عنده فيَحْمَرُ بالدم — .

قال : فَأَتَيْتُ زَمْزَمَ فغَسَلْتُ عني الدماء ، وشَرَبْتُ من مائها ، ولقد لَبِثْتُ يا ابن أخي ثلاثين بين ليلة ويوم ، ما كان لي طعام إلا ماءُ زَمْزَمَ ، فَسَمِنْتُ حتى تَكَسَّرَتْ عُنْكَ بَطْنِي ^(١) ، وما وجدتُ على كبدي سُخْفَةً جُوع — يعني أَثَرَ الجوعِ وَضَعْفَةً — .

قال : فبينما أهلُ مكة في ليلةٍ قمرَاءٍ إذ ضُرِبَ على أَسْمَختهم — أي آذانهم بالنوم — فما يطوف بالبيت أحدٌ ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، حتى اسْتَلَمَ الحَجَرَ وطاف بالبيت هو وصاحبه ، ثم صلاتي ، فلما قَضَيْ صَلَاتَهُ قَلْتُ : السَّلامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فقال : وَعَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ .

ثم قال : مَنْ أَنْتَ ؟ قلت : من غِفَارٍ ، قال : فَأَهْوَى بِيَدِهِ فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ ، فَقَلَّتْ فِي نَفْسِي : كَرِهَ أَنْ انْتَسَيْتُ إِلَى غِفَارٍ ، فَذَهَبَتْ أَخْذُ بِيَدِهِ ، فَقَدَّعَنِي — أي كَفَّنِي — صَاحِبُهُ وَكَانَ أَعْلَمَ بِهِ مِنِّي . — يعني فَعَلَّ هَذَا لِدَفْعِ السُّوءِ عَنِّي وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — .

ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ثم قال : متى كنتَ هاهنا ؟ قال : قلتُ : قد كنتُ هاهنا منذ ثلاثين بين ليلة ويوم ، قال : فمن كان يُطْعِمُكَ ؟ قال : قلتُ : ما كان لي طعام إلا ماءُ زَمْزَمَ ، فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُنْكَ بَطْنِي ، وما أَجِدُ على كبدي سُخْفَةً جُوع ، قال : إنها مباركة إنها طَعَامٌ طُعِمَ — أي هي تُشَبِّعُ شاربَها كما يُشَبِّعُ الطَعَامُ — .

(١) الْعُكْنُ جَمْعُ عُكْنَةٍ ، وهي ما انطوى وتَشَنَّى من لحم البطن سِمْنًا . وهذا من بركة ماء زَمْزَمَ .

فقال أبو بكر : يا رسول الله ائذن لي في طعامه الليلة ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وانطلقتُ معهما ، ففتح أبو بكر باباً فجعل يقبض لنا من زبيب الطائف ، وكان ذلك أولَ طعام أكلته بمكة ، الحديث (١) .

٤ - وقال البخاري في « صحيحه » في كتاب العلم في (باب التناوب في العلم) ١ : ١٦٨ ، وفي كتاب النكاح في (باب موعظة الرجل ابنته) ٩ : ٢٤٤ « عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

كنتُ أنا وجارٌ لي من الأنصار - هو أوسُ بن خَوْلٍ الأنصاري - في بني أمية بن زيد - أي ناحية بني أمية - ، وهي من عوالي المدينة ، وكنا نتناوبُ النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فاذا نزلتُ جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك » . انتهى .

وأتبع خبرَ عمر بن الخطاب هذا خبرَ جابر بن عبد الله رضي الله عنهم ، وهو أطيب وأعجب .

٥ - قال الإمام أبو عبد الله البخاري في « صحيحه » في كتاب العلم ٢ : ١٥٨ (باب الخروج في طلب العلم) : « ورَحَّلَ جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد » .

يشير البخاري بهذا إلى الحديث الذي رواه في كتابه : « الأدب المفرد » في باب المعانقة ص ٣٣٧ من طريق عبد الله بن محمد بن عَقِيل ، أنه سمع جابر ابن عبد الله يقول : « بلغني عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشتريتُ بهيراً ثم شددتُ رحلي ، فسَيرتُ إليه شهراً حتى قَدِمْتُ الشام ، فاذا عبد الله بن أنيس ، فقلتُ للبواب : قل له : جابرٌ على الباب ، فقال : ابنُ عبد الله ؟ قلتُ : نعم .

(١) وقد سعى الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ٧ : ١٣٢ ، في التوفيق بين هاتين الروايتين في إسلام أبي ذر : رواية ابن عباس ورواية عبد الله بن الصامت الغفاري .

فخرج عبدُ الله بن أنيس فاعتنقني ، فقلت : حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخشيتُ أن أموت أو تموت قبل أن أسمعَه ، فقال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يَحْشُرُ اللهُ الناسَ يومَ القيامةِ عُرَّةً غُرْلًا^(١) بِهِمَا ، قلنا : ما بِهِمَا ؟ قال : ليس معهم شيء .

فيناديهم بصوت يَسْمَعُهُ من بَعْدَ كما يسمعه من قَرُبَ : أنا المالك — أنا الديان — ، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة يَدْخُلُ الجنة ، وأحدٌ من أهل النار يطلبه بمظلمة ، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يَدْخُلُ النار ، وأحدٌ من أهل الجنة يطلبه بمظلمة — يعني لا يَدْخُلُ أهلُ الجنة : الجنة . وأهلُ النار : النار إلا بعد تصفية الحساب — قلت : وكيف ؟ وإنما تأتي الله عُرَّةً بِهِمَا ؟ قال : بالحسنات والسيئات .» . يعني القصاص يكون بالحسنات والسيئات . انتهى .

وقد ساق الحافظ الخطيب البغدادي خبر جابر هذا في كتابه « الرحلة في طلب الحديث » ص ٥٣ - ٥٥ من طرق كثيرة ، وروى غيره من أخبار الصحابة الذين رحلوا في طلب الحديث . وكتاب « الرحلة » للخطيب كتاب نافع مِهْمًا زَلَّ للمتخلفين عن الرحلة ، فاقرأه لعلك ترحل .

وقال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ١ : ١٥٩ بعد أن أورد حديث جابر هذا في رحلته إلى عبد الله بن أنيس : « وفي هذا الحديث ما كان عليه الصحابة من الحرص على تحصيل السنن النبوية » .

ثم قال الحافظ ابن حجر : « قيل لأحمد بن حنبل : رجلٌ يطلبُ العلمَ يَتَزَمُّ رجلاً عنده علمٌ كثيرٌ أو يَرْحَلُ ؟ قال : يرحل ، يكتسبُ عن علماء

(١) جمع أغرل ، وهو الذي لم يحن . أي يحشرون على حالتهم قبل الختان .

الأمصار ، فيُشَامُ الناسَ وَيَتَعَلَّمُ منهم » . انتهى (١) .

٦ - وفي « شرح الألفية » للحافظ العراقي ٢ : ٢٢٦ ، و « فتح المغيث » للحافظ السخاوي ص ٣٢١ : « سأل عبدُ الله بن أحمد بن حنبل أباه : هل ترى لطالب العلم أن يُلَازِمَ رجلاً عنده علمٌ فيُكْتَبَ عنه ؟ أو يَرْحَلَ إلى المواضع التي فيها العلماء فيَسْمَعُ منهم ؟ قال : يَرْحَلَ ، ويُكْتَبُ عن الكوفيين والبصريين وأهل المدينة ومكة ، يُشَامُ الناسَ يَسْمَعُ منهم .

وقال يحيى بن مَعِين : أربعةٌ لا تُؤْنِسُ منهم رُشدًا ، وذكرَ منهم : رجلاً يَكْتَبُ في بلدِهِ ولا يَرْحَلَ في طلب الحديث .

(١) وجاء هذا الخبر في « الرحلة في طلب الحديث » للخطيب البغدادي ص ٤٧ عن الإمام أحمد بلفظ « ... قال : يَرْحَلَ ، يَكْتَبُ عن الكوفيين والبصريين وأهل المدينة ، يُشَافِهِ الناسَ لِيَسْمَعَ منهم » . انتهى .

وقوله هنا في هذه الرواية الثانية : (يُشَافِهِ الناسَ لِيَسْمَعَ منهم) ، من (المُشَافَهَةِ) ، وهو لفظٌ صحيحُ المعنى ، والمُشَافَهَةُ أن يَكُلِّمَ كلُّ واحدٍ صاحبه مُدُنِيًّا شَفَهَتَهُ من شَفَهَتِهِ ، أي يُحَادِثُهُ بقرَب تامٍّ ولقاء .

وقوله في الرواية الأولى : (فيُشَامُ الناسَ وَيَتَعَلَّمُ منهم) ، من (المُشَامَةِ) ، وسيأتي بهذا اللفظ أيضاً في الخبر التالي ذي الرقم ٦ - وهو لفظٌ صحيحُ المعنى أيضاً ، قال ابن الأثير في « النهاية » : « يقال : شامتُ فلاناً إذا قاربتَه وتعرّفتَ ما عنده بالاختبار والكشف ، وهي مُفاعلةٌ من الشَمِّ ، كأنك تَشَمُّ ما عنده ويَشَمُّ ما عندك ، لتَعْمَلًا بمقتضى ذلك » . انتهى .

ومن (المُشَامَةِ) قولُ مسروق التابعي رضي الله عنه : « شامتُ أصحابِ محمد صلى الله عليه وسلم ، فوجدتُ علمَهم ينتهي إلى ستة ... ، ثم شامتُ الستة فوجدتُ علمَهم انتهى إلى عليٍّ ، وعبدِ الله بن مسعود » . كما في « إعلام الموقعين » لابن القيم ١ : ١٦ . ولفظُ الرواية الأولى : (يُشَامُ الناسَ) في هذا المقام أبلغُ وأعلى وأوسعُ دلالةً من لفظ (يُشَافِهِ الناسَ) ، وكلُّ منهما صحيحُ من حيث المعنى ، ولعل الأثبتَ روايةً عن الإمام أحمد لفظُ (يُشَامُ الناسَ) ، والله أعلم .

وقيل لأحمد بن حنبل : أيسر حِلُّ الرجل في طلب العلم ؟ فقال : بلى والله شديدًا ، لقد كان علقمة بن قيس النخعي ، والأسود بن يزيد النخعي ، — وهما من أهل الكوفة بالعراق — ، يَبْلِغُهُمَا الحديثُ عن عُمَرَ ، فلا يُقْنِعُهُمَا حتى يَخْرُجَا إليه — إلى المدينة المنورة — ، فيَسْمَعَانِهِ مِنْهُ .

٧ — قال القاضي ابن خلدون أستاذ علم الاجتماع في « مقدمته » ص ٢٧٩ « إنَّ الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة : مَزِيدُ كَمَالٍ في التعليم . والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلَّون به من المذاهب والفضائل ، تارة : علماً وتعلماً ولقاءً ، وتارة : مُحَاكَاةً وتلقيناً بالمباشرة . إلا أن حصول الممتلكات عن المباشرة والتلقين ، أشدُّ استحكاماً وأقوى رسوخاً ، فعلى قَدَرِ كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها — وتَفَتُّحُهَا — .

والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مُخْلِطَةٌ على المتعلِّم ، حتى لقد يَظُنُّ كثير منهم أنها جزء من العلم ، ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المتعلِّمين .

فلقاء أهل العلوم ، وتعدُّد المشايخ : يُفِيدُهُ تَمْيِيزُ الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طُرُقِهِمْ فِيهَا ، فيُجَرِّدُ العلمَ عنها ، ويعلم أنها أنحاءٌ تعليم وطُرُقٌ توصيل ، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الممتلكات ، ويصحِّح معارفه ويُمَيِّزُهَا عن سواها ، مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين ، وكثرتيهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم ، وهذا لمن يسر الله عليه طُرُقَ العلم والهداية .

فالرحلة لا بد منها في طلب العلم ، لاكتساب الفوائد والكمال ، بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال ، ﴿ والله يُهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . انتهى .

وما أجمل قول الشاعر العالم الرحال — الذي طَوَّى البلاد والأرضَ

حتى طَوَّته ! — أبي إسحاق الغَزَّي (إبراهيم بن عثمان) ، المولود بغَزَّرة من بلاد فلسطين عام ٤٤١ ، والمتوفى ما بين مَسَرُوَ وبَلَدَخ من بلاد خُراسان ، ونُقِلَ إلى بلخ ودُفِن بها سنة ٥٢٤ رحمه الله تعالى وأكرم مثواه ، ما أجمل قوله في الحَضَّ على الرحلة والتطواف ، وفضل الرحيل عن الأرض التي تُسْجَهَلُ أو تُضَيِّعُ فيها الأكابرُ والأشراف :

لا تَعْمَجِبَنَّ لِمَنْ أَغْنَاهُ عَنْ أَدَبٍ جَهْلٌ ! فإِنَّ الْعَمَى يُغْنِي عَنِ السُّرُجِ
أَخْفَاكَ مَكْتُكَ فِي أَرْضٍ نَشَأَتْ بِهَا وَلَيْسَ يُعْرَفُ قَدْرُ الدَّرِّ فِي اللُّجَجِ

٨ — أنتقلُ بعد هذا إلى ما جاء في هذا الجانب ، عن العلماء التابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، فأستهل به بما جاء عن التابعي الجليل العابد الفقيه (مسروق به الأجدع الهمداني) اليميني الكوفي ، المتوفى سنة ٦٣ رحمه الله تعالى ، صاحب عبد الله بن مسعود ، والذي قال فيه الشَّعْبِيُّ : ما رأيتُ أطلبَ للعلم منه ، حكى الحافظ ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » ١ : ٩٤ « أن مسروقاً رحلَ في حَرَفٍ — أي من أجل كلمة واحدة — وأن أبا سعيد — لعلمه الحسن البصري — رحلَ في حَرَفٍ » أيضاً .

٩ — وساق الخطيب البغدادي في كتابه « اللكفية في علم الرواية » ص ٤٠٣ ، عن التابعي الجليل (أبي العالية) رُفَيْع بن مِهْرَانَ الرِّياحي البصري ، المتوفى سنة ٩٣ رحمه الله تعالى ، « قال أبو العالية : كنا نَسْمَعُ الرواية عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالبصرة ، فما نرضى حتى نركب إلى المدينة فنَسْمَعُهَا من أفواههم » .

١٠ — وجاء في ترجمة سيد التابعين (سعيد بن المسيب) عالم المدينة المنورة المولود سنة ١٣ ، والمتوفى سنة ٩٤ رحمه الله تعالى ورضي عنه ، عند الحافظ ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية » ٩ : ١٠٠ « قال مالك عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، قال : كنتُ أرحلُ الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد » .

١١ - وروى الحافظ الرامسهرُ مِزِي في كتابه « المحدث الفاضل بين الراوي والواعي » ص ٢٢٤ عن الشعبي التابعي الجليل : (عامر بن شراحيل) الكوفي الهمداني ، المولود سنة ١٩ والمتوفى سنة ١٠٣ رحمه الله تعالى « أنه خرج - من الكوفة - إلى مكة في ثلاثة أحاديث ذُكرت له ، فقال : لعلي ألقى رجلاً لقي النبي صلى الله عليه وسلم ، أو : من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم » .

١٢ - وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ١ : ٨١ و ٨٤ في ترجمة الإمام الشعبي (عامر بن شراحيل الكوفي الهمداني) أيضاً رحمه الله تعالى : « قال ابن شبرمة : سمعتُ الشعبي يقول : ما كتبتُ سوداء في بيضاء إلى يومي هذا ، ولا حدثني رجل بحديث قط إلا حفظته ، ولا أحببتُ أن يعيده علي ، ولقد نسيتُ من العلم ما لو حفظه أحد لكان به عالماً .

وعن وادع الراسبي عن الشعبي قال : ما أروي شيئاً أقلَّ من الشعر ، ولو شئتُ لأنشدتكم شهراً لا أعيد .

قال ابن المديني : قيل للشعبي : من أين لك هذا العلم كله ؟ قال : بنفسي الاعتماد ، والسيير في البلاد ، وصبر كصبر الحماد ، وبكور كبكور الغراب » .

١٣ - وروى الخطيب البغدادي في « الرحلة في طلب الحديث » ص ٦٢ ، بسنده إلى التابعي الجليل أبي قلابة (عبد الله بن زيد) الحرمي البصري أحد الأعلام ، المتوفى سنة ١٠٤ ، أنه قال : « أقمتُ في المدينة ثلاثاً - ولعلها : ثلاثة أشهر - ، مالي بها حاجة إلا قدوم رجلٍ بلغني عنه الحديث ، فبلغني أنه يتقدم ، فأقمتُ حتى قدِم فحدثني به » .

١٤ - وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ١ : ١٠٨ ، في ترجمة الإمام التابعي الجليل (مكحول الشامي) إمام أهل الشام وفقههم ، المولود في بلدة كابل من أفغانستان ، والمتوفى بدمشق من بلاد الشام سنة ١١٢ رحمه الله :

« عن ابن إسحاق قال : سمعتُ مكحولاً يقول : طُفْتُ الأرض في طلب العلم . وروى أبو وهب عن مكحول قال : أُعْتِقْتُ بمصر ، فلم أدعُ بها علماً إلا حويته فيما أرى ، ثم أتيتُ العراق ثم أتيتُ المدينة ، فلم أدعُ بهما علماً إلا حويته عليه فيما أرى ، ثم أتيتُ الشام فغربلتُها » .

١٥ - وجاء في « ترتيب المدارك » للقاضي عياض ، في ترجمة (الإمام عبد الله بن فروخ الفارسي القيرواني) وهو أحمدُ أصحاب مالك وأبي حنيفة والثوري وغيرهم ، وتوفي بمصر سنة ١٧٥ ، « قال : لما أتيتُ الكوفة ، وأكثرُ أمسيي السماعُ من الأعمش ، فسألتُ عنه ف قيل لي : غَضِبَ على أصحاب الحديث ، فحالفَ أن لا يسمعَ منهم مُدَّة » .

فكنتُ أختلفُ إلى باب داره لعلِّي أصِلُ إليه ؟ إذ فتحتُ جارية بابَه يوماً وخرجتُ منه ، فقالت لي : ما بالك على بابنا ؟! فأعلمتُها بخبري . قالت : وأين بلدُكم ؟ قلت : إفريقية ، فانشرحتُ إليَّ وقالت : تعرف القيروان ؟ قلت : أنا من أهلها ، قالت : تعرف دارَ ابنِ فروخ ؟ قلت : أنا هو ، فتأملتُني ثم قالت : عبدُ الله ؟ قلت : نعم ، وإذا هي جارية لنا بعناها صغيرة ، فسارعتُ إلى الأعمش وقالت له : مولاي الذي كنتُ أخبرك بحره بالباب . فأمرَ بإدخالِي فدخلت . وأسكنني بيتاً قُبالةَ بيته ، فسمعتُ منه وحديثي » .

وأنقلُ بعد هذا إلى ما جاء في هذا الصَّدَد ، عن سيد المحدثين وإمام أهل السنة ورافعِ لوائها ، وشيخ الزهاد والعُبَّاد الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، المولود سنة ١٦٤ ، والمتوفى سنة ٢٤١ رضي الله عنه .

١٦ - جاء في « المنهج الأحمد » لأبي الحسن العليسي الحنبلي ، وقد استهملَ كتابه هذا بترجمة الإمام أحمد فقال ١ : ٨ « طَلَبَ الإمامُ أحمدُ الحديثَ وهو ابن ست عشرة سنة ، وخرج إلى الكوفة سنة ثلاثٍ وثمانين ومِئَةٍ ، وهو أوَّلُ سافر له ، وخرج إلى البصرة سنة ست وثمانين ، وخرج إلى سفيان ابن عيينة إلى مكة سنة سبع وثمانين ، وهي أوَّلُ سنة حجَّ فيها الإمام أحمد ،

ونخرج إلى عبد الرزاق بصنعاء اليمن سنة سبع وتسعين ، ورافق يحيى بن معين — في رحلته إليه — .

١٧ — وقال الفقيه أحمد بن حنبل في كتابه « صفة الفتوى والمفتي والمستفتي » ص ٧٨ « قال الإمام أحمد : رحلت في طلب العلم والسنة إلى الثغور ، والشامات ، والسواحل ، والمغرب ، والجزائر ، ومكة ، والمدينة ، والحجاز ، واليمن ، والعراقين جميعاً ، وفارس ، وخراسان ، والحبال ، والأطراف ، ثم عدت إلى بغداد » .

١٨ — وجاء في « تهذيب التهذيب » للحافظ ابن حجر ١ : ٧٣ في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل : « قال أحمد : حججت خمس حجج ، منها ثلاث حجج راجلاً — ولا يغيبُ عنك أن بلدَه : بغداد — ، أنفقت في إحدى هذه الحجج ثلاثين درهماً » . وقال ابن الجوزي في « صيد الخاطر » في الفصل — ١٧٥ : « طاف الإمام أحمد بن حنبل الدنيا مرتين حتى جمع المُسنَد » .

١٩ — وهذا الحافظ الإمام الفقيه المحدث (أبو يعقوب إسحاق بن منصور الكوسج المروزي) ، المتوفى سنة ٢٥١ ، تلميذ الإمام أحمد وراوي (المسائل) في الفقه عنه ، كان قد قدم من مرو إلى بغداد ، وتلقى عن الإمام أحمد الفقه والحديث ، ثم رجع إلى خراسان واستقر في نيسابور .

ثم بلغه أن الإمام أحمد رجع عن (المسائل) التي تلقاها منه ، فمشى على قدميه من نيسابور إلى بغداد ، ليتثبت من رأي الإمام أحمد في تلك (المسائل) التي كتبها عنه .

قال ابن أبي يعلى في « طبقات الحنابلة » ١ : ١١٤ ، والذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٢ : ٥٢٤ ، والعسيمي في « المنهج الأحمد » ١ : ١٢٣ :

« كان إسحاق بن منصور الكوسج فقيهاً عالماً ، وهو الذي دون عن الإمام أحمد (المسائل) في الفقه ، قال حسان بن محمد : سمعتُ مشايخنا

يذكرون أن إسحاق بن منصور ، بلغه أن أحمد بن حنبل رجع عن تلك (المسائل) التي علقها عنه ، فجمع إسحاق بن منصور تلك (المسائل) في جراب ، وحملها على ظهره ، وخرج راجلاً إلى بغداد وهي على ظهره ، وعرضَ خُطوطَ أحمد عليه في كل مسألة استفتاه فيها ، فأقر له بها ثانياً ، وأعجب أحمد بذلك من شأنه .

٢٠ - وهذا خبر آخر من أعجب الأخبار وأغربها ، وقع لعالم مغربي ممن دخلوا من المغرب الأقصى إلى المشرق ، وقد رحل هذا العالم المغربي إلى المشرق ليلقي إماماً من أئمة فيأخذ عنه العلم ، ولكنه حين وصل إليه وجده محبوساً ممنوعاً عن الناس ، فتلطّف وتحيّل حتى لقيه فأخذ العلم عنه ، بصورة لا تخطر على البال لولا وقوعها . والتاريخ أبو العجائب والغرائب .

جاء في « المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد » للعلّامة في ١ : ١٧٧ ، وفي « اختصار النابلسي لطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى » ص ٧٩ في ترجمة الإمام (بقي بن مخلد الأندلسي) : « هو أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد الأندلسي الحافظ ، ولد سنة ٢٠١ ، ورحل إلى بغداد — على قدميه — ، وكان جلُّ بغيته ملاقة الإمام أحمد بن حنبل والأخذ عنه .

حكى عنه أنه قال : لما قُرِبتُ من بغداد اتصل بي خبرُ الميحنة التي دارت على أحمد بن حنبل ، وأنه ممنوع من الاجتماع إليه والسماع منه ، فاغتممتُ بذلك غماً شديداً ، فاحتللتُ الموضع ، فلم أعرج على شيء بعد إنزال متاعي في بيت اكريته في بعض الفنادق أن أتيت المسجد الجامع الكبير ، وأنا أريد أن أجلس إلى الحلق وأسمع ما يتذاكرونه .

فدُفِعْتُ إلى حلقة نبيلة ، فاذا برجل يكشف عن الرجال ، فيُضعِفُ ويُقوِّي ، فقلت : من هذا ؟ لمن كان قربي ، فقال : هذا يحيى بن معين ، فرأيتُ فرجة قد انفرجت قُربه ، فقمْتُ إليه فقلت له : يا أبا زكريا رحمك الله ، رجل غريب نائي الدار ، أردتُ السؤال فلا تستخفني ، فقال لي : قلْ ،

فسألته عن بعض من لقيت من أهل الحديث ، فبعضاً زكّى ، وبعضاً جرح .

فسألته في آخر السؤال عن هشام بن عمار ، وكنت قد أكثرت من الأخذ منه ، فقال : أبو الوليد هشام بن عمار صاحب صلاة ، دمشقي ثقة وفوق الثقة ، لو كان تحت رداءه كبر أو تقلد كبراً ما ضره شيئاً خيره وفضله ، فصاح أهل الحلقة : يكفيك رحمة الله عليك ، غيرك له سؤال .

فقلت : وأنا واقف على قدمي : أكشفك عن رجل واحد : أحمد بن حنبل ؟ فنظر إليّ يحيى بن معين كالمتعجب وقال لي : ومثلنا نحن يكشف عن أحمد بن حنبل ؟ ! إنّا ذاك إمام المسلمين وخيرهم وفاضلهم .

ثم خرجت أستدل على منزل أحمد بن حنبل ، فدلت عليه ، فقرعت بابه ، فخرج إليّ وفتح الباب ، فنظر إلى رجل لم يعرفه ، فقلت : يا أبا عبد الله رجل غريب الدار ، هذا أول دخولي هذا البلد ، وأنا طالب حديث ومُقيّد سنة — أي جامع سنة — ، ولم تكن رحلي إلا إليك ، فقال لي : ادخل الأسطوان — يعني به الممر إلى داخل الدار — ولا تقع عليك عين .

فقال لي : وأين موضعك ؟ قلت : المغرب الأقصى ، فقال لي : إفريقية ؟ فقلت : أبعد من ذلك — أجوز من بلدي البحر إلى إفريقية — الأندلس ، فقال لي : إن موضعك لبعيد ، وما كان شيء أحبّ إليّ من أن أحسن عوناً مثلك على مطلبه ، غير أنني في حيني هذا ممتحن بما لعله قد بلغك . فقلت له : بلى قد بلغني وأنا قريب من بلدك مقبل نحوك .

فقلت له : أبا عبد الله هذا أول دخولي ، وأنا مجهول العين عندكم ، فان أذنت لي أن آتي في كل يوم في زِيّ السؤال ، فأقول عند باب الدار ما يقولونه ، فتخرج إلى هذا الموضع ، فلو لم تحدثني في كل يوم إلا بحديث واحد لكان فيه كفاية ، فقال لي : نعم ، على شرط أن لا تظهر في الحلق ولا عند أصحاب الحديث ، فقلت : شرطك .

فكنت آخذ عوداً بيدي ، وألفُ رأسي بخرقة ، وأجعل كاغيدي - أي ورقي - ودواتي في كُمِّي ، ثم آتي بابه فأصيح : الأجرَ رحمكم الله . والسؤالُ هنالك كذلك ، فيُخرج إليَّ ويغلق باب الدار ، ويحدثني بالحديثين والثلاثة والأكثر .

فالتزمت ذلك حتى مات المحتجّن له ، ووَلِيَّ بعده من كان على مذهب السنّة ، فظهر أحمد بن حنبل ، وسَمّا ذكره ، وعظّم في عيون الناس ، وعلت إمامته ، وكانت تُضرب إليه آباط الإبل ، فكان يعرف لي حقّ صبري .

فكنت إذا أتيت حلقتَه فسَح لي وأدناني من نفسه ، ويقول لأصحاب الحديث : هذا يقع عليه اسمُ طالب العلم ، ثم يقص عليهم قصتي معه ، فكان يناولني الحديث مناولة ، ويقرؤه عليّ ، وأقرؤه عليه .

فاعتلت علّة أشفيت منها ، ففقدني من مجلسه فسأل عني ، فأعلم بعائتي ، فقام من فوره مقبلاً إليّ عائداً لي بمن معه ، وأنا مضطجع في البيت الذي كنت أكرّيت ، ولبيدي تحتي ، وكسائي عليّ ، وكتبي عند رأسي .

فسمعت الفندق قد ارتجّ بأهله وأنا أسمعهم - يقولون - : هو ذاك ، أبصروه ، هذا إمام المسلمين مقبلاً ، فبدّر إليّ صاحب الفندق مسرعاً فقال لي : يا أبا عبد الرحمن ، هذا أبو عبد الله أحمد بن حنبل إمام المسلمين مقبلاً إليك عائداً لك .

فدخل فجلس عند رأسي وقد احتشّى البيت من أصحابه فلم يسمعهم ، حتى صارت فرقة منهم في الدار وقوفاً وأقلامهم بأيديهم ، فما زادني على هذه الكلمات فقال لي : يا أبا عبد الرحمن أبشّر بشواب الله ، أيام الصحة لا سقم فيها ، وأيام السقم لا صحة فيها ، أعلاك الله إلى العافية ، ومسح عنك بيمينه الشافية ، فرأيت الأقلام تكتب لفظه .

ثم خرج عني ، فأتاني أهل الفندق يَطْلُفُون بي ، ويخدمونني ديانةً وحسبةً ، فواحد يأتي بفراش ، وآخر بلحاف وبأطايب من الأغذية ، وكانوا في تمرضي أكثر من تمرض أهلي لو كنت بين أظهرهم ، لعيادة الرجل الصالح لي .
وتوفي بقي بن مخلد سنة ٢٧٦ بالأندلس رحمه الله تعالى .

٢١ — وقال الحافظ الإمام ابن أبي حاتم الرازي في كتابه « مقدمة الجرح والتعديل » في ترجمة والده (الإمام أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي) المولود سنة ١٩٥ والمتوفى سنة ٢٧٧ ، عند ذكر رحلته في طلب العلم ص ٣٥٩ ، قال ابن أبي حاتم : « سمعت أبي يقول : أوّل ما خرجتُ في طلب الحديث أقمتُ سبع سنين ، أحصيتُ ما مشيتُ على قدميَّ زيادةً على ألف فرسخ ^(١) ، لم أزل أحصي حتى لما زاد على ألف فرسخ تركته .

وأما ما كنتُ سرتُ أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصي كم مرة ، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة ، وخرجتُ من البحر من قُرب مدينة سلا — وذلك في المغرب الأقصى — إلى مصر ماشياً ، ومن مصر إلى الرملة ماشياً ، ومن الرملة إلى بيت المقدس ، ومن الرملة إلى عسقلان ، ومن الرملة إلى طبرية ، ومن طبرية إلى دمشق ، ومن دمشق إلى حمص ، ومن حمص إلى أنطاكية ، ومن أنطاكية إلى طرسوس .

ثم رجعتُ من طرسوس إلى حمص ، وكان بقي عليّ شي من حديث أبي اليمان فسمعته ، ثم خرجتُ من حمص إلى بيسان ، ومن بيسان إلى الرقة ، ومن الرقة ركبْتُ القُمرات إلى بغداد ، وخرجتُ قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل ، ومن النيل إلى الكوفة ، كل ذلك ماشياً ، كل ذلك ماشياً ، هذا في سفري الأوّل وأنا ابنُ عشرين سنة ، أجولُ سبع سنين ، خرجتُ من الري سنة ٢١٣ في شهر رمضان ، ورجعتُ سنة ٢٢١ .

وخرجتُ المرة الثانية سنة اثنتين وأربعين ، ورجعتُ سنة خمس وأربعين ، أقمتُ ثلاث سنين ، — وكانت سِنِّي في هذه الرحلة ٤٧ سنة — .

(١) الفرسخ بمشي القدم : ساعة ونصف ، وهو يزيد على خمسة كيلومترات .

٢٢ - وجاء في « تهذيب التهذيب » ١١ : ٣٨٧ في ترجمة الحافظ الجوّال (يعقوب بن سفيان الفارسي) المتوفى سنة ٢٧٧ رحمه الله تعالى : « قال أبو عبد الرحمن النهاوندي : سمعت يعقوب بن سفيان يقول : كتبتُ عن ألف شيخٍ وكسّر ، كلُّهم ثقات . وقال ابن حمزة : قال لي يعقوب بن سفيان : أقمتُ في الرحلة ثلاثين سنة » .

٢٣ - وجاء في « تذكرة الحفاظ » للحافظ الذهبي ٢ : ٦٢٧ ، في ترجمة (الفضل الشعّراني) : « الحافظُ الإمام الجوّال ، الفضل بن محمد بن المسيب البيهقي الشعّراني المتوفى سنة ٢٨٢ ، قال ابن المؤمل : كنا نقول : ما بقي بلدٌ لم يدخله الفضل الشعّراني في طلب الحديث إلا الأندلس » .

٢٤ - وجاء في « تذكرة الحفاظ » أيضاً ٢ : ٧٨٩ ، في ترجمة (الحافظ الأرغيباني) : « هو الحافظ البارع الجوّال الزاهد القدوة ، محمد بن المسيب بن إسحاق الأرغيباني ، المتوفى سنة ٣١٢ ، قال الإمام الحاكم أبو عبد الله : كان من العبّاد المجتهدين ، سمعت غير واحد من مشايخنا يذكرون أنه قال : ما أعلم منبراً من منابر الإسلام ، بقي عليّ لم أدخله لسماع الحديث » .

٢٥ - وجاء في « تذكرة الحفاظ » أيضاً ٣ : ٨٥٨ ، في ترجمة الإمام محدث الشام (أبي الحسن خيشمة بن سليمان بن حيدر القرشي الطرابلسي) المولود سنة ٢٥٠ ، والمتوفى سنة ٣٤٣ ، : « قال ابن أبي كامل : سمعت خيشمة يقول :

ركبتُ البحر ، وقصدتُ جبلةً ، لأسمع من يوسف بن بحر ، ثم خرجتُ إلى أنطاكية ، فلقينا مراكبٌ فقاتلناهم ، ثم تسلّم مراكبنا قومٌ من مُقدّمه ، فأخذوني ثم ضربوني ، وكتبوا أسماعنا ، فقالوا : ما اسمك ؟ قلت : خيشمة ، فقال : اكتب حمار ابن حمار !

ولما ضربتُ سكرتُ - يعني أصابته غشية - ونمتُ ، فرأيتُ كأنني أنظر إلى الجنة ، وعلى بابها جماعة من الحُور العين ، فقالت إحداهن : يا

شَقِيَّيْ آيَش فَاتَك ؟ ! قالت أخرى : آيَش فَاتَه ؟ قالت : لو قُتِلَ كان في الجنة مع الحُورِ الْعِينِ ، فقالت لها : لأن يَرْزُقَه اللهُ الشهادة في عِزٍّ من الإسلام وذلٍّ من الشِّرْكِ خيرٌ له ، ثم انتَبَهَتْ .

قال : ورأيتُ كأن من يقول لي : اقرأ (سُورَةَ بَرَاءَةِ) ، فقرأتُ إلى قوله تعالى : ﴿ فَسَيُحْضَرُونَ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ . قال : فعددتُ من ليلة الرؤيا أربعة أشهر ، ففَكَ اللهُ أَسْرِي .

٢٦ — وجاء في « تذكرة الحفاظ » أيضاً ٣ : ٩٧٣ ، في ترجمة (ابن المقرئ) محمد بن إبراهيم الأصبهاني المتوفى سنة ٣٨١ « الإمامُ الرَّحَّالُ الحافظُ الثقة ، قال أبو طاهر أحمد بن محمود : سمعتُ ابنَ المقرئ يقول : طُفْتُ الشرقَ والغربَ أربعَ مراتٍ . »

ثم قال الحافظ الذهبي : « وروى اثنان عن ابن المقرئ أنه قال : مَشَيْتُ بسببِ نُسخَةِ (المفضَّل بن فضالة المصري) سبعينَ مرحلةً ^(١) ، ولو عُرِضَتْ على خبَّازٍ برغيفٍ لم يقبلها ! ودخلتُ بيتَ المقدسَ عشرَ مراتٍ . ولا تنسُ أنَّ بلده أَّصبهان . »

٢٧ — وقال الحافظ الذهبي أيضاً في « تذكرة الحفاظ » في ترجمة الحافظ أبي عبد الله بن مَسْنَدَه° (محمد بن إسحاق) ٣ : ١٠٣٢ « وُلِدَ أبو عبد الله سنة ٣١٠ ، وتوفي سنة ٣٩٥ ، وعِدَّةُ شيوخِهِ الذين سَمِعَ منهم وأخذَ عنهم : ألفٌ وسبْعُ مئةٍ شيخٍ ^(١) . »

(١) يُطلق المحدثون اسمَ (النسخة) على مجموعة من الأحاديث يرويها الشيخ ، وتُعرف وتشتهر بروايته .

(٢) قال الحافظ العراقي في « شرح ألفيته » ٢ : ٢٣٣ في شرح أبيات (آداب طالب الحديث) : « وقد وُصِفَ بالإكثار من الشيوخ : سفيان الثوري ، وأبو داود الطيالسي ، ويونس ابن محمد المؤدَّب ، ومحمد بن يونس الكُدَيْمِي ، وأبو عبد الله بن منده ، والقاسم بن داود البغدادي ، روينا عنه قال : كتبتُ عن سِتَّةِ آلافٍ شيخٍ . »

ولما رجع من الرحلة الطويلة ، كانت كتبه عِدَّةَ أحمال ، حتى قيل : إنها كانت أربعين حِمْلًا ، وما بلغنا أن أحدًا من هذه الأمة سمِعَ ما سمِعَ ، ولا جَمَعَ ما جَمَعَ ، وكان ختامَ الرحَّالين وفردَ المكثرين ، مع الحفظ والمعرفة والصدق وكثرة التصانيف . قال جعفر المستغفري : سألتُه كم تكون سماعاتُ الشيخ ؟ قال : تكون خمسة آلاف من . والمنُّ يجي عشرة أجزاء كبار .

وأولُّ ارتحالِه كان قبل سنة ٣٣٠ إلى نيسابور ، قال الحاكم : التقينا ببُخارى سنة ٣٦١ وقد زاد زيادة ظاهرة ، ثم جاءنا إلى نيسابور سنة خمس وسبعين ذاهباً إلى وطنه . — فرحلَ وعُمُرُه عشرون سنة ، ورجع وعمره خمس وستون سنة ، وكانت رحلته ٤٥ سنة .

قال ابن مَسْنَدَه : طُفْتُ الشرقَ والغربَ مرتين . وقال أبو زكريا ابن مَسْنَدَه : كنتُ مع عمي عُبَيْدِ اللهِ في طريق نيسابور ، فلما بلغنا بئر مجة ، حكى لي عمي قال : كنتُ قافلاً عن خراسان مع أبي ، فلما وصلنا إلى هنا ، إذ نحن بأربعين وقراً من الأحمال ، فظننا أن ذلك ثياب ، فاذا خيمة صغيرة فيها شيخ ، وإذا هو والدُك !

فسأله بعضنا : ما هذه الأحمال ؟ فقال : هذا متاع قَلَّ من يَرغَبُ فيه في هذا الزمان ، هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر لي عمي بعد ذلك فقال : كنتُ قافلاً عن خراسان ، ومعي عِشْرُونَ وَقْراً من الكتب ، فنزلت فيها عند البئر ، اقتداءً بالوالد .

٢٨ — وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٣ : ١١١٩ ، في ترجمة (أبي نصر السجزي) : « هو الحافظُ الإمامُ عَلَمُ السُّنَّةِ ، عُبَيْدُ اللهِ بن سعيد بن حاتم ، أبو نصر السَّجَّزِي المتوفى سنة ٤٤٤ ، من أحفظ أهل زمانه للحديث ، طَوَّفَ الآفاق في طلب الحديث .

قال الحافظ أبو إسحاق الحبَّال : كنتُ يوماً عند أبي نصر السَّجَّزِي ،

فدُقَّ الباب ، ففُتِّحتُ ففتحتُهُ ، فدخلت امرأة وأخرجتُ كيساً فيه ألف دينار ، فوضعتُهُ بين يدي الشيخ وقالت : أنفقها كما ترى . قال ما المقصود ؟ قالت : تنزوّجني ، ولا حاجة لي في الزواج ولكن لأخدمك ، فأمرها بأخذ الكيس وأن تنصرف .

فلما انصرفت قال : خرجتُ من سجستان بنية طلب العلم ، ومتى تزوّجت سقط عني هذا الاسم ، وما أُوثرُ على ثواب طلب العلم شيئاً .

٢٩ — وهذا الحافظ الفقيه أبو سعد السمان الرازي ، المتوفى سنة ٤٤٥ ، أحدُ المحدثين النسّابين الفقهاء القراء العلماء الأفاضل ، طاف الدنيا من مشرقها إلى مغربها على قدميه ، فكان له من الشيوخ ٣٦٠٠ شيخ ، رحمه الله تعالى .

قال الحافظ القرشي في « الجواهر المضية في طبقات الحنفية » ١ : ١٥٦ في ترجمته : « أبو سعد السمان إسماعيل بن علي بن الحسين بن زنجويه الرازي ، الحافظ الزاهد المعتزلي ، شيخ العدلية — أي المعتزلة — وعالمهم ، وفقههم ومتكلمهم ومحدثهم ، كان إماماً بلا مدافعة في القراءات والحديث ومعرفة الرجال والأنساب والفرائض والحساب والشروط والمقدّرات .

وكان إماماً في فقه أبي حنيفة رضي الله عنه وأصحابه ، وفي معرفة الخلفاء بين أبي حنيفة والشافعي رضي الله عنهما ، وفي فقه الزيدية ، وفي الكلام . وكان قد حجّ وزار قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ودخل العراق — وبلده الري في خراسان من أقصى الشرق — ، وطاف الشام والحجاز وبلاد المغرب ، وشاهد الرجال والشيوخ ، وقرأ على ثلاثة آلاف وست مئة رجل من شيوخ زمانه ، وقصد أصبهان لطلب الحديث في آخر عمره ، وكان يقول : من لم يكتب الحديث لم يتغرغر بحلاوة الإسلام .

وكان يقال في مدحه : إنه ما شاهد مثلاً نفسه ، وكان مع هذه الخصال

الحميدة زاهداً ورعاً قوَّاماً ، مجتهداً صوَّاماً ، قانعاً راضياً ، أتى عليه أربع وسبعون سنة لم يُدْخِلْ إصبعه في قصعة إنسان ، ولم يكن لأحدٍ عليه مِنَّةٌ ولا يَدٌ في حَضَرِهِ ولا سَفَرِهِ .

خَلَفَ ما جمعه طولَ عمره من الكتب وقفاً على المسلمين ، كان تاريخ الزمان ، وبقية السلف والخلف ، وصنَّف كتباً كثيرة ، ومات ولم يتأهل قط ، وَمَضَى لسبيله وهو يتبسَّم كالغائب يقدِّم على أهله ، وكالمملوك يرجع إلى مالكة ، مات بالرَّيِّ - مسقط رأسه - سنة ٤٤٥ رحمه الله تعالى .

٣٠ - وقال القاضي المؤرخ ابن خلكان في كتابه « وفيات الأعيان » ٢: ٢٣٣ في ترجمة أبي زكريا (يحيى بن علي التبريزي) المعروف بالخطيب التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ ببغداد ، قال : « كان له معرفة تامة بالأدب من النحو واللغة وغيرهما ، قرأ على أبي العلاء المعري وغيره من أهل الأدب .

وكان سبب توجهه إلى أبي العلاء المعري ، أنه حصلت له نسخة من كتاب « التهذيب » في اللغة تأليف أبي منصور الأزهري ، في عدة مجلدات لطاف ، وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن رجل عالم باللغة ، فدُلَّ على المعري ، فجعل الكتاب في مخلاة وحمَّلها على كتفه من تبريز إلى المعرة ، ولم يكن له ما يستأجر به مركوباً ، فنَفَذَ العرق من ظهره إليها ، فأثَّرَ فيها البلل ، وهي ببعض الوقوف ببغداد ، وإذا رآها من لا يعرف صورة الحال فيها ظنَّ أنها غريقة ، وليس بها سوى عَرَقِ الخطيب التبريزي » .

٣١ - ورحم الله الإمام أبا الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ ، إذ يَصِفُ انهماكَّه في طلب العلم ، وإنفاقه شبابه في تحصيله ، ويَدَّكُرُ مَلَاذَ ذلك الانهماك والإنفاق ، في زمن الاكتحال والاكتمال ، فيقول في كتابه « صيد الخاطر » ٢ : ٣٢٩ :

« من أنفق عَصْرَ الشباب في العلم ، فإنه في زمن الشيخوخة يَحْمَدُ

جَنِّيَ مَا غَرَسَ ، وَبَلَّتْهُ بِتَصْنِيفِ مَا جَمَعَ ، وَلَا يَسْرِى مَا يَفْقَدُ مِنْ لَذَاتِ
الْبَدَنِ شَيْئاً بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا يَنَالُهُ مِنْ لَذَاتِ الْعِلْمِ ، هَذَا مَعَ وَجُودِ لَذَاتِهِ فِي الطَّلَبِ
الَّذِي كَانَ تَأَمَّلَ بِهِ إِدْرَاكَ الْمَطْلُوبِ ، وَرَبَّمَا كَانَتْ تِلْكَ الْأَعْمَالُ أَطْيَبَ مِمَّا
نِيلَ مِنْهَا ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

أَهْتَزُّ عِنْدَ تَمَنِّيٍّ وَصَلِيهَا طَرَباً وَرُبَّ أُمْنِيَّةٍ أَحْلَى مِنَ الظُّفْرِ

وَلَقَدْ تَأَمَّلْتُ نَفْسِي بِالإِضَافَةِ إِلَى عَشِيرَتِي الَّذِينَ أَنْفَقُوا أَعْمَارَهُمْ فِي اكْتِسَابِ
الدُّنْيَا ، وَأَنْفَقْتُ زَمَنَ الصَّبُورَةِ وَالشَّبَابِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ، فَرَأَيْتُنِي لَمْ يَفْتُنِي مِمَّا
نَالُوهُ إِلَّا مَا لَوْ حَصَلَ لِي نَدِمْتُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ تَأَمَّلْتُ حَالِي فَإِذَا عِيشِي فِي الدُّنْيَا
أَجُودُ مِنْ عِيشِهِمْ ، وَجَاهِي بَيْنَ النَّاسِ أَعْلَى مِنْ جَاهِهِمْ ، وَمَا نِيلَتُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ
الْعِلْمِ لَا يُقَوِّمُ .

فَقَالَ لِي إِبْلِيسُ : وَنَسِيتَ تَعْبَكَ وَسَهْرَكَ ؟ ! فَقُلْتُ لَهُ : أَيُّهَا الْجَاهِلُ ،
تَقْطِيعُ الْأَيْدِي لَا وَقَعَ لَهُ - أَيُّ لَا يُذَكَّرُ وَلَيْسَ بِشَيْءٍ - عِنْدَ رُؤْيَا (يُوسُفَ) ،
وَمَا طَالَتْ طَرِيقُ أَدَّتْ إِلَى صَدِيقٍ :

جَزَى اللَّهَ الْمَسِيرَ إِلَيْهِ خَيْراً وَإِنْ تَرَكَ الْمَطَايَا كَالْمَزَادِ^(١) .

٣٢ - وَسَيَأْتِي فِي الْخَبَرِ الْجَامِعِ الثَّانِي خَبَرُ (مُحَمَّدِ بْنِ طَاهِرِ الْمُقَدَّسِيِّ)
فِي ص ١١٤ أَنَّهُ بَالَ الدَّمَ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ مَرَّتَيْنِ ، إِذْ كَانَ يَقْطَعُ
الْمَسَافَاتِ الطَّوَالَ فِي الْهَوَاجِرِ ، فَذَلِكَ مِنْ ذَلِكَ مَا نَالَ ! وَلَا شَكَّ أَنَّ صَبْرَهُمْ
عَلَى هَذِهِ الْمَشَاقِّ الْمُنَادِحَةِ أَعْتَبَهُمُ اللَّهُ بِهِ كَرِيمَ الْأَجْرِ وَجَمِيلَ الذِّكْرِ .

٣٣ - وَحَسْبُكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَسْلَفْتَ لَكَ الْحَدِيثَ عَنْهُمْ ،
قَدْ اشْتَهَى الْخَلِيفَةُ الْعَبَّاسِيُّ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ - وَهُوَ مَالِكُ دُنْيَا الْإِسْلَامِ فِي

(١) الْمَطَايَا جَمْعُ مَطِيَّةٍ ، وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا : النَّاقَةُ الَّتِي أَضْنَاهَا السَّيْرُ ، حَتَّى تَرَكَهَا جُلْدًا عَلَى
عَظْمٍ مِنْ شِدَّةِ تَعَبِهَا وَضَنْهَا ، فَصَارَتْ كَالْمَزَادَةِ ، وَيُرِيدُ بِهَا هُنَا الْقَرِيبَةُ مِنْ جِلْدٍ إِذَا
كَانَتْ خَالِيَةً مِنَ الْمَاءِ ، فَانْهَآ تَكُونُ لَا قُوَّةَ فِيهَا وَلَا قِيَامَ لَهَا .

عصره — أن يكون واحداً منهم ، وهم العلماء الذين حَفِيَّتْ أقدامُهم من السير في طلب العلم ، وذَبَلَتْ أجسامُهم من الصبر على مشاق الأسفار فيه ، قال الحافظ السيوطي في «تاريخ الخلفاء» في ترجمة أبي جعفر المنصور ص ١٧٧ :

« أخرج ابن عساكر ، عن محمد بن سلام الجُمَحِي قال : قيل للمنصور : هل بقي من لذات الدنيا شيء لم تنله ؟ قال بَقِيَتْ خَصْلَةٌ : أن أقعدَ في مصْطَبَةٍ ، وجَوِّلي أصحاب الحديث ، يقول المستملي : مَنْ ذَكَرْتَ رَحِمَكَ الله ؟ — يعني : فأقول : حدثنا فلان ، قال : حدثنا فلان ، قال : حدثنا فلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — ، قال : فغَدَا — أي بكر — عليه الندماء وأبناء الوزراء بالمحابر والدفاتر ، فقال لهم : لستم بهم ! — أي لستم بأصحاب الحديث الذين أعينهم — إنما هم الدَّيْسَةُ ثيابُهم^(١) ، المُشَقَّةُ أرجلُهم ، الطويلة شعورهم ، بُرْدُ الآفاق — أي جَوَّابو البُلدانِ والمسافات البعيدة — ونَقَلَةُ الحديث . انتهى .

وهم الذين قال أبو عبد الله الحاكم النيسابوري فيهم ، في كتابه « معرفة علوم الحديث » ص ٢ — ٣ وهو يذكر فضل أصحاب الحديث وطلَّابِه : « هم قوم سَلَكَوا مَحَجَّةَ الصَّالِحِينَ ، وَاتَّبَعُوا آثَارَ السَّلَفِ مِنَ الْمَاضِينَ ، وَدَمَّغُوا أَهْلَ الْبِدْعِ وَالْمُخَالِفِينَ ، بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِينَ .

آثَرُوا قَطْعَ الْمَفَاوِزِ وَالْقِفَارِ ، عَلَى التَّنَعُّمِ فِي الدَّمَنِ وَالْأَوْطَارِ ، وَتَنَعَّمُوا بِالْبُيُوتِ فِي الْأَسْفَارِ ، مَعَ مُسَاكِنَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْأَخْبَارِ ، وَقَنَعُوا عِنْدَ جَمْعِ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ ، بِوُجُودِ الْكِسْرِ وَالْأَطْمَارِ .

جَعَلُوا الْمَسَاجِدَ بُيُوتَهُمْ ، وَأَسَاطِينَهَا تَكَايَاهُمْ^(٢) ، وَجَوَارِيَهَا

(١) وذلك لكثرة أسفارهم ، لا يفرغون لغسلها فتبقى دَنَسَةٌ بسبب ذلك .

(٢) الأساطين جمع أسطوانة ، وهي سارية المسجد التي يركز عليها سقفه . وتكاياهم ، يتمصدها : متكأهم التي يسندون ظهورهم وجنوبهم عليها .

فُرْشَتَهُمْ (١) ، نَبَذُوا الدُّنْيَا بِأَسْرٍهَا وَرَاءَهُمْ ، وَجَعَلُوا غِذَاءَهُمْ الْكِتَابَةَ ،
وَسَمَّرَ لَهُمُ الْمُعَارَضَةَ (٢) ، وَاسْتَرَوْا حَتَمَهُمُ الْمَذَاكِرَةَ ، وَخَلَّوْا قَبَهُمُ الْمِدَادَ ،
وَنَوْمَهُمُ السُّهَادَ ، وَاصْطَلَاءَهُمُ الضِّيَاءَ ، وَتَوَسَّدَهُمُ الْحَصَى .

فَالشَّدَائِدُ مَعَ وَجُودِ الْأَسَانِيدِ الْعَالِيَةِ عِنْدَهُمْ رَخَاءٌ ، وَوُجُودِ الرِّخَاءِ مَعَ
فَقْدِ مَا طَلَبُوهُ عِنْدَهُمْ بُؤْسٌ ! فَعَقُولُهُمْ بِلَذَازَةِ السُّنَّةِ غَامِرَةٌ ، وَقُلُوبُهُمْ
بِالرِّضَاءِ فِي الْأَحْوَالِ غَامِرَةٌ ، تَعْلَمُ السُّنَنَ سُرُورُهُمْ ، وَمَجَالِسُ الْعِلْمِ
حُبُورُهُمْ ، وَأَهْلُ السِّتَةِ قَاطِبَةٌ لِإِخْوَانِهِمْ ، وَأَهْلُ الْإِلْحَادِ وَالْبِدْعِ بِأَسْرٍهَا
أَعْدَاؤُهُمْ .

وَأَكْتَفِي بِهَذِهِ الْأَخْبَارِ فِي هَذَا الْجَانِبِ ، ثُمَّ أُنْتَقِلُ إِلَى :

الجانب الثاني

فِي أَخْبَارِهِمْ فِي هَجْرِ النَّوْمِ وَالرَّاحَةِ وَالِدَّعَةِ وَسَائِرِ اللَّذَائِذِ .

وَأُسْتَهْلَهُ بِمَا جَاءَ عَنْ حَبْرِ الْأُمَّةِ وَإِمَامِ الْأُئِمَّةِ، الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

٣٤ — قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي « الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ » ٨ : ٢٩٨ فِي تَرْجُمَةِ
الْإِمَامِ (ابْنِ عَبَّاسٍ) : « قَالَ الْبَيْهَقِيُّ — وَسَاقَ ابْنُ كَثِيرٍ سَنَدَهُ إِلَى عَكْرَمَةَ —
قَالَ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قُلْتُ لِرَجُلٍ
مِنَ الْأَنْصَارِ : هَلْ كُنْتُمْ فَلَنْسَأَلَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ فَلَمَّ بِهِمُ الْيَوْمَ كَثِيرٌ ، فَقَالَ :
يَا عَجِبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ! أَتَرَى النَّاسَ يَفْتَقِرُونَ إِلَيْكَ وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ

(١) الْبُورِي جَمْعُ بُورِيَّةٍ وَبَارِيَّةٍ ، وَهِيَ الْحَصِيرَةُ الْمَنْسُوجَةُ الَّتِي تُبَسِّطُ وَيُجْلَسُ عَلَيْهَا .

(٢) أَيْ مُقَابَلَةَ الْكِتَابِ الَّتِي كَتَبَهَا بِالْكِتَابِ الَّتِي سَمِعُوهُ أَوْ نَقَلُوا مِنْهُ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم من فيهم ؟ (١) .

قال : فتترك ذاك ، وأقبلتُ أنا أسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان ليبلغني الحديثُ عن الرجل يأتي بابَه وهو قائل ، فأتوسدُ رِدائي على بابهِ يسفِي الرِّيحَ عليَّ من التراب ، فيخرج فيراني فيقول : يا ابنَ عم رسول الله ما جاء بك ؟ هلاً أرسلت إلي فأتيك ؟ فأقول : لا ، أنسا أحقُّ أن أتيك ، قال : فأسأله عن الحديث .

قال : فعاش هذا الرجل الأنصاري حتى رأيته ، وقد اجتمع حولي الناسُ يسألوني ، فيقول : هذا الفتى كان أعقلَ مني .

٣٥ — وقال محمد بن عبد الله الأنصاري : حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة ، حدثنا أبو سلمة ، عن ابن عباس قال : وجدتُ عامةَ علم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذا الحي من الأنصار ، إن كنتُ لأقيلُ بباب أحدِهِم ولو شئتُ أن يؤذَنَ لي عليه لأُذِنَ لي ، ولكن أبتغي بذلك طيبَ نفسه . ورواه أبو خيثمة النسائي في « كتاب العلم » ص ١٤١ .

٣٦ — وقال الحافظ الذهبي في « تاريخ الإسلام » ٤ : ٣٢ ، في ترجمة التابعي الجليل (عروة بن الزبير) المتوفى سنة ٩٣ رحمه الله تعالى : « قال عروة : لقد كان يبلغني عن الرجل من المهاجرين الحديث ، فأتيه فأجده قد قال — أي نام أو استراح وقتَ القيلولة في منزله — ، فأجلسُ على بابهِ ، فأسأله عنه ، يعني إذا خرج » .

٣٧ — وروى الدارمي في « سننه » ١ : ١٠٥ ، عن التابعي الجليل (سعيد ابن جبير) المتوفى سنة ٩٥ رحمه الله تعالى : « قال : كنتُ أسيرُ مع ابن عباس

(١) يعني : في الناس اليوم كثرةٌ من أصحاب رسول الله الذين عاشروه وسمعوا منه ، فلا يحتاج الناسُ إلى مثلك مع وجود أولئك الأصحاب ، فطلبك للعلم لا يستفيع به الناس ، لاستغنائهم عنك بهم .

في طريق مكة ليلاً ، وكان يحدثني بالحديث ، فأكتبه في واسطة الرّحل ، حتى أصبح فأكتبه .

٣٨ - وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ١ : ٢٥٣ ، و « ميزان الاعتدال » ١ : ٢٤٠ ، في ترجمة العالم العابد (إسماعيل بن عيَّاش الحمصي) المولود سنة ١٠٦ ، والمتوفى سنة ١٨١ رحمه الله تعالى : « قال أبو اليمَّان - هو عامرُ بن عبد الله الحمصي - : كان إسماعيلُ جارَنا ، منزله إلى جنب منزلي ، فكان يُحيي الليل ، وربما قرأ ثم قطع ثم رجع .

فسألته يوماً عن ذلك ؟ فقال : وما سؤالك ؟ قلتُ : أريد أن أعرف ، قال إني أصلي فأقرأ ، فأذكرُ الحديث في الباب من الأبواب التي أخرجتها ، فأقطعُ الصلاة - أي أمسيكُ عنها - فأكتبه ، ثم أرجعُ إلى صلاتي .

٣٩ - وقال الحافظ الذهبي أيضاً في « تذكرة الحفاظ » ١ : ٢٧٧ ، في ترجمة الإمام عبد الله بن المبارك ، المولود سنة ١١٨ ، والمتوفى سنة ١٨١ رحمه الله تعالى : « قال علي بن الحسن بن شقيق : قُسمتُ مع عبد الله بن المبارك في ليلة باردة ، ليخرج من المسجد ، فذاكرني عند الباب بحديث وذاكرته ، فما زال يذاكرني حتى جاء المؤذن فأذن للفجر .

٤٠ - وقال القاضي عياض في « ترتيب المدارك » في ترجمة (عبد الرحمن بن قاسم العُستقي المصري) ٣ : ٢٥٠ أحد أصحاب مالك والليث وغيرهما ، المولود سنة ١٣٢ والمتوفى بمصر سنة ١٩١ رحمه الله تعالى : « قال ابن القاسم : كنتُ آتي مالكاَ غليظاً فأسأله عن مسألتين ، ثلاثة ، أربعة ، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراح صدر ، فكنتُ آتي كلَّ سحر .

فتوسدتُ مرةً عتبة ، فغلبتني عيني فنيمت ، وخرج مالك إلى المسجد ولم أشعر به ، فركضتني جارية سوداء له برجلها ، وقالت لي : إن مولاك قد خرج ، ليس يغسلُ كما تغسلُ أنت ، اليوم له تسع وأربعون سنة ، قالما صلى

البصريح إلا بوضوء العتمة — ظننت السوداء أنه مولاه من كثرة اختلافه إليه — .

قال ابن القاسم : وأتحتُ بباب مالك سبع عشرة سنة ، ما بعثُ فيها ولا اشتريتُ شيئاً ، قال : فبينما أنا عنده ، إذ أقبل حاجٌ مصر ، فإذا شابٌ متلثمٌ دخل علينا ، فسألتهم على مالك ، فقال : أفيكم ابنُ القاسم ؟ فأشيرَ إليّ ، فأقبل يُقبِّلُ عيني ، ووجدتُ منه ريحاً طيبة ، فإذا هي رائحةُ الولد ، وإذا هو ابني ، وكان ابنُ القاسم ترك أمه حاملاً به ، وكانت ابنةُ عمه ، وقد خيرها عند سفره لطول إقامته ، فاختارت البقاء .

٤١ — وروى الحافظ أبو خيثمة النسائي شيخ البخاري ومسلم في « كتاب العلم » ص ١٣٥ « عن الفضيل بن عياض قال : كنا نجلس أنا وابنُ شُبْرُمَةَ والحارث العُكْلِي والمغيرة والقعقاع بن يزيد بالليل ، نتذاكرُ الفقه ، فرمما لم نقيم حتى نسمع النداء لصلاة الفجر » .

٤٢ — وجاء في « مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي ص ٦١ ، و « طبقات الشافعية الكبرى » للناج السبكي ٢ : ٢٨ من طبعة البابي الحلبي ، في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل : « قال قتيبة بن سعيد : كان وكيع إذا صالَى العتمة ينصرف معه أحمد بن حنبل ، فيقف على الباب فيذاكره وكيع . — ووكيع من شيوخ أحمد . —

فأخذ وكيع ليلةً بعضَ أدتَي الباب ، ثم قال : يا أبا عبد الله ، أريد أن أُلقيَ عليك حديثَ سفيان ، قال : هات ، قال : تحفظ عن سفيان ، عن سلمة بن كهيل كذا وكذا ؟ قال : نعم ، حدثنا يحيى . . . ، فيقول — أي وكيع تحفظ عن — سلمة : كذا وكذا ، فيقول : حدثنا عبد الرحمن . . . ، فيقول — أي وكيع — : وعن سفيان عن سلمة كذا وكذا ، فيقول : أنت حدثتنا ، حتى يفرغ من سلمة .

ثم يقول أحمد : فتحفظ عن سلمة كذا وكذا ؟ فيقول وكيع : لا ، فلا يزال يلقي عليه ويقول وكيع : لا ، ثم يأخذ في حديث شيخ .

قال : فلم يزل قائماً حتى جاءت الجارية ، فقالت : قد طَلَعَ الكوكب ،
أوقالت : الزُّهْرَة .»

٤٣ - وقال الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » ١١ : ٢٥ في ترجمة
الإمام (البخاري) أمير المؤمنين في الحديث ، وصاحب الفضل على الناس ، إلى
يوم الناس : « رحَّلَ إلى سائر مشايخ الحديث في البلدان التي أمكنته الرحلة
إليها ، وكتبَ عن أكثر من ألف شيخ ، قال الفِرْبَرِيُّ : سَمِعَ « الصحيح »
من البخاري معي نحو من سبعين ألفاً ، لم يبق منهم أحد غيري .»

ثم قال الحافظ ابن كثير : « وقد كان البخاري يستيقظ في الليلة الواحدة من
نومه ، فيؤقِدُ السراج ويكتب الفائدة تَمَرُّ بخاطره ، ثم يُطْفِئُ سِراجَه ، ثم
يقوم مرة أخرى وأخرى ، حتى كان يتعدَّدُ منه ذلك قريباً من عشرين مرة .»

٤٤ - وجاء في « تهذيب الأسماء واللغات » للإمام النووي ١ : ٧٥ ، و
« طبقات الشافعية » للنتاج السبكي ٢ : ٢٢٠ و ٢٢٦ ، في ترجمة الإمام البخاري
« قال محمد بن يوسف : كنت عند محمد بن إسماعيل - البخاري - بمنزله ذات
ليلة ، فأحضيتُ عليه أنه قام وأسرج - ليستذكر أشياءً يُعلِّقُها في ليلته -
ثمان عشرة مرة .»

وقال محمد بن أبي حاتم وراقُ البخاري : كان أبو عبد الله - البخاري -
إذا كنتُ معه في سفر ، يَجْمَعُنَا بيت واحد إلا في القِيظ أحياناً ، فكنت أراه
يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة ، في كل ذلك يأخذ
البِقْدَ آخِة ، فيُؤْري ناراً ويُسْرِج ، ثم يُخْرِج أحاديث فيُعَلِّمُ عليها ، ثم يضع
رأسه ، وكان يصلي وقت السحر ثلاث عشرة ركعة ، وكان لا يُوقظني في كل
ما يقوم ، فقلت له : إنك تَحْمِلُ على نفسك في كل هذا ولا توقظني ، قال :
أنت شاب ولا أحب أن أفسدَ عليك نومك .

ورأيتُه يستلقى على قفاه يوماً ونحن بفِرْبَرٍ ، في تصنيف « كتاب التفسير »

وكان أتعب نفسه في ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث ، فقلت له : يا أبا عبد الله سمعتك تقول : إني ما أتيت شيئاً بغير علم قط منذ عقلت ، فأني علم في هذا الاستلقاء ؟

قال : أتعبنا أنفسنا في هذا اليوم ، وهذا تغر من الثغور ، خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو ، فأحييت أن أستريح ، وأخذت أهبة لذلك ، فان غافصنا العدو - أي فاجأنا على غيرة - ، كان بنا حرآك - أي قوة - .
وكان يركب إلى الرمي ، فما أعلم أني رأيته في طول ما صحبتته أخطأ سهمه الهدف إلا مرتين ، وكان لا يسبق .

٤٥ - وقال شيخنا الإمام الكوثري رحمه الله تعالى في كتابه « بلوغ الأمان في سيرة الإمام محمد بن الحسن الشيباني » ص ١٥ :

« كان أسد بن الفرات ، - قاضي القيروان وتلميذ الإمام مالك ومؤيد مذهب ، وأحد القادة الفاتحين ، فتح صقلية واستشهد بها سنة ٢١٣ - كان قد خرج من القيروان إلى الشرق سنة ١٧٢ ، فسمع « الموطأ » على مالك بالمدينة ، ثم رحل إلى العراق ، فسمع من أصحاب أبي حنيفة وتفقه عليهم ، وكان أكثر اختلافه إلى محمد بن الحسن الشيباني ، ولما حضره عنده قال له : إني غريب قليل النفقة ، والسماع منك نزر ، والطلبة عندك كثير ، فما حيلتي ؟

فقال له محمد بن الحسن : اسمع مع العراقيين بالنهار ، وقد جعلت لك الليل وحدك ، فتبست عندي وأسمعك ، قال أسد : وكنت أبيت عنده ويسرل إلي ، ويجعل بين يديه قدحاً فيه الماء ، ثم يأخذ في القراءة ، فإذا طال الليل ونعست ، ملأ يده ونفح وجهي بالماء فأنتبه ، فكان ذلك دأبه ودأبي ، حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه .

وكان محمد بن الحسن يتعهد بالنفقة حين علم أن نفقته نفذت ، وأعطاه مرة ثمانين ديناراً حين رآه يشرب من ماء السيل ، وأمدّه بالنفقة حين أراد

الانصراف من العراق » . انتهى بتصرف يسير .

٤٦ - وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٣ : ٩١٢ و ٩١٥ في ترجمة (الإمام الطبراني) : « هو الحافظ الإمام العلامة الحجة بقية الحفاظ ، أبو القاسم سليمان بن أحمد اللخمي الشامي الطبراني مسند الدنيا ، وُلِدَ سنة ستين ومِثْنين ، ومات سنة ستين وثلاث مئة ، فاستكمل مِثْثَ عام وعشرة أشهر ، وحديثه قد ملأ البلاد ، زادت مؤلفاته عن ٧٥ مؤلفاً ، قال الذكواني : سئل الطبراني عن كثرة حديثه فقال : كنت أنامُ على البوّاري - أي الحُصْر - ثلاثين سنة ! » .

٤٧ - وحنكى الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » في ترجمة (عبد الرحمن ابن أبي حاتم الرازي) ٣ : ٨٣٠ صاحب كتاب « الجرح والتعديل » و « التفسير » المعروف باسم « تفسير ابن أبي حاتم » قال : « قال ابن أبي حاتم : رحّلَ بي أبي - من الرّيّ في خراسان - سنة خمس وخمسين ومِثْنين ، وما احتملتُ بعد ، فلما بلغنا ذا الحُلَيْفَة - ميقات أهل المدينة المنورة - احتملتُ ، فسُرَّ أبي حيث أدركتُ حِجَّةَ الإسلام . »

٤٨ - ثم قال الذهبي : « قال علي بن أحمد الخوارزمي : قال ابن أبي حاتم : كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مَرَقَةً ، نهارنا ندُّورُ على الشيوخ ، وبالليل نَنسُخُ ونَقَابِلُ ، فأتينا يوماً أنا ورفيقٌ لي : شيخاً فقالوا : هو عليل ، فرأيت سمكةً أعجبتنا فاشتريناها ، فلما صرنا إلى البيت حضر وقتُ مجلس بعض الشيوخ فمضينا ، فلم تزل السمكة ثلاثة أيام ، وكادت أن تُنْتِنَ فأكلناها نيئةً لم نتفرغ نشويها ، ثم قال : لا يُسْتَطَاعُ العلم براحة الجسد ! » .

٤٩ - وقال القاضي ابن خَلِّكان في « وفيات الأعيان » ١ : ١٥٢ ، في ترجمة الرئيس أبي علي بن سينا (الحسين بن عبد الله بن سينا) ، العالم المتفنن الفيلسوف والطبيب المشهور ، المولود سنة ٣٧٠ ، والمتوفى سنة ٤٢٨ غفر الله لنا وله :

« ولما بلغ عشر سنين من عمره ، كان قد أتقن القرآن العزيز والأدب ، وحفظ أشياء من أصول الدين والحساب والجبر والمقابلة ، ثم أحكم علم المنطق وأقلىدس والمجسطي ، وفاق شيخه : (الحكيم أبا عبد الله الناطلي) أضعافاً كثيرة وكان مع ذلك يختلف في الفقه إلى إسماعيل الزاهد ، واشتغل بتحصيل العلوم كالطبيعي والإلهي ، وفتح الله عليه أبواب العلوم .

ثم رغب بعد ذلك في علم الطب ، وتأمل الكتب المصنفة فيه ، وعالج تأديباً — أي تعليماً وتعليماً — لا تكسباً ، وعلم الطب حتى فاق فيه الأوائل والأواخر في أقل مدة ، وأصبح فيه عديم النظير فقيد المشل ، واختلّف إليه فضلاء هذا الفن وكبرائه ، يقرؤون عليه أنواعه والمعالجات المقتبسة من التجربة ، وسننه إذ ذاك نحو ست عشرة سنة !

وفي مدة اشتغاله لم ينم ليلة واحدةً بكاملها ، ولا اشتغل في النهار بسوى المطالعة ، وكان إذا أشكلت عليه مسألة توضّأ وقصد المسجد الجامع ، وصلى ودعا الله عز وجل أن يسهلها عليه ويفتح مغلقها له ، وكان نادرة عصره في علمه وذكائه وتصانيفه ، وصنّف ما يقارب مئة مصنّف ، ما بين مطوّل ومختصر ورسالة في فنون شتى ، رحمه الله تعالى .

٥٠ — وما أجمل قول علامة العربية ورئيس أهل اللسان فيها أبي القاسم الزمخشري ، يحكي تلذذ العلماء بإيقاظ ليلهم وطول سهرهم :

سَهْرِي لَتَنْقِيحِ الْعُلُومِ الدُّلِّي	مِنْ وَصَلِ غَانِيَةٍ وَطَيْبِ عِنَاقِ
وَتَمَازِلِي طَرَباً لِحُلِّ عَوِيصَةِ	أَشْهَى وَأَحْلَى مِنْ مُدَامَةِ سَاقِ
وَصَرِيرِ أَقْلَامِي عَلَى أَوْرَاقِهَا	أَحْلَى مِنَ الدُّوْكَاهِ وَالْعُشَّاقِ
وَالَّذُ مِنْ نَقَرِ الْفَتَاةِ لِدُفِّهَا	نَقْرِي لِأُلْقِي الرَّمْلَ عَنْ أَوْرَاقِي
أَبَيْتُ سَهْرَانِ الدُّجَى وَتَبَيْتُهُ	نُوماً وَتَبَغْيِي بَعْدَ ذَلِكَ لِحَاقِي !

أنتقل بعد هذا إلى :

الجانب الثالث

في أخبارهم في الصبر على الفقر وشطف العيش ومرارته وبيع الملبوسات أو المفروشات .

وهذا الجانب يعد أوسع الجوانب في هذه الصفحات ، إذ كان الفقير شجاعاً العلماء ودثارهم على الغالب ، فيما مضى من الزمن وفيما يأتي .

٥١ — وقد عقد العلامة الفيلسوف المؤرخ ، والقياضي الفقيه ، والعالم الاجتماعي الأديب ، الشيخ ابن خلدون في « مقدمته » باباً كبيراً تحدّث فيه عن طرق تحصيل المعاش ووجوه الكسب والصنائع ، وما يكون منها له المورد العظيم والثروة الكبيرة ، وما لا يكون منه ذلك ، ثم عقد في ذلك الباب فصلاً خاصاً يبيّن فيه سبب قلّة المال في أيدي العلماء ، فقال رحمه الله تعالى :

« الفصل السابع : في أن القائمين بأمر الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب .

والسبب لذلك : أن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية ، وهي متفاوتة بحسب الحاجة إليها ، فإذا كانت الأعمال ضرورية في العمران عامة البلوى به ، كانت قيمتها أعظم ، وكانت الحاجة إليها أشد .

وأهل هذه الصنائع الدينية لا تضطرّ إليهم عامة الخلق ، وإنما يحتاج إلى ما عندهم الخواص ممن أقبل على دينه ، وإن احتيج إلى الفتيا والقضاء في الخصومات ، فليس على وجه الاضطرار والعموم ، فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأكثر .

وإنما يهتم بإقامة مراسمهم صاحب الدولة بما له من النظر في المصالح ، فيقسم لهم حظاً من الرزق على نسبة الحاجة إليهم ، على النحو الذي قرّره ، لا يساويهم بأهل الشوكة ولا بأهل الصنائع ، من حيث الدين والمراسم

الشرعية ، لكنه يقسمُ بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العمران ، فلا يصح في قسمهم إلا القليل .

وهم أيضاً لشرف بضائعهم أعزة على الخلق وعند نفوسهم ، فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظاً يستدرون به الرزق ، بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك ، لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة المشتملة على أعمال الفكر والبدن ، بل ولا يسعهم ابتذال أنفسهم لأهل الدنيا لشرف بضائعهم ، فهم معزول عن ذلك ، فلذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب .

ولقد باحثت بعض الفضلاء - في هذا المعنى - فأنكر ذلك عليّ ، فوقع بيدي أوراق مخزقة من حسابات الدواوين بدار المأمون ، تشمل على كثير من الدخل والخرج ، وكان فيما طالعت فيه أرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين ، فوقفت عليه ، وعلمت منه صحة ما قلته ورجع إليه ، وقضينا العجب من أسرار الله في خلقه وحكمته في عوالمه ، والله الخالق القادر لا رب سواه .

٥٢ - قال ياقوت الحموي في « معجم الأدباء » في ترجمة (ابن حزم : علي بن أحمد) ١٢ : ٢٣٩ « ذكر أن ابن حزم اجتمع يوماً مع الفقيه أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي صاحب التوايف الكثيرة ، وجرت بينهما مناظرة - في سنة ٤٤٠ - فلما انقضت قال الفقيه أبو الوليد الباجي لابن حزم : تعذرني فإن أكثر مطالعاتي كانت على سرج الخراس ، قال ابن حزم : وتعذرني أيضاً فإن أكثر مطالعاتي كانت على منائر الذهب والفضة . - أي على المصاييح المصنوعة من الذهب والفضة - (١) .

قال ياقوت الحموي : أراد أن الغنى أصبح لطلب العلم من الفقر ! .

(١) والخبر بنحو هذا المعنى في « نفع الطيب » ١ : ٣٥٨ . وقد وقع قوله (على منائر الذهب) محرفاً إلى (منابر الذهب) في « نفع الطيب » و « معجم الأدباء » و « ابن حزم » لأبي زهرة ص ٥٦ .

٥٣ - وجاء في « ترتيب المدارك » للقاضي عياض ، في ترجمة أبي الوليد الباجي (سليمان بن خلف) ٤ : ٨٠٤ من طبعة بيروت :

« كان أصله من بطليوس ، ثم انتقل إلى باجة الأندلس ، وكان أول وروده الأندلس مقيلاً من دنياه ، حتى احتاج في سفره إلى القصد بشعره وأجر نفسه مدّة مقامه ببغداد - فيما سمعته مستفيضاً - لحراسة درّب ، فكان يستعين بإجارته على نفقته ، وبضوئه على مطالعته .

ثم ورد الأندلس وحاله ضيقة ، فكان يتولّى ضرب ورق الذهب للغزل والأنزال ، ويعقد الوثائق ، فلقد حدثني ثقة من أصحابه - والخبر في ذلك مشهور - أنه كان حينئذ يخرج إلينا للقراءة عليه ، وفي يديه أثر المطرقة وصداً العمل .

إلى أن فشا علمه وعُرف ، ونوّهت الدنيا به ، وشهرت توالييفه ، فعُرف حقه ، وجاءته الدنيا ، وعظم جاهه ، وأجزلت صلاته فاتسعت حاله ، وتوفر كسبه ، حتى مات عن مالٍ وافٍ خطير .

وجرت له مجالس ومناظرات مع ابن حزم ، كانت سبب فضيحة ابن حزم وخروجه من ميورقة ، وقد كان رأس أهلها ، ثم لم يزل أمره في سقم فيما بعد . انتهى . ونحوه في « نفح الطيب » ١ : ٣٥٨ و « الديباج المذهب » ص ١٢٠ .

٥٤ - يقول العلامة الجليل الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى في كتابه « ابن حزم » ص ٥٦ ، بعد ذكره خبر اعتذار كل من الباجي وابن حزم لصاحبه بالحال التي نشأ عليها من الفقر المدقع أو الغنى المنقطع : « يرى ابن حزم أن كثرة المال وطيب العيش تسدّ مسالك العلم إلى النفوس ، فلا تتجه إلى العلم ،

فإن الحيدة قد تسهل اللهو ، وتفتح بابه ، وإذا انفتح باب اللهو سُدَّ باب النور والمعرفة ، فلذا نذ الحياة وكثرتها تطمس نور القلب ، وتعمي البصيرة ، وتذهب بحيدة الإدراك .

أما الفقير ، وإن شغله طلب القوت ، قد سُدَّت عليه أبواب اللهو ، فأشرفت النفس ، وانبتق نور الهداية ، هذا نظر ابن حزم .

أما نَظَرُ الباجي فإنه متجه إلى الأسباب المادية من حيث تسهيل الحياة المادية ، من غير نظر إلى الأسباب النفسية التي تتضمن أن الغنى يكون في كثير من الأحوال معه الانصراف عن العلم إلى اللهو ، وقد توفرت ذرائعه . انتهى .

٥٥ — قال عبد الفتاح : والذي أراه أقرب إلى الصواب هو اعتذار الباجي ، فقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه وقوله القول الفصل : « لا تستشر من ليس في بيته دقيق ، لأنه مُدَلَّهُ العقل » (١) .

والحقيقة أن الفقر له حالان :

حال تتلبَّلُ فيها الخواطرُ من الهم والغم وكثرة العيان وانكسار النفس الناشيء عن ذلك ، وما إلى هذا من علل الفقر التي تأخذ بالأنفاس والتلابيب ، ولنعبِّر عن هذا بالفقر الأسود كما يقال ، وهو الذي يُبَدِّدُ الدهن ، ويقتل

(١) هكذا جاء هذا اللفظ : (مُدَلَّه) بالدال المهملة في « مناقب الإمام الشافعي » للبيهقي ٢ :

٢١٣ . وفي « القاموس » : « الدَلَّةُ : ذهابُ الفؤاد من هَمٍّ ونحوه » . وجاء هذا

اللفظ في « الانتقاء » لابن عبد البر ص ٨٧ : « مَوَلَّه » بالواو بدل الدال . وفي

« القاموس » : « الوَلَّةُ : الحُزْنُ أو ذهابُ العقل حُزْنًا » . والرواية الأولى أولى بالسياق

هنا ، والله تعالى أعلم .

وقال إبراهيم النِّظَّام : « إذا كان في جيرانك جنازة ، وليس في بيتك دقيق ، فلا

تحضُرُ الجنازة ، فإنَّ المُصِيبَةَ عندك أكثرُ منها عند القوم ، وبيتك أولى بالمأتم ! »

من « سَرَحَ العيون » لابن نُبَّاتة المصري ص ٢٣٠ . وانظر خبرَ إِملاق النِّظَّام الآتي

برقم ٨٧ .

النبوغ ، ويدوي صاحبه كما تدوي الشجرة الخضراء إذا انقطع عنها الماء .
 وحال ثانية يكون الإنسان فيها فقيراً ، ولكنه يكون خفيف المؤونة ، ثقیل
 الطمأنينة بالله ، لا يؤثر الفقر إلا على سطح جسده ، ومظهر لباسه ، وأما
 خاطره فمستقر مشرق ، ثابت منجم ، ولنسم هذا بالفقر الأبيض كما يقال ،
 وهو نعمة بالنظر الى طالب العلم في أول حياته ، حتى لا تشده الدنيا إلى مشاغلها
 وغمراتها ومفاتها ، فان التقلل من الدنيا أمكن لحفظ العلم .

٥٦ - وهذا النوع يشهد له خبر فقير أبي هريرة ، الذي يأتي في (الجانب
 الرابع) ص ٦٩ - ٧٠ ، فقد دعاه فقره إلى ملازمة رسول الله صلى الله عليه
 وسلم على طمأنينة وخفة مسؤولية ، فكان فقره في ماله حسنة عليه وعلى الناس ،
 إذ كان يكثر من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لشبع بطنه ، وكان في طي
 ذلك حفظه السنة للمسلمين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو كان
 صاحب تجارة أو نخيل ، كالذين عناهم في حديثه الآتي ص ٧٠ من المهاجرين
 والأنصار ، لشغله ما شغلهم عن مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 وقد حَفَلَتْ كتب الأدب والتراجم والتاريخ والأخلاق بأقوال العلماء في
 فقرهم وغربتهم وصبرهم على شدائدهم الخائفة ، واستهانتهم بها وعدم
 اكتراثهم لها ، تمسكاً منهم بمثوبة الصبر ، المحتسب فيه الأجر ، والذي كانوا
 فيه من الفائزين .

فهذا قائل منهم يقول مسائلاً الفقراء عن مسكنه ومنزله ليعرفه فيجتنبه ،
 فيخبره الفقراء أنه جليسه وأنيسه ، وخديته وقريته ، لا يبارحه ولا يفارقه !

قلت للفقير : أين أنت مقيم ؟ قال لي : في عمام الفقهاء !
 إن بيني وبينهم لإخاء وعزيز علي ترك الإخاء !

وآخر يجعل الفقه هو الفقر بعينه ، وإنما استدارت راء الفقر فصارت هاء ،
 فيقول مشيراً إلى التلازم بين الفقه والفقر :

إِنَّ الْفَقِيهَ هُوَ الْفَقِيرُ وَإِنَّمَا رَأَى الْفَقِيرَ تَجَمَّعَتْ أَطْرَافُهَا
وَأَخْرَجَتْ يَدَ كُرٍّ أَثَرِ الْفَقْرِ عَلَيْهِ ! فَقَدْ جَلَبَ لَهُ الْهَجْرَانِ وَالتَّجَاهُلُ مِنْ
أَعَزِّ النَّاسِ لَدَيْهِ وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ !

وَكَانَ بَنُو عَمَّتِي يَقُولُونَ : مَرَّ حَبَابٌ فَلَمَّا رَأَوْنِي مُعْسِرًا مَاتَ مَرَّ حَبَابٌ !

٥٧ — وَهَذَا الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسْتَهِينُ بِسَطْوَةِ الْفَاقَةِ ، وَيَكْسِرُ
جَهْرُوتَهَا بِضَبْرِهِ الَّذِي غَلَبَهَا ، فَيَقُولُ فِيهَا نُسَيْبَ إِلَيْهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

أَمْطَرِي لَوْلَا سَمَاءُ سَرَّ تَدِييَ بَ وَفِيضِي آبَارَ تَكْرُورَ تِهْرَا^(١)
أَنَا إِنْ عِشْتُ لَسْتُ أَعْدَمُ قُوْتًا وَإِذَا مِتُّ لَسْتُ أَعْدَمُ قَبْرًا
هِمَّتِي هِمَّةُ الْمُلُوكِ وَنَفْسِي نَفْسُ حُرٍّ تَرَى الْمَذَلَّةَ كُفْرًا
وَإِذَا مَا قَنَعْتُ بِالْقُوْتِ عُمْرِي فَلَمَّاذَا أَزُورُ زَيْدًا وَعَمْرًا ؟

٥٨ — وَهَذَا الْقَاضِي أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجُرْجَانِيُّ يَقْتَدِي بِالْإِمَامِ
الشَّافِعِيِّ فَيَقُولُ ، كَمَا فِي تَرْجُمَتِهِ فِي « وَفَيَّاتِ الْأَعْيَانِ » ١ : ٣٢٥ :

وَقَالُوا : تَوَصَّلْ بِالْخُضُوعِ إِلَى الْغِنَى وَمَا عَايِمُوا أَنَّ الْخُضُوعَ هُوَ الْفَقْرُ
وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْمَالِ شَيْئَانِ حَرَمًا عَلَيَّ الْغِنَى : نَفْسِي الْأَيِّتَةُ وَالذَّهْرُ
إِذَا قِيلَ : هَذَا الْيُسْرُ أَبْصُرْتُ دُونَهُ مَسَاقِفَ خَيْرٍ مِنْ وَقُوفِي بِهَا الْعُسْرُ !

٥٩ — وَهَذَا آخَرُ مِنَ الْعُلَمَاءِ يَشْمَخُ عَلَى الْفَقْرِ وَالسُّؤَالِ حَتَّى وَلَوْ كَانَ
فِيهِ نَيْلُ الْعُلِيَاءِ ، فَيَنْهَى عَنِ السُّؤَالِ وَمَدَّ الْيَدَ ، وَلَوْ لِلْعُلِيَاءِ ، فَسَمَدُ الْيَدِ مِنْ

(١) سرنديب : جزيرة كبيرة في أقصى الهند بالشرق ، وتكرور اسم بلاد بأقصى جنوب
المغرب .

العالم ذلّةً وانكسارُ نفس ، والعالمُ داعيةُ الحق ، فكسرُ نفسه بالسؤال إضعافٌ للحق الذي يدعو إليه ، فيقول ذلك الفقيرُ الشامخُ الأبي :

وَلَا تَمُدَّنَّ لِلْعِلْيَاءِ مِنْكَ يَدًا حَتَّى تَقُولَ لَكَ الْعِلْيَاءُ هَاتِ يَدَكَ

وآخرُ من العلماءِ يتململ ويضعُفُ عن مُنازلةِ الفقيرِ وأهواله ، وعن الصبرِ عن الاستعانة والاسترفاد فيقول :

الصَّبْرُ يُوجَدُ إِنْ بَاءَ لَهُ كُسِرَتْ لَكِنَّهُ بِسُكُونِ الْبَاءِ مَفْقُودٌ

وآخرُ منهم يُصابِرُ الخطوبَ والأحداثَ فيَصْبِرُهَا ، ويقول :

تَنَكَّرَ لِي دَهْرِي وَلَمْ يَدْرِ أَنِّي أَعِزُّ وَأَحْدَاثُ الزَّمَانِ تَهْوُنُ
فَبَاتَ يُرِينِي الدَّهْرُ كَيْفَ اعْتَدَاؤُهُ وَبِتُ أَرِيهِ الصَّبْرَ كَيْفَ يَكُونُ

وآخرُ من العلماءِ يشمخ على الفقر والآلام وهجماتِهِ ، وَيُنَازِلُ الشَّدَائِدَ بِصَبْرِهِ وَعِزِّمَاتِهِ ، بل وَيُنَازِلُ الصَّبْرَ وَيُقَاوِمُهُ ، فيَغْلِبُ الصَّبْرَ وَيَهْزِمُهُ ، فيقول في ذلك مخبراً عن قُوَّةِ نَفْسِهِ وَمَتَانَةِ شَكِيمَتِهِ :

صَابَرَ الصَّبْرَ فَاسْتَغَاثَ بِهِ الصَّبْرُ رُ فَقَالَ الصَّبْرُ : يَا صَبْرُ صَبِّرَا

ويقف آخرُ من الشَّدَائِدِ يَمْدَحُهَا وَيُقَرِّظُهَا ، لَا حُبّاً بِهَا وَاسْتِدَامَةً لِظِلِّهَا ، وَلَكِنْ لِأَنَّهَا كَشَفَتْ لَهُ الْعَدُوَّ مِنَ الصَّدِيقِ ، وَالِدَعِيَّ مِنَ الْوَفِيِّ ، فيقول :

جَزَى اللَّهُ الشَّدَائِدَ كُلَّ خَيْرٍ وَإِنْ كَانَتْ تُغَصِّصُنِي بِرِيقِنِي
وَمَا مَدَحِي لَهَا شُكْرًا وَلَكِنْ عَرَفْتُ بِهَا عَدُوِّي مِنْ صَدِيقِي

٦٠ - وينصحُ الإمامُ ابنُ هشامِ النحوي المصري ، صاحبُ كتاب «القطر» و«المغني» وغيرهما ، طَلِبَةَ الْعِلْمِ بِالصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِّ الْعِلْمِ وَالتَّحْصِيلِ ، إِذْ هُوَ شَرْطٌ فِي نَيْلِ الْمَرَادِ الْعَزِيزِ الْغَالِي ، فيقول :

ومن يَصْطَبِرُ لِلْعِلْمِ يَنْظَفِرُ بِنَيْلِهِ — ومن يَخْطُبُ الحَسَناءَ يَصْبِرُ على البذل
ومن لم يُنْذَلِ النَّفْسُ فِي طَلَبِ الْعُلَا — يسيراً يَعِشُ دَهراً طويلاً أَخْذُلُ*
٦١ — وكثيراً ما كان أولئك العلماء المملقون إذا عَضَّهم الفقرُ بِنابه ،
يُنْشِدُونَ قولَ الأديبِ الوزيرِ المُهَلَّبِيِّ (الحسن بن محمد الأزدي) المتوفى سنة
٣٥٢ ، وكان قد حلَّ به الإملاق وأقام عنده طويلاً :

أَلَا مَوْتُ يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ — فهذا العَيْشُ مالا خَيْرَ فِيهِ
أَلَا مَوْتُ لَدَيْدُ الطَّعْمِ يَأْتِي — يُخَلِّصُنِي مِنَ العَيْشِ الكَرِيهِ
إِذَا أَبْصَرْتُ قَبْراً مِنْ بَعِيدٍ — وَدِدْتُ لَوْ أَتَنِي مِمَّا يَلِكِيهِ
أَلَا رَحِمَ الْمُهِمِّينَ نَفْسَ حُرٍّ — تَصَدِّقَ بِالْوَفَاةِ عَلَى أُخِيهِ

وقوله أيضاً وقد اشتدَّتْ به الإضاقَةُ — ونُسِبَ لأبي نُوَاسٍ — كما في
ترجمة الوزير من « الوَفَيَّاتِ » ١ : ١٤٢ :

ولو أَنِّي اسْتَزِدْتُكَ فَوْقَ مَا بِي — مِنَ الْبَلَوَى لأَعُوزُكَ الْمَزِيدَ
ولو عَرِضْتُ عَلَى الْمَوْتِ حَيَاةً — بَعِيشٍ مِثْلَ عَيْشِي لَمْ يُرِيدُوا

٦٢ — وأختم ما قالوه في هذا الباب بقول الشاعر أبي إسحاق الغزَّيِّ ، على
لسان هؤلاء الأعلام الأماجد الصابرين ، وقد أحسن فيه كلَّ الإحسان إذ قال
بلسان حالهم :

حَمَلْنَا مِنَ الْأَيَّامِ مَا لَا نُنْطِيقُهُ — كَمَا حَمَلَ الْعَظَمُ الْكَسِيرُ الْعَصَائِبَا

وبقول القائل الذي عَانَقَهُ الْفَقْرُ الْأَسْوَدُ ولم يُفَارِقْهُ ! وأخَذَ مِنْهُ بِخَنَاقِهِ
وَأَنْفَاسِهِ وَصَادَقَهُ ولم يُصَادِقْهُ ! وصاحِبَهُ مع دَوَامِ تَقَلُّبِهِ فِي
الْأَسْفَارِ ، وَقَطَّعِهِ الْهَرَارِي وَالْقَفَارَ ، فقال مجبراً بلسان شكواه ، عن بيان
فقره وبلواه ! :

وَبَدْرُ أَضَاءِ الْأَرْضِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا وَمَوْضِعُ رَحْلِي مِنْهُ أَسْوَدٌ مُظْلِمٌ !

٦٣ - ومع هذا التبرُّم الشديد كله من الفقر ، من أولئك العلماء الذين سمعتَ بعض أقوالهم فيه ، فقد ذهب المحدث الفقيه الشافعي (عبد الله بن أحمد بن زبُر) قاضي مصر ، المولود سنة ٢٥٦ ، والمتوفى سنة ٣٢٩ رحمه الله تعالى ، إلى تفضيل الإملاق على اليسار ، فألّف « كتاب تشریف الفقر على الغنى » ، كما ذكره الحافظ الذهبي في ترجمته في « تاريخ الإسلام » ، في حوادث سنة ٣٢٩ . ولم يكن القاضي ابنُ زبُر من الفقراء ، كما يُعلّم من ترجمته في « رفع الإصر عن قضاة مصر » للحافظ ابن حجر .

٦٤ - وأعود بعد هذا إلى ذكر طائفة من أخبار العلماء في هذا الجانب ، فأستهلها بإمام العربية ومُدوّنِها الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٠ رحمه الله تعالى ، يحكي ابن خلكان في ترجمته في « وفیات الأعيان » ١ : ١٧٣ العجيب الغريب في حال فقره وعُدّته فيقول :

« قال تلميذه النضر بن شُمَيْل : أقام الخليل في خُصٍّ من أخصاص البصرة ، لا يَقْدِرُ على فَلَاسِينَ ! وأصحابه يَكْسِبُونَ بعلمه الأموال ، ولقد سمعته يوماً يقول : إني لَا أُغْلِقُ عليَّ بابي فما يُجَاوِزُه هَمِّي . »

٦٥ - وأُتِنِّي بالإمام مالك إمام دار الهجرة النبوية رضي الله عنه فأقول : قال القاضي عياض شيخ المالكية في عصره في كتابه « ترتيب المدارك لمعرفة أعلام مذهب مالك » في (باب ابتداء طلب مالك للعلم وصبره عليه) ١ : ١٣٠ :

« قال ابن القاسم : أَفْضَى بِمَالِكٍ طَلَبُ الْعِلْمِ إِلَى أَنْ نَقْضَ سَقْفَ بَيْتِهِ فَبَاعَ خَشْبَهُ ، ثُمَّ مَالَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا بَعْدَ . ثم نقل القاضي عياض ٢ : ٦٨ « قال مالك : لَا يُسْأَلُ هَذَا الْأَمْرُ - يعني العلم - حَتَّى يُسْأَلَ فِيهِ طَعْمُ الْفَقْرِ . »

٦٦ - وحكى الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » ١٤ : ٢٤٤ في

ترجمة القاضي أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة المتوفى سنة ١٨٢ : « قال أبو يوسف كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقلد رث الحال ، فجاء أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة فانصرفت معه ، فقال : يا بُنَيَّ لا تَمُدَّن رِجْلَكَ مع أبي حنيفة ، فان أبا حنيفة خبزه مَشْوِي ، وأنت تحتاج إلى المعاش ، فقصرت عن كثير من الطلاب ، وآثرت طاعة أبي .

فتفقّدني أبو حنيفة وسأل عني ، فجعلت أتعاهدُ مجلسه ، فلما كان أوّل يوم أتيته بعد تأخري عنه ، قال لي : ما شغلك عنا ؟ قلت : الشغلُ بالمعاش وطاعةُ والدي ، فجلستُ ، فلما انصرف الناسُ دفعَ إليّ صرة وقال : استمع بهذه ، فنظرتُ فإذا فيها مئةُ درهم ، فقال لي : الزم الحلقة ، وإذا نفدت هذه فأعلمني ، فلزمت الحلقة ، فلما مضت مدة يسيرة دفعَ إليّ مئةً أخرى ، ثم كان يتعاهدني ، وما أعلمته بخاتمة قط ولا أخبرته بنفاد شيء ما ، وكان كأنه يُخبرُ بنفادها حتى استغنيتُ وتموّلت . »

٦٧ — وهناك رواية ثانية في نشأة الإمام أبي يوسف ، « قال علي بن الجعد : أخبرني أبو يوسف قال : توفّي أبي : إبراهيم بن حبيب ، وخلّفتني صغيراً في حجر أمي ، فأسلمتني إلى قصّارٍ أخدمه ، فكنت أدعُ القصّار وأمرُ إلى حلقة أبي حنيفة ، فأجلس أستمع ، فكانت أمي تجيء خلفي إلى الحلقة ، فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصّار ، وكان أبو حنيفة يُعنى بي لما يَرى من حضوري وحرصِي على التعلّم . »

فلما كثر ذلك على أمي وطال عليها هربي ، قالت لأبي حنيفة : ما لهذا الصبي فسادٌ غيرك ! هذا صبيٌ يقيم لا شيء له ، وإنما أطمعه من مغزلي ! وآملُ أن يكسب دانيقاً يعودُ به على نفسه . فقال لها أبو حنيفة : مرّي يا رَعْناء ، هوذا يتعلّم أكل الفالوذج بدُهنِ الفُسْتَق . فانصرفت عنه وقالت له : أنت شيخٌ قد خَرِفْتَ وذهبَ عقلك !

قال أبو يوسف : ثم لَزِمْتُ أبا حنيفة وكان يتعاهدني بماله ، فما ترك لي خِصْلَةً ، فنفعني الله بالعلم ورفّعي حتى تقلدتُ القضاء ، وكنت أجالس هارون الرشيد ، وآكلُ معه على مائدته ، فلما كان في بعض الأيام قُدمَ إلى هارون الرشيد فالوذج ، فقال لي هارون : يا يعقوب كُـلْ منه فليس يُعْمَلُ لنا مثله كل يوم ، فقلت : وما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذا فالوذج بدُهْنِ الفُسْتَقِ ، فضحكت ، فقال لي : مم ضحكت ؟ فقلت : خيراً أبقى الله أمير المؤمنين ، قال : لَتُخْبِرَنِيْ - وألحَّ علي - فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها ، فعجِبَ من ذلك وقال : لعمرى : إنَّ العلم ليرفعُ وينفعُ ديناً ودنياً ، وترحم على أبي حنيفة وقال : كان يَنْظُرُ بعينٍ عقليه ما لا يراه بعينِ رأسه .

٦٨ - وروى الحافظ ابن عبد البر في كتابه « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » ص ٧٠ بسنده إلى الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ رضي الله عنه قال :

« لم يكن لي مال ، وكنتُ أطلب العلم في الحداثة - أي في مستهل عمره ، وكانت سنُّهُ أَقلَّ من ثلاث عشرة سنة - وكنتُ أذهبُ إلى الديوان أستوهبُ الظهور - أي ظهورَ الأوراقِ المكتوبِ عليها - فأكتبُ فيها . »

٦٩ - وقال المسعودي في « مروج الذهب » ٧ : ٧٣ - ٧٥ ، والقاضي عياض في « ترتيب المدارك » ٣ : ٢١٢ - ٢١٣ في ترجمة عالم المغازي والسير (محمد بن عُمَرَ الواقدي) ، المتوفى سنة ٢٠٧ ، « قال محمد بن سعد : رآني الواقدي مغتماً فقال لي : لا تَغْتَمْ ، فان الرزق يأتي من حيث لا تَحْتَسِبُ ، أَمَلَقْتُ مرةً حتى بَعْتُ بِرِذْوَنِي ^(١) ! فاستبطنني يحيى بن خالد ، فاعتذرتُ إليه ، فوقف على حالي فأمر لي بخمس مئة دينار ، فصيرتُ بها إلى البيت ، فأنا في تصريفها في قضاء الدين والعيال ، إذ طرَّقني رجل من أهل المدينة قد قَطِيعَ

(١) هو نوع من الخيل غير العربية ، وتسميه العامة عندنا في بلاد الشام : الكدِيش .

عليه الطريق ، من ولد أبي بكر رضي الله عنه ، فشكا إليَّ حاله ، فدفعْتُ إليه ما فضَّل ، ولم أشتَرِ بِرُذُوناً .

فاستبطأني يحيى بن خالد ، فأخبرته الخبر ، فوجهَّ إلى البكري فسأله ؟ فقال : نعم أخذتُ الدنانيرَ منه ، فلما صِرتُ بها في البيت جاعني فلان الأنصاري ، فشكا إليَّ حاله فدفعْتُها إليه .

فوجهَّ يحيى إلى الأنصاري يسأله هل وجهَّ البكري إليه المال ؟ فأخبره الخبر ، فتعجَّب يحيى بن خالد من الكرم ، ثم أَمَرَ لي بألف دينار ، وللبكري بمثلها ، وللأنصاري بمثلها ، ولزوجتي بخمسة مئةٍ لغمَّها حين دَفَعْتُ الدنانير إلى البكري .

☆ قال الواقدي : وكان لي صديقان ، أحدهما هاشمي ، وكنا كنْفُسٍ واحدة ، فنالتني ضيقة شديدة وحضر العيد ! ، فقالت لي امرأتي : أمّا نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة ، وأمّا صبياننا فقد قَطَّعُوا قلبي رحمةً لهم ، لأنهم يَبْرُونَ صبيان الجيران قد تزيّنوا في عيدهم ، وأصلحوا ثيابهم ، وهم على هذه الحال من الثياب الرثّة ! فلو احتَلَّتْ بشيءٍ تَصْرِفُهُ في كسوتهم !

فكُتِبْتُ إلى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة عليَّ بما حضره ، فوجهَّ إليَّ كيساً مختوماً ، ذكرَ أن فيه ألف درهم ، فما استقرَّ قَرَارِي حتى كُتِبَ إليَّ الصديقُ الآخر : يشكو مثلَ شكواي إلى صاحبي ، فوجهَّتْ إليه الكيس بحاله ، وخرجتُ إلى المسجد فأقمتُ فيه ليلي مستحياً من امرأتي ، ثم رجعتُ ، فلما دخلتُ عليها استحسنتُ ما كان مني ولم تُعَنِّفني عليه .

فبينما أنا كذلك ، إذ وافاني صديقي الهاشمي ومعه الكيسُ كهيشته ، فقال لي : اصدُقْني عما فعلته فيما وجهَّتْ إليك ، فعرفته الخبر على جهته .

فقال : إنك وجهَّتْ إليَّ تسألني العون وما أملكُ إلا ما بَعَثْتُ به إليك ، وكتبتُ إلى صديقنا أسأله المواساة ، فوجهَّ إلي بكيسي بخاتمي ، قال الواقدي :

فتواستيننا الألف ، وقسمناها بيننا أثلاثاً ، بعد أن أخرجنا للمرأة مئة درهم ، ونُسي الخبرُ إلى المأمون ، فدعاني فشرحتُ له الأمر ، فأمرَ لنا بسبعة آلاف دينار ، لكل واحدٍ منا ألفا دينار ، وللمرأة ألف دينار .

٧٠ — وعقد الحافظ ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كتابه « مناقب الإمام أحمد بن حنبل » باباً لذكر جماعة من العلماء لم يُجيبوا في محنة (مسألة خلق القرآن)^(١) ، فذكرَ منهم (عثمان بن مسلم) شيخ البخاري المتوفى سنة ٢٢٠ ، فقال في ص ٣٩٤ : « وكان عفان بن مسلم أول من امتحن من الناس » .

ثم ساق ابن الجوزي بسنده إلى القاسم بن أبي صالح : « قال : سمعتُ إبراهيم — بن الحسين بن ديزيل — يقول : لما دُعي عفان بن مسلم للمحنة ، كنتُ أخذاً بلجام حماره ، فلما حَضَرَ عُرِضَ عليه القول فامتنع أن يجيب ، ف قيل له : يُحبسُ عطاؤك ، وكان يُعطى في كل شهر ألف درهم ، فقال : ﴿ وفي السماء رزقكم وما تُوعدون ﴾ . فلما رجع إلى داره عذله — أي لامه — نساؤه ومن في داره ، وكان في داره نحو أربعين إنساناً .

فدقَّ عليه داقُ الباب ، فدخلَ عليه رجل — قال — : شَبَّهْتُهُ بِسَمَانَ أوزيَّات ، ومعه كيس فيه ألف درهم ، فقال : يا أبا عثمان ثبَّتْكَ الله كما ثبَّتَ الدين ، وهذا لك في كل شهر .

٧١ — وهذا إمام الأئمة في علم الجرح والتعديل (يحيى بن مَعِين) شيخ البخاري ومسلم وسواهما من أئمة الحديث ، المتوفى سنة ٢٣٣ ، قال العُلَيْمِي في ترجمته في « المنهج الأحمد » ١ : ٩٥ « وُلِدَ في خلافة أبي جعفر المنصور سنة ١٥٨ ، وكان أبوه (مَعِين) كاتباً لعبد الله بن مالك ، ثم صار على خراج الرِّيِّ ، فمات ، فخلفَ لابنه (يحيى) ألف ألف درهم وخمسين ألف درهم ،

(١) انظر رسالتي « مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل » . ففيها إبانة لتاريخ هذه المسألة وسببها ومخالفاتها !

فأنفقه كله يحيى على الحديث ، حتى لم يبق له نعلٌ يلبسه !

وخلف يحيى من الكتب مئة قمطر وأربعة عشر قمطراً^(١) ، وأربع حباب شبرانية مملوءة كتباً . وفي « تهذيب التهذيب » ١١ : ٢٨٢ « وعشرين حباً »^(٢) .

٧٢ — وجاء في « تذكرة الحفاظ » ٢ : ٥١٠ ، و « تهذيب التهذيب » ٩ : ١٦١ ، و « تهذيب الكمال » للحافظ المزي — مخطوط — ، كلهم ذكروا في ترجمة (محمد بن رافع النيسابوري) الحافظ القدوة شيخ البخاري ومسلم وطبقتهما ، المتوفى سنة ٢٤٥ . رحمه الله تعالى ، — والسياق الآتي من مجموع كلامهم — :

(١) قال صاحب « لسان العرب » فيه : « القِمَطْرُ : أصله البعير الشديد الصلب ، أو الضخم القوي . ثم أطلق على شبه السقف من القصب ، تُصانُ به الكتب » . وقال في « القاموس » في تفسير (السقف) : « السقف كالجوالق أو كالفقة ، جمعه أسفاط » . وقال الزبيدي في « شرح الإحياء » ١ : ٣٥٩ : « القمطر كالقمطرة : سَقَطٌ يسوَّى من قصب يصان فيه الكتب » . وجاء في « تهذيب التهذيب » في ترجمة (يحيى بن معين) ١١ : ٢٨٢ « قال محمد بن نصر الطبري : دخلتُ على ابن معين ، فوجدتُ عنده كذا وكذا سَقَطاً ، وسمعتُه يقول : كل حديث لا يوجد هاهنا ، وأشار بيده إلى الأسفاط ، فهو كذب » . انتهى .

فالقِمَطْرُ في كلام العلماء المرادُ به السَقَطُ الذي تحفظ به الكتب .

(٢) الحباب بالخاء المهملة المكسورة : جمع (حَبّ) بضم الحاء ، وهو الجرّة الكبيرة الضخمة . وكانوا يضعون كتبهم في تلك الجرار الكبيرة حفظاً لها ، وقد شهدتها في بعض القرى القديمة يخزنون فيها الحبوب ، وسعة محيطها لا يحيط بها ذراعاً رجلين متقابلين . ووقع في « المنهج الأحمد » و « تهذيب التهذيب » بلفظ (وأربع حباب) و (عشرين حباً) بالجمع فيهما ، وهو تحريف عما أثبتته . و (شبرانية) أي كبيرة تقاس بالأشبار الكثيرة .

« قال زكريا بن دكؤييه : بعث الأمير طاهر — بن عبد الله الخزاعي — إلى محمد بن رافع بخمسة آلاف درهم ، على يد رسول له ، فدخل عليه بعد صلاة العصر ، وهو يأكل الخبز مع الفجل ، فوضع الكيس بين يديه ، وقال : بعث الأمير طاهر بهذا المال لتنفقه على أهلِكَ .

فقال له محمد بن رافع : خذْ خذْ لا أحتاج إليه ، فإنَّ الشمس قد بلغت رأسَ الحيطان ، إنما تغربُ بعد ساعة ، قد جاوزتُ الثمانين ، إلى متى أعيش ؟ فردَّ المال ولم يقبله ، فأخذ الرسولُ المالَ وذهب ، فدخل على محمد بن رافع ابنه فقال له : يا أبه ليس لنا خبزُ الليلة ! وكان محمد بن رافع يخرج إلينا في الشتاء الشاتي ، وقد لبسَ لحافه الذي يلبسه بالليل ! » .

٧٣ — قال القاضي ابن خلكان في كتابه « وفيات الأعيان » ١ : ١٧٥ — ١٧٦ في ترجمة (داود بن علي الأصبهاني البغدادي الظاهري) إمام الظاهرية المتوفى سنة ٢٧٠ : « انتهت إليه رئاسةُ العلم ببغداد .

قال أبو عبد الله المحاملي : صليتُ صلاةَ عيد الفِطر في جامع المدينة ، وقلت : أدخلُ على داود بن علي فأهنيه ، فجئته وإذا بين يديه طبقٌ فيه أوراق هندباء ^(١) ، وعصارة فيها نخالة وهو يأكل ، فهنأته وعجبتُ من حاله ! ورأيتُ أن جميع ما في الدنيا ليس بشيء .

فخرجتُ من عنده ودخلتُ على رجل من محبِّي الصنعة — أي فعل الخير والكرم — يقال له : الجرجاني ، فخرج إليَّ حاسِرَ الرأس حافيي القدمين ، وقال لي : ما عنتي القاضي ؟ ! قلت : مهيم ! قال : ما هو ؟ قلت : في جوارك داودُ بن علي ومكانه من العلم ما تعلمه ، وأنت كثيرُ الصلة والرغبة في الخير تغفلُ عنه ؟ ! وحدَّثته بما رأيت .

فقال الجرجاني : داودُ شَرِيسُ الخُلَاق ! وجهتُ إليه البارحة بألف

(١) نوع من البقول رخيص مبذول .

درهم ليستعين بها فردّها علي ، وقال للغلام : قل له : بأيّ عينٍ رأيتني ؟ وما الذي بلسّغاك من حاجتي وخلّتي حتى بعثت لي بهذا ؟ !

قال المسحامي : فعسّجبتُ وقلت للجرجاني : هات الدراهم ، فإني أحملها إليه ، فدفعها إليّ ، وقال للغلام : ائتني بكيس آخر ، فوزن ألفاً أخرى وقال : تلك لنا وهذه لعناية القاضي ، فأخذتُ له الألفين وجئتُ إليه ، فقَرعتُ الباب ودخلتُ وجلستُ ساعة ، ثم أخرجت الدراهم وجعلتها بين يديه ، فقال : هذا جزاءُ من ائتمنتك على سرّه ؟ أنا بأمانة العلم أدخلتُك إليّ ، ارجع فلا حاجة لي فيما معك .

قال المسحامي : فرجعتُ وقد صَغُرَت الدنيا في عيني ، وأخبرتُ الجرجاني فقال : إني أخرجت هذه الدراهم لله تعالى فلا ترجعُ في مالي ، فليتولَّ القاضي إخراجها في أهل البرِّ والعفاف .

٧٤ - ومن غريب ما وقع من هذا الإمام - داود بن علي الظاهري - الفقير المعدم الصابر المطمئن رحمته الله تعالى ، أنه ازدرى عالماً كبيراً من العلماء لفقره ، فبخّعه ذلك العالم الفقير بالعلم ، فكان له من ذلك درسٌ عجيب !

قال القاضي ابن خلكان : « قيل : إنه كان يحضّر مجلس داود بن علي الظاهري كلّ يوم أربع مئة صاحب طيلسان أخضر - أي أربع مئة عالم كبير - ، قال داود : حضّر مجلسي يوماً أبو يعقوب الشّريطي ، وكان من أهل البصرة ^(١) ، وعليه خرقتان ! فتصدّر لنفسه من غير أن يرفعه أحد ،

(١) لم أقف على ترجمة (أبي يعقوب الشريطي) هذا فيما تيسر لي من المراجع ، وشكاته بالتصغير ترجيحاً مني . وأما قول القاضي محمد سليمان في كتابه « من أخلاق العلماء » ص ٣٢٢ : « والظاهر أن أبا يعقوب هذا هو : الشهيد ، قد عاصر داود ، وهو إسحاق بن إبراهيم بن حبيب الشهيد - كذا - ، كان من البصرة ، وتوفي سنة ٢٥٧ ، ووفاة داود سنة ٢٧٠ » . انتهى . فهو غير ظاهر ولا صواب عندي ، فقد ترجم الخطيب في « تاريخ بغداد » ٦ : ٣٧٠ لإسحاق هذا ، باسم (إسحاق بن إبراهيم بن

وجلس إلى جانبي ، وقال لي : سَلْ يا فتى عما بدا لك ، فكأنني غضبتُ منه !
فقلت له مستهزئاً : أسألك عن الحِجامة ، فبرك أبو يعقوب ، ثم رَوَى طريقَ
حديث « أَفْطَرَ الحَاجِمُ والمحجوم » ، ومن أرسله ، ومن أسنده ، ومن
وقفه ، ومن ذهب إليه من الفقهاء .

ورَوَى اختلافَ طريق حديث احتجام النبي على الله عليه وسلم وإعطاء
الحِجَام أَجره ، ولو كان حراماً لم يُعطيه ، ثم رَوَى طُرُقَ حديث أن النبي
صلى الله عليه وسلم احتجَمَ بقَرْنٍ ، وذكرَ أحاديثَ صحيحة في الحِجامة ، ثم
ذكرَ الأحاديثَ المتوسطة مثل « ما مررتُ بمأ من الملائكة ... » ومثل « شفاءُ
أُمِّي في ثلاث . . . » وما أشبه ذلك .

وذكرَ الأحاديثَ الضعيفة — أي الموضوعه — مثل قوله صلى الله عليه
وسلم : « لا تحتجموا يوم كذا ، ولا ساعة كذا » . ثم ذكرَ ما ذهب إليه أهلُ
الطب من الحِجامة في كل زمان وما ذكروه فيها ، ثم ختمَ كلامه بأن قال :
وأولُ ما خَرَجْتُ الحِجامة من أصبهان ! — بلاد داود بن علي الظاهري — ،
فقلت له : والله لا حَقَرْتُ بعدك أحداً أبداً ^(١) .

الشهيد) هكذا بدون نسبة ، ولم يذكر أن كنيته (أبو يعقوب) ، وليس في ترجمته ما
يشعر بأنه صاحب الواقعة مع (داود) .

ولا يلزم من كون كنيته (أبا يعقوب) أن يكون اسمه (إسحاق) ، فقد جاء في «تاريخ
بغداد» ٦ : ٣١٦ — ٤٠٤ تراجم أعداد كثيرة من العلماء المسمَّين : (إسحاق) ،
وكناهم غير (أبي يعقوب) ، فقد تكون كنية (الشريطي) : (أبا يعقوب) وليس اسمه
(إسحاق) ، كما أن كثيراً ممن سمي (إسحاق) لم تكن كنيته (أبا يعقوب) ، فاعلم
ذلك ، واجتث عنه لعلك تقف على ترجمته .

(١) تكلم الشيخ الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، على (الحِجامة) وما ورد فيها مما صح
ومما لم يصح ، وعلى ما يتعلق بها زماناً وسيناً ومكاناً ... ، وأوسع الكلامَ فيها في كتابه
« زاد المعاد » ٣ : ١٦٧ — ١٧٦ ، فليعد إليه من شاء .

٧٥ — وقال الأمير الصنعاني في « توضيح الأفكار » ٢ : ٢٥٤ « ومن العلماء من رخص في أخذ الأجرة على التحديث ، منهم أبو نعيم الفضل بن دكين المولود سنة ١٣٠ والمتوفى سنة ٢١٩ شيخ البخاري وأحمد وإسحاق بن راهويه وابن المبارك وخلق ، كان يأخذ العيوض على التحديث ، بحيث إنه كان إذا لم يكن مع الطلبة دراهم صراح بل مكسورة أخذ صرّفها — أي الفرق الذي يكون بين القطع الصغيرة والكبيرة — وكان يقول : يلوموني على الأخذ ، وفي بيتي ثلاثة عشر إنساناً ، وما في بيتي رغيف ! » .

٧٦ — وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٢ : ٦٣٠ في ترجمة الإمام الحافظ شيخ الإسلام (بقي بن مخلد القرطبي) ، المتوفى سنة ٢٧٦ رحمه الله تعالى ، وقد طوّف الشرق والغرب على قدميه ، قال الذهبي : « قال أبو الوليد الفريسي : كان بقي يقول : إني لأعرف رجلاً كانت تمضي عليه الأيام في وقت طلبه ، ليس له عيش إلا ورق الكرنب » (١) .

٧٧ — قال عبد الفتاح : يعني بالرجل نفسه رحمه الله تعالى . وقال بقي أيضاً : « كل من رحلت إليه ، فماشياً على قدَمَيَّ » . وقد رحل من الأندلس إلى أحمد بن حنبل في بغداد ، كما تقدم ذكر رحلته إليه في الخبر — ٢٠ — .

٧٨ — وجاء في « تهذيب التهذيب » ٩ : ٤٩٠ للحافظ ابن حجر ، في ترجمة الإمام (محمد بن نصر المروزي) المتوفى سنة ٢٩٤ « قال محمد بن نصر : أقمْتُ بمصر كذا كذا سنة ، فكان قُوتِي ، وثيَابِي ، وكاغِذِي — أي ورَقِي — وحِبرِي في السنة عشرين درهماً » .

٧٩ — وساق تاج الدين السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » ٢ : ٤٣ بسنده ، وذكر الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » ١١ : ١٠٣ في ترجمة (محمد بن نصر المروزي) ، والحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » في ترجمة

(١) الكرنب : هو السلق أو نوع يشبهه يسمى الملفوف .

(محمد بن هارون الروياني) ٢ : ٧٥٣ ، حكاية إملاق المحدثين بمصر ،
والسياقة الآتية هي للتاج السبكي : « قال أبو العباس البكري : جمعت الرحلة
بين محمد بن جرير الطبري ، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ، ومحمد بن نصر
المروزي ، ومحمد بن هارون الروياني بمصر ^(١) ، فأرملوا ولم يبق عندهم ما
يقتوتهم ، وأضر بهم الجوع !

فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه — يكتبون فيه الحديث الشريف — ،
فاتفق رأيهم على أن يستهيموا ويضربوا القرعة ، فمن خرجت عليه القرعة
سأل لأصحابه الطعام ، فخرجت القرعة على محمد بن إسحاق بن خزيمة .

فقال لأصحابه : أمهلوني حتى أتوضأ وأصلي صلاة الحيرة أي الاستخارة ،
فاندفع في الصلاة ، فإذا هم بالشموع ، وخصي من قبل والي مصر — واعلمه
أحمد بن طولون — يكدق الباب ، ففتحوا الباب ، فنزل عن دابته فقال :
أيكم محمد بن نصر ؟ فقيل : هو هذا ، فأخرج صرة فيها خمسون ديناراً
فدفعها إليه .

ثم قال : أيكم محمد بن جرير ؟ فقالوا : هو هذا ، فأخرج صرة فيها
خمسون ديناراً فدفعها إليه ، ثم قال : أيكم محمد بن إسحاق بن خزيمة ؟ فقالوا
هو هذا يصلي ، فلما فرغ من صلاته دفع إليه الصرة وفيها خمسون ديناراً ،
ثم قال : أيكم محمد بن هارون ؟ وفعل به كذلك .

ثم قال : إن الأمير كان قائلاً بالأمس — أي نائماً وقت الظهيرة — ، فرأى
في المنام خيلاً قال له : إن المسحامين طوّوا كشحهم جوعاً ، فأنفذ إليكم
هذه الصرة ، وأقسم عليكم إذا نفذت فعرفوني .

(٢) وذلك قبل سنة ٢٩٤ ، فقد مات محمد بن نصر في المحرم من سنة ٢٩٤ بسمرقند ، بل قبل
سنة ٢٧٠ التي توفي فيها والي مصر أحمد بن طولون إن كانت الواقعة في زمانه ، وكانت
وفاة الروياني سنة ٣٠٧ ، ووفاة ابن جرير سنة ٣١٠ ، ووفاة ابن خزيمة سنة ٣١١ .

٨٠ - وهذا إمام النحو واللغة والشعر والأدب والحديث (النضر بن شُمَيْل المازني) ، المولود سنة ١٢٢ والمتوفى سنة ٢٠٣ ، قال القاضي ابن خلكان في ترجمته في « وفيات الأعيان » ٢ : ١٦١ : « ذكره أبو عبيدة في كتاب « مثالب البصرة » فقال : ضاقت المعيشة على النضر بن شُمَيْل البصري بالبصرة ، فخرج يريد خراسان ! فشيّعه من أهل البصرة نحو من ثلاثة آلاف رجل ، ما فيهم إلا محدث أو نحوي أو لغوي أو عدواني أو أخباري . فلما صار بالمربد جلس وقال : يا أهل البصرة يعزّ عليّ فراقكم ! والله لو وجدت كل يوم كيلاجة باقائي ما فارقتكم ^(١) . قال : فلم يكن أحد فيهم يتكلّف له ذلك ، فسار حتى وصل خراسان ، فأفاد بها مالا عظيما ، وكانت إقامته بمرو .

وجرى له مع المأمون بن هارون الرشيد، لما كان مقيما بمرو حكايات ونوادير ، قال النضر : كنت أدخل على المأمون في سمره ، فدخلت ذات ليلة وعليّ ثوب مرقوع ، فقال : يا نضر ما هذا التقشف حتى تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخلقة ؟ - أي الثياب البالية - قلت : يا أمير المؤمنين أنا شيخ ضعيف ، وحرّ مرو شديد ، فأبردّ بهذه الخلقة ، قال : لا ، ولكنك رجل متقشف .

ثم أجرينا الحديث ، فأجرى هو ذكر النساء فقال : حدثنا هُشَيْم عن مُجَالِد عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا تزوّج الرجل المرأة لبيدتها وجمالها كان فيه سداد من عوز » . فأورده بفتح السين (سداد من عوز) . . فقلت : صدق - يا أمير المؤمنين - هُشَيْم . حدثنا عوف بن أبي جميلة ، عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا

(١) الكيلاجة : كيل معروف لأهل العراق . ولعله دون (الكيلو) في زمننا ، والباقي : القول .

تَزَوَّجَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ لِدِينِهَا وَجَمَالِهَا كَانَ فِيهَا سِدَادٌ مِنْ عَوَزٍ .
 قال : وَكَانَ الْمَأْمُونُ مَتَكْنُتًا فَاسْتَوَى جَالِسًا وَقَالَ : يَا نَضْرُ كَيْفَ قُلْتَ :
 سِدَادٌ ؟ قُلْتُ : لَأَنَّ (السَّدَادَ) هَا هُنَا لَحْنٌ ، قَالَ : أَوْ تُلَحِّنُنِي ؟ قُلْتُ :
 إِنَّمَا لَحْنٌ هُشِيمٌ وَكَانَ لِحَانَةً ، فَتَبَسَّعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِمَقْطَعِهِ ، قَالَ : فَمَا الْفَرْقُ
 بَيْنَهُمَا ؟ قُلْتُ : السَّدَادُ : بِالْفَتْحِ : الْقَصْدُ — أَيْ الْإِعْتِدَالُ — فِي الدِّينِ
 وَالسَّبِيلِ ، وَالسَّدَادُ بِالْكَسْرِ : الْبَلَاغَةُ وَكُلُّ مَا سَدَدَتْ بِهِ شَيْئًا فَهُوَ سِدَادٌ ،
 قَالَ : أَوْ تَعْرِفُ الْعَرَبُ ذَلِكَ ؟

قلت : نعم ، هذا العَرَجِي يَقُولُ :

أَضَاعُونِي وَأَيَّ فِتْيٍ أَضَاعُوا لِيَوْمٍ كَرِيمَةٍ وَسِدَادٍ تُغْزِرُ

فَقَالَ الْمَأْمُونُ : قَبِّحَ اللَّهُ مَنْ لَا أَدَبَ لَهُ ! وَأَطْرَقَ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ : مَا لَكَ يَا
 نَضْرُ ؟ قُلْتُ : أَرِيضَةٌ بِمَرَوْ أَتَصَابُثُهَا وَأَتَمَزَّزُهَا ، قَالَ : أَفَلَا نَفَيْدُكَ مَا لَا مَعَهَا ؟
 قُلْتُ : إِنِّي إِلَى ذَلِكَ لِمَحْتَاجٍ ، فَأَخَذَ الْقِرْطَاسَ وَأَنَا لَا أَدْرِي مَا يَكْتُبُ ، ثُمَّ قَالَ
 لِحَادِمِهِ : تَبَلَّغْ مَعَهُ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ ، فَلَمَّا قَرَأَ الْفَضْلُ الْقِرْطَاسَ ، قَالَ :
 يَا نَضْرُ إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ أَمَرَ لَكَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، فَمَا كَانَ السَّبَبُ فِيهِ ؟
 فَأَخْبَرْتَهُ وَلَمْ أَكْذِبْهُ ، فَأَمَرَ لِي بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، فَأَخَذْتُ ثَمَانِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ
 بِحَرْفٍ اسْتَفِيدَ مِنِّي . » . انْتَهَى مُخْتَصَرًا مِنْ « وَفَيَّاتِ الْأَعْيَانِ » .

٨١ — وَحَكَى الْقَاضِي شَمْسُ الدِّينِ ابْنُ خَلَّكَانَ فِي تَارِيخِهِ « وَفَيَّاتِ
 الْأَعْيَانِ » ١ : ٣٠٤ فِي تَرْجُمَةِ (الْقَاضِي عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ نَضْرِ الْمَالِكِيِّ)
 الْبَغْدَادِيِّ الْفَقِيهِ الْمَوْلُودِ فِي بَغْدَادَ سَنَةِ ٣٦٢ ، الْمُتَوَفَى بِمِصْرَ سَنَةِ ٤٢٢ رَحِمَهُ اللَّهُ
 تَعَالَى :

قال : « ذَكَرَهُ ابْنُ بَسَّامٍ فِي « الذَّخِيرَةِ » فَقَالَ : كَانَ بَقِيَّةَ النَّاسِ ، وَلِسَانَ
 أَصْحَابِ الْقِيَاسِ ، وَقَدْ وَجَدْتُ لَهُ شِعْرًا مَعَانِيَةً أَجَلَّتْ مِنْ الصُّبْحِ ، وَالْفَافَظَةُ
 أَحْلَى مِنَ الظَّفَرِ بِالنُّجْجِ . وَنَبَتَ بِهِ بِغْدَادَ ، كَعَادَةِ الْبِلَادِ بِذَوِي فَضْلِهَا ،

على حُكْمِ الأيامِ بِحُسْنِي أَهْلِهَا ، فخلَعَ أَهْلَهَا ، وَودَّعَ ماءَهَا وظلَّهَا .
وحدَّثْتُ أَنَّهُ شَيَّعَهُ يَوْمَ فَصَلَ عَنْهَا مِنْ أَكَابِرِهَا وَأَصْحَابِ مُحَابِرِهَا جَمَلَةً
مَوْفُورَةً وَطَوَائِفَ كَثِيرَةً ، وَأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ : لَوْ وَجَدْتُ بَيْنَ ظَهْرَانِيكُمْ رَغِيفِينَ
كُلَّ غَدَاةٍ وَعَشِيَّةٍ مَا عَدَلْتُ عَنْ بَلَدِكُمْ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُول :

سَلامٌ عَلَى بَغْدَادٍ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ وَحَقٌّ لَهَا مِنِّي سَلامٌ مُضَاعَفٌ
فَوَاللَّهِ مَا فَارَقْتُهَا عَنْ قَلْبِي لَهَا وَإِنِّي بِشَطْطِي جَانِبِيهَا لَعَارِفٌ
وَلَكِنَّهَا ضَاقَتْ عَلَيَّ بِأَسْرِهَا وَلَمْ تَكُنِ الْأَرْزَاقُ فِيهَا تُسَاعِفُ
وَكَانَتْ كَخِلٍّ كُنْتُ أَهْوَى دُنُوهُ وَأَخْلَاقُهُ تَنَائِي بِهِ وَتَخَالِفُ !

وَيَقُولُ فِي ذَلِكَ أَيْضاً :

بَغْدَادُ دَارٌ لِأَهْلِ الْمَالِ طَيِّبَةٌ وَلِلْمُقَالِيسِ دَارُ الضَّنْكِ وَالضِّيقِ
ظَلَّلْتُ حَيْرَانَ أَمْشِي فِي أَرْقَتِهَا كَأَنِّي مُصْحَفٌ فِي بَيْتِ زَنْدِيقِ

وَاجْتَاَزَ فِي طَرِيقِهِ مِنْ بَغْدَادٍ إِلَى مِصْرَ بِمَعْرَةِ النُّعْمَانِ — بَلَدِهِ بِقَرَبِ مَدِينَةِ
حَلَبَ فِي غَرْبِهَا — ، وَبِالْمَعْرَةِ يَوْمُنَدُ أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعَرِّي ، فَأَضَافَهُ وَأَعْجَبَ
بِعِلْمِهِ وَفَقْهِهِ وَأَدَبِهِ وَشَعْرِهِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ مِنْ جَمَلَةِ أَبْيَاتِ :

وَالْمَالِكِيُّ ابْنُ نَصْرِ زَارَ فِي سَفَرٍ بِلَادَنَا فَحَمِيدُنَا النَّأْيُ وَالسَّفَرُ (١)
إِذَا تَفَقَّهَ أَحْيَا مَالِكًا جَدًّا وَيَنْشُرُ الْمَلِكُ الضَّلَّالَ إِنْ شَعَرَ (٢)

ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى مِصْرَ فَحَمَلَ لَوَاءَهَا ، وَمَلَأَ بِالْعِلْمِ أَرْضَهَا وَسَمَاءَهَا ،

- (١) وَذَلِكَ أَنَّ سَفَرَهُ وَنَأْيَهُ عَنْ بَلَدِهِ بَغْدَادَ ، مَكَّنَنَا أَنْ نَحْظِيَ بِفَضْلِهِ وَلِقَائِهِ ، وَلَوْلَا
نَأْيُهُ وَسَفَرُهُ عَنْهَا لَمَّا مَرَّ بِنَا وَلَمَّا حَظَّيْنَا بِذَلِكَ . فَالْحَمْدُ لِلنَّأْيِ وَالسَّفَرِ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ .
(٢) أَيُّ وَيُحْيِي أَمْرَ الْقَيْسِ إِذَا قَالَ الشَّعْرُ ، لِبَلَاغَتِهِ وَفَصَاحَتِهِ وَجَزَالَتِهِ وَجَمَالِ مَعَانِيهِ
وَإِبْدَاعِهِ . وَالْمَلِكُ الضَّلَّالُ لَقَبُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ .

وتناهت إليه الغرائب ، وانثالت في يديه الرغائب ، فمات لأول ما وصلها ،
من أكلة اشتهاها فأكلها ، فقال وهو يتقلب في مرضه : لا إله إلا الله : إذا
عشنا ميتنا !

وهو الذي يقول :

متى يَصِلُ العِطَاشُ إلى ارتواء إذا استسقت البِبحارُ من الرِّكَايا
ومن يَشْتِي الأَصَاغِرَ عن مُراد إذا جَلَسَ الأكابرُ في الزَّوايا
وإنَّ ترفُّعَ الوُضْعاءِ يومئذٍ على الرُّفْعاءِ من إحدى الرزايا
إذا استوت الأسافلُ والأعالي فقد طابت مُنادمةُ المنايا .

٨٢ - وجاء في « طبقات الحنابلة » للقاضي ابن أبي يعلى ، في ترجمة
(القاضي أبي علي الهاشمي محمد بن أحمد الحنبلي) ٢ : ١٨٥ المتوفى سنة ٤٢٨
ببغداد .

جاء فيها : « ذكر أبو علي بن شوكة قال : اجتمعنا جماعة من الفقهاء ،
فدخلنا على القاضي أبي علي الهاشمي ، فذكرنا له فقرنا وشدة ضررنا ! فقال لنا :
اصبروا ، فإن الله سيرزقكم ويوسع عليكم ، وأحدثكم في مثل هذا بما
تطيب به قلوبكم :

أذكرُ سنةً من السنين وقد ضاق بي الأمرُ شيئاً عظيماً ، حتى بيعتُ رَحْلَ
داري ، ونفدتُ جميعه ، ونقصتُ الطبقة الوسطى من داري ، وبعثُ أخشابها
وتقوتُ بثمرها ، وقعدتُ في البيت فلم أخرج ، وبقيتُ سنةً ، فلما كان بعد
سنةٍ قالت لي المرأة : البابُ يُدَقُّ ، فقلتُ لها : افتحي الباب ، ففعلتُ ،
فدخل رجل فسلم علي ، فلما رأى حالي لم يجلس حتى أنشدني وهو قائم :

ليس مِن شِدَّةٍ تُصيبُكَ إلا سوف تَمضي وسوف تُكشَفُ كَشْفًا
لا يَضِيقُ ذَرْعُكَ الرَّحِيبُ فإنا رَيعِلُو لَهيبُها ثم تَطْفَأُ
قد رأينا من كان أَشْفَى على الهَلْهِلِ - لكِ فَوافَتْ نجاته حين أَشْفَى

ثم خرج عني ولم يقعد ، فتنفألتُ بقوله . فلم يسخرُجُ اليومُ عني حتى جاعني رسولُ القادر بالله ، ومعه ثياب ودنانير ، وبغلة بمركب ، ثم قال لي : أجب أمير المؤمنين ، وسلّم إليَّ الدنانير والثياب والبغلة ، فغيّرتُ عن حالي ، ودخلت الحمّام ، وصيرتُ إلى القادر بالله ، فردّ إليَّ قضاء الكوفة وأعمالها ، وأثرى حالي .

٨٣ — وقال الحافظ الإمام الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٤ : ١٢٢٦ في ترجمة الإمام القدوة مُفيد بغداد (أبي بكر محمد بن أحمد البغدادي) ، المعروف بابن الخاضبة ، المتوفى سنة ٤٨٩ :

« قال محمد بن طاهر المقدسي : سمعتُ ابنَ الخاضبة — وكنتُ ذكرتُ له أن بعض الهاشميين حدّثني بأصبهان ، أن أبا الحسين بن المهتدي بالله يَـرى الاعتزال — فقال : لا أدري ، ولكن أحكي لك :

لما كانت سنةُ الغَرَق وقعتْ داري على قُـمـاشي وكُـتـبي ، ولم يكن لي شيء ! وكانت عندي الوالدة والزوجة والبنات ، فكنتُ أنسخُ وأنفق عليهن ، فأعريفُني كتبتُ « صحيح مسلم » في تلك السنة سبعَ مرات ! فلما كانت ليلةُ من الليالي رأيتُ — في النوم — كأن القيامة قامت ، ومناد ينادي : أين ابنُ الخاضبة ؟ فأُحضرتُ ، فقليل لي : ادْخُلِ الجنة ، فلما دخلتُ الباب وصيرتُ من الداخل استلقتُ على قفائي ، ووضعتُ إحدى رجليَّ على الأخرى ، وقلتُ : استرحتُ والله من النسخ !

فرفعتُ رأسي فإذا ببغلة في يد غلام ، فقلتُ : لمن هذه ؟ قالوا : للشریف أبي الحسن الغريق ، فلما أصبحتُ نُعيي إلينا الشریف .

٨٤ — وقال القاضي ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ١ : ٢٥٦ في ترجمة ابن الدهان الموصلِي (عبد الله بن أسعد) الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٥٨١ : « كان فقيهاً فاضلاً أديباً شاعراً لطيفَ الشعر مليحَ السبك ، وهو من أهل

الموصل ، ولما ضاقت به الحال عزم على قصد الصالح بن رزّيك وزير مصر ،
وعجزت قدرته عن استصحاب زوجته ، فكتب إلى الشريف ضياء الدين بن
عبيد الله الحسيني نقيب العلويين بالموصل هذه الأبيات :

و ذات شَجْوٍ أسال البَيْنَ عَبْرَتَهَا	كانت تؤمِّلُ بالتنفّيد إمساكي
لَسَجَّتْ فلما رأني لا أُصِيحُ لها	بكّت فأقرح قلبي جفّنتها الباكي
قالت وقد رأت الأجمالَ مُحدّجةً	والبَيْنَ قد جمَعَ المشكوة والشاكي
من لي إذا غيبت في ذا المسحَلِ قات لها :	اللهُ وابنُ عبّيد الله مولاك
لا تَجْزعي بالنجاس الغيثِ عنك فقد	سألت نوءَ الشريّاً جودَ مَعْناك

فتمكّل الشريف المذكور لزوجته بجميع ما تحتاج إليه مدة غيبته عنها ، ثم
توجه إلى مصر ، ومدّح الصالح بن رزّيك ، ثم تقلّبت به الأحوال ، وأقام
بمدينة حمص وتوفي سنة ٥٨١ رحمه الله تعالى . ومات غريباً عن وطنه وأهله
ولسان حاله يقول :

قد قضى الله أن أموت غريباً في بلاد أساق كُرّها إليها
في فؤادي مخبّات مَعْنان . نزلت آية الحجاب عليها !

وأكتفي بهذا القدر في هذا الجانب ، ثم أنتقل إلى :

الجانب الرابع

في أخبارهم في الجوع والعطش في الهواجر الأيام والساعات .

وأستهلّه بحديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، في فقره الذي كنت
أشرت إليه في أول الجانب السابق ص ٤٩ .

٨٥ — روى البخاري في « صحيحه » في كتاب العلم في (باب حفظ العلم)

١ : ١٩٠ ، وفي أول كتاب البيوع ٤ : ٢٤٧ « عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن الناس يقولون : أكثر أبو هريرة من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقولون : ما للمهاجرين والأنصار لا يُحدثون مثل أحاديثه ؟ »

ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ، ثم يتلو : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ . إلا الذين تابوا وأصلحوا ويبينوا فأُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . ثم يقول أبو هريرة :

إنَّ إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْقُ بالأسواق ، وإنَّ إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العملُ في أموالهم ، وإنَّ أبا هريرة كان يكثرُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ليشبع بطنه ، ويحضرُ ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون . قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ١ : ١٩٢ عند شرح هذا الحديث : « في هذا الحديث أن التقاليد من الدنيا أمكن لحفظ العلم » . انتهى .

وأسوق بعد هذا طَرَفًا من أخبار العلماء في شذائد الجوع فأقول :

٨٦ — قال المؤرخ النسابة ابن سعد في كتابه « الطبقات الكبرى » ٦ : ٣٧٢ ، وهو يتحدث عن الإمام سفيان الثوري المولود سنة ٩٧ والمتوفى سنة ١٦١ ، رحمه الله تعالى : « توارى سفيان الثوري من الخليفة العباسي المهدي ، لكلمة حق قالها فأغضبت المهدي ، فطلبه ليسوق به الأذى والعذاب ، فاختلفت حيث كان بمكة ، وتوارى عن الناس ، ولقيته في تلك الأيام فقهرت وضمنت شديداً ! وهو على هذه الحال من الفاقة والقلق ، بعثت إليه أخته من الكوفة مع صاحبه أبي شهاب الحنط ، بجِرَابٍ فيه كعك وخشكناج^(١) .

(١) أي أرغفة صغيرة يابسة . ولفظ (خشكناج) مركب من كلمتين فارسيتين ، الأولى :

فقدّم أبو شهاب الحنّاط مكة ، فسأل عن سفيان ، فقيل له : إنه ربما يقعدُ دُبْرَ الكعبة مما يلي بابَ الحنّاطين ، قال أبو شهاب : فأتيتهُ هناك — وكان لي صديقاً — فوجدته مستلقياً ، فسألتُ عليه ، فلم يُسأَلْنِي تلكَ المساءَلة ، ولم يُسَلِّمْ عليَّ كما كنتُ أعرفُ منه ، فقلتُ له : إنَّ أختك بعثتُ إليك معي بجراب فيه كعك وخشكَنانج ، قال : فعجّلُ به عليَّ ، واستوى جالساً ! فقلت : يا أبا عبد الله أتيْتُكَ وأنا صديقك ، فسألتُ عليك فلم تردّ عليّ ذاك الردّ ، فلما أخبرتُك أني أتيْتُك بجرابِ كعكٍ لا يُساوي شيئاً جالستُ وكَلّستني ؟ !

فقال : يا أبا شهاب لا تَلُمْنِي ، فإنَّ هذه لي ثلاثةَ أيامٍ لم أذُق فيها ذواقاً ! قال أبو شهاب : فعذرته .

٨٧ — وقال ابنُ نُبّاتة المصري في « سَرَحِ العيون في شرح رسالة ابن زيدون » ص ٢٢٨ ، وهو يترجم لإبراهيم بن سيّار النظام البصريّ المعتزلي المتوفى سنة ٢٢١ عن ٣٦ سنة ، أحدَ أذكىء العالم ، الذي قال فيه معاصره الجاحظ — والجاحظُ هو من هو — : الأوائلُ يقولون : في كل ألفِ سنةٍ رجلٌ لا نظيرَ له ، فإنَّ صحَّ ذلك لإبراهيمُ النظامُ من أولئك .

قال ابنُ نُبّاتة : « حكى الجاحظ ، قال : تجاذبتُ يوماً وإبراهيمَ النظامَ حديثَ الطيّرة ، فقال لي : أخبرك أني جُعْتُ حتى أكلتُ الطين ! وما صِرتُ إلى ذلك حتى قَلَبْتُ قَلْبِي ، أتذكّرُ هل ثَمَّ رجلٌ أُصِيبُ عنده غداءٌ أو عشاءٌ ؟ ! فما قدَرْتُ عليه ! وكان عليَّ جُبّةٌ وقميص ، فبيعتُ القميص !

ثم قصدتُ الأهواز وما أعرفُ بها أحداً ، وما كان ذلك ناشئاً إلا عن الحيرة .

(نانك) المقلوبة كأنها جيماً عند النطق العربي بها ، ومعناها : الرغيف الصغير .
والثانية : (خشكَنانج) ، ومعناها : اليابس . أفادنيه شيخنا حبيب الرحمن الأعظمي حفظه الله تعالى .

والضَّجَر ، فوافيتُ الفُرْضَةَ^(١) فلم أُصِبْ بها سفينة ، فتطيرتُ من ذلك ، ثم
إني رأيتُ سفينةً في صدرها خرقٌ وهشيمٌ فتطيرتُ أيضاً ، فقلت للملاح :
تَحْمِلُنِي ؟ ، قال : نعم ، قلت : ما اسمُك ؟ قال : (دواداذ) وهو بالفارسية
اسمُ الشيطان ، فتطيرتُ وركبتُ معه .

فلما قربتُ من الفُرْضَةِ صحتُ : يا حَمَّال ، ومعني لحافٌ سَمَل^(٢) ،
ومُضْرَبَةٌ خَلَقَ^(٣) ، وبعضُ ما لا بد لي منه ، فكان أوَّلُ حَمَّالٍ أجابني أعور !
فقلت لبقَّار كان واقفاً : بكم تَكْزِي ثَوْرَكَ هذا إلى الخان ؟ فلما أدناه مني
إذا هو أَعْضَبُ^(٤) ، فازدَدْتُ طَيْسَرَةً إلى طَيْسَرَةٍ ! وقلت في نفسي : الرجوعُ
أَسْلَم ، ثم ذكرتُ حاجتي إلى أكل الطين ! وقلت : من لي بالموت ؟ ! !

فلما صيرتُ إلى الخان وأنا حائر ما أضع ، إذ سمعتُ قَرْعَ باب البيت
الذي أنا فيه ، فقلت : مَنْ هذا ؟ فقال : رجلٌ يريدك ، فقلت : مَنْ أنا ؟
فقال : إبراهيمُ بن سيَّار النظام ، فقلت : هذا عدوُّ أَوْرَسُولُ سلطان !

ثم إني تحملتُ وفتحتُ له الباب ، فقال : أرسَلَنِي إليك إبراهيمُ بن عبد
العزيز ، ويقول لك : إن كُنَّا اختَلَفْنَا في المَقَالَةِ — أي في الرأي والمذهب —
فانا نرجعُ بعد ذلك إلى حُقوقِ الأخلاقِ والحُرِّيَّةِ ، وقد رأيتُك حيث مررتُ
بي على حالٍ كرهتُها ، وينبغي أن تكون نَزَعْتَ بك — أي أخرجتُك — من
بلدك — حاجة ، فان شئتَ فأقم بمكانك مُدَّةَ شهرٍ أو شهرين ، فعسى نَبْعَثُ
إليك ببعض ما يكفيك زماناً من دهرِكَ ، وإن اشتهيْتَ الرجوع ، فهذه ثلاثون
ديناراً فخذها وانصرف ، وأنت أحقُّ من عَدَر .

(١) هي فُرْجَة من النهر تتركب منها السفن .

(٢) أي عتيق بال .

(٣) أي بالية أيضاً ، والمضْرَبَةُ : هي غطاء كاللحاف ، ذو طاقين مخيطين خياطة كثيرة ،
بينهما قطن ونحوه .

(٤) الأعْضَبُ : مكسور القرن ، وكانوا يتطيرون به .

قال : فورَدَ عليّ أمرٌ أذهلني ، أمّا واحدة : فاني لم أكن مساكنتُ قبلُ
في جميعِ دهري ثلاثين ديناراً ، والثانية : أنه لم يَطُلْ مُقامي وغَيْبتي عن أهلي ،
والثالثة : ما تبيّن لي من الطَّيِّرةِ أنها باطل . انتهى .

قال عبد الفتاح : والرابعة — وقد فانت النظام — وهي تعدلُ الثلاثةَ
مجتمعةً عندي ، وهي : ذاك النُّبُلُ النبيلُ ، والفهمُ الأصيلُ ، لحقوق
الأخلاق والحُرِّيَّةِ والإنسانية ، فلم تمنع مخالفةُ النظام في المقالة والرأي
والمذهب لإبراهيم بن عبد العزيز : أن يُسَعِّفَه عند مِحْنَتِهِ وإِمْلَاقِهِ ، وأن
يَسْمُدَّ له يَدَ العون والمروءة والإنقاذ ، فتَبَاعُدُهُ منه لله تعالى ، من أجل
الاختلاف في المقالة والرأي ، وصلَّته له من أجل رعاية حقوق الإنسانية
والأخلاق ، وهي لله تعالى أيضاً ، وكلُّ ذلك من الإسلام ، فذاك الحقُّ لا يمنع
هذا الحق ، فما أجملَ الفهمَ للشريعة وأحكامها ، وتنزيلاتها منازلها في الرضا
والغضب ، مع الصديق والعَدُوَّ : « لا وَكُفَّسَ ولا شَطَطَ » .

٨٨ — وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٣ : ٩٧٣ — ٩٧٤ في
ترجمة الإمام (ابن المقرئ محمد بن إبراهيم الأصبهاني) المولود سنة ٢٨٥
والمتوفى سنة ٣٨١ :

« رُوِيَ عن أبي بكر بن علي قال : كان ابن المقرئ يقول : كنت أنا
والطبراني وأبو الشيخ — ابن حَيَّان — بالمدينة ، فضاقت بنا الوقت — يعني فراغَ
أيديهم من النفقة — ، فواصلنا ذلك اليوم — أي صاموا ذلك اليوم إلى صيام
اليوم الذي قبله ! —

فلما كان وقت العشاء ، حضرتُ القبرَ وقلت : يا رسول الله الجوع !
فقال الطبراني : اجلسْ ! فإما أن يكون الرزق أو الموت ! فقمتُ أنا وأبو
الشيخ — أي قاما يصليان لله تعالى — ، فحضرَ البابَ عَلَوِيّ ففتحنا له ، فإذا
معه غلامان بقُفُفَتَيْنِ فيهما شيء كثير ، وقال : شكوتُموني إلى النبي صلى الله
عليه وسلم ، رأيته في النوم فأمرني بحَمَلِ شيء إليكم .

٨٩ - وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في كتابه « ذيل طبقات الحنابلة » ١ : ١٩٦ في ترجمة (القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي البغدادي) البزّاز الأنصاري ، المتوفى سنة ٥٣٥ ببغداد : « قال الشيخ الصالح أبو القاسم الخزّاز الصوفي البغدادي : سمعتُ القاضي أبا بكر محمد بن عبيد الباقي بن محمد البزّاز الأنصاري يقول :

كنت مجاوراً بمكة حرسها الله تعالى ، فأصابني يوماً من الأيام جوعٌ شديد لم أجد شيئاً أدفع به عني الجوع ، فوجدتُ كيساً من إبريسم مشدوداً بشراًبة لن إبريسم أيضاً ، فأخذته وجئتُ به إلى بيتي ، فحللتُهُ فوجدتُ فيه عقداً من مؤلّو لم أر مثله .

فخرجتُ فاذا بشيخ يُنادي عليه ، ومعه خارقة فيها خمسُ مئة دينار ، وهو يقول : هذا لمن يردُّ علينا الكيسَ الذي فيه المؤلّو ، فقلتُ : أنا محتاجٌ ، وأنا جائعٌ ، فأخذُ هذا الذهب فأنْتفع به ، وأردُّ عليه الكيس .

فقلتُ له : تعال إليّ ، فأخذته وجئتُ به إلى بيتي ، فأعطاني علامة الكيس ، وعلامة الشراًبة ، وعلامة المؤلّو ، وعدّده ، والخيط الذي هو مشدود به ، فأخرجته ودفعته إليه ، فسلم إليّ خمسُ مئة دينار ، فما أخذتها ، وقلت : يجبُ عليّ أن أعيده إليك ، ولا آخذَ له جزاءً ، فقال لي : لا بُدَّ أن تأخذَ وألحَّ عليّ كثيراً ، فلم أقبل ذلك منه ، فتركني ومضى .

وأما ما كان مني ، فاني خرجتُ من مكة وركبتُ البحر ، فانكسر المركب وغرقَ الناس ، وهلكَت أموالُهم ، وسَلِمْتُ أنا على قطعةٍ من المركب ، فبقيتُ مُدَّةً في البحر لا أدري أين أذهب ؟ ! فوصلتُ إلى جزيرة فيها قوم ، فقعدتُ في بعض المساجد ، فسمعونني أقرأ ، فلم يبق في تلك الجزيرة أحدٌ إلا جاء إليّ وقال : علِّمني القرآن ، فحصلَ لي من أولئك القوم شيءٌ كثير من المال .

ثم إنني رأيتُ في ذلك المسجد أوراقاً من مصحف ، فأخذتها أقرأ فيها ،

فقالوا لي : تُحسِنُ تَكْتَبُ ؟ فقلت : نعم ، فقالوا : عَلِّمْنَا الْخَطَّ ، فجاؤا بأولادهم من الصبيان والشباب ، فكنتُ أَعَلِّمُهُمْ ، فحصل لي أيضاً من ذلك شيء كثير ، فقالوا لي بعد ذلك : عندنا صَبِيَّةٌ يَتِيمَةٌ ، ولها شيء من الدنيا ، نريد أن تَتَزَوَّجَ بها ، فامتنعتُ ، فقالوا : لا بد ، وألزموني فأجبتهم إلى ذلك .

فلما زَفَّوْها إليَّ سَدَدْتُ عَيْنِي أَنْظُرُ إِلَيْهَا ، فوجدتُ ذلك الْعَقْدَ بعينه معانقاً في عُنُقِهَا ، فما كان لي حينئذ شُغْلٌ إِلَّا النُّظْرَ إِلَيْهِ ، فقالوا : يا شيخ كسرت قلب هذه اليتيمة من نظرك إلى هذا الْعَقْدِ ، ولم تنظر إليها ، فَقَصَصْتُ عَلَيْهِمْ قِصَّةَ الْعَقْدِ ، فصاحوا وصرخوا بالتهليل والتكبير ، حتى بلغ إلى جميع أهل الجزيرة ، فقلتُ : ما بكم ؟ فقالوا : ذلك الشيخ الذي أخذ منك الْعَقْدَ أَبُو هذه الصَّبِيَّةِ ، وكان يقول : ما وجدتُ في الدنيا مُسْلِمًا إِلَّا هذا الذي رَدَّ عَلَيَّ هذا الْعَقْدَ ، وكان يدعو ويقول : اللهم اجمع بيني وبينه حتى أزوَّجَه بابتني ، والآن قد حصلتُ ، فبقيتُ معها مدة ، ورزقتُ منها بولدين .

ثم إنها ماتت فورثتُ الْعَقْدَ أنا وولداي ، ثم مات الولدان ، فحصل الْعَقْدُ لي ، فبعته بمِئَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ، وهذا المال الذي تروونه معي من بقايا ذلك المال .

٩٠ — وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في كتابه « ذيل طبقات الحنابلة »

١ : ٢٩٨ في ترجمة (الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني) شيخ الطريقة المنسوبة إليه المتوفى سنة ٥٦١ رحمه الله تعالى :

« قال الشيخ عبد القادر : وكنتُ أَقَاتُ بِخُرْنُوبِ الشوكِ ، وَقُمَامَةِ الْبَقْلِ وَوَرَقِ الْحَسِّ من جانب النهر والشط ، وبلغتُ الضائقةُ في غلاءِ نزلِ بَغْدَادَ إلى أن بقيتُ أياماً لم أكل فيها طعاماً ، بل كنتُ أَتَبَعُ الْمُنْبُذَاتِ أَطْعَمَهَا .

فخرجتُ يوماً من شدة الجوع إلى الشطِّ ، لعلِّي أَجِدُ وَرَقَ الْحَسِّ أو البقلِ أو غيرَ ذلك فَأَتَقَوِّتَ بِهِ ؟ فما ذهبتُ إلى موضعٍ إلا وغيري قد سبقني إليه ! وإن وجدتُ أَجِدُ الْفُقَرَاءَ يَتَزَاكِمُونَ عَلَيْهِ فَأَتْرَكُهُ حُبًّا .

فرجعتُ أمشي وسط البلد فما أدركُ منهوذاً إلا وقد سُبِقْتُ إليه ، حتى وصلتُ إلى مسجد يانين بسوق الرياحين ببغداد ، وقد أجهدي الضعف ، وعجزتُ عن التماسك ، فدخلتُ إليه وقعدت في جانب منه ، وقد كدت أصافح الموت ! إذ دخل شاب أعجمي ، ومعه خبز صافي وشواء ، وجلس يأكل ، فكنتُ أكادُ كلما رفَعَ يده باللقمة أفتح فمي من شدة الجوع ، حتى أنكرتُ ذلك على نفسي فقلت : ما هذا ؟ ! وقلت : ما هذا إلا الله أو ما قضاهُ من الموت !

إذ التفت إليَّ العجمي فرآني فقال : بسم الله يا أخي ، فأبيتُ فأقسمَ عليَّ فبادرتُ نفسي فخالفتُها ، فأقسمَ أيضاً فأجبتُهُ فأكلتُ متقاصراً ، فأخذ يسألني : ما شغلُك ؟ ومن أين أنت ؟ ومن تُعرف ؟ فقلت : أنا متفقٌّ من جيلان ، فقال : وأنا من جيلان ، فهل تعرف شاباً جيلانياً يسمى عبد القادر ، يعرف بسبط أبي عبد الله الصَّومعي الزاهد ؟ فقلت : أنا هو .

فاضطرب وتغيَّر وجهه وقال : والله لقد وصلتُ إلى بغداد ومعني بقية نفقة لي ، فسألتُ عنك فلم يُرشِدني أحد ، ونفدتُ نفقتي ولي ثلاثة أيام لا أجيدُ ثمنَ قوتي إلا ما كان لك معي ، وقد حلت لي الميته ، وأخذتُ من وديعتك هذا الخبز والشواء ، فكلُّ طيباً ، فإنما هو لك وأنا ضيفُك الآن بعد أن كنتُ ضيفي .

فقلت له : وما ذاك ؟ فقال : أمَّك وجهتُ لك معي ثمانية دنانير ، فاشتريتُ منها للاضطراب فأنا معتذر إليك ، فسكنتُهُ وطيبتُ نفسه ، ودفعتُ إليه باقي الطعام وشيئاً من الذهب برسم النفقة ، فقبله وانصرف .

٩١ - وقال الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كتابه « صيد الخاطر »
٢ : ٣٣٠ متحدثاً عن الشدائد التي نالته في بدء طلبه للعلم ، وعن سحاميده صبره على تلك الشدائد :

« ولقد كنتُ في حلاوةِ طلبِي العلمَ ، ألقى من الشدائد ما هو عندي أنحلى من العسل ، لأجل ما أطلب وأرجو .

كنتُ في زمن الصِّبا آخذٌ معي أرغفةً يابسةً ، فأخرج في طلب الحديث ، وأقعدُ على نهر عيسى - في بغداد - ، فلا أقدرُ على أكلها إلا عند الماء ، فكلما أكلتُ لقمة شربتُ عليها ، وعينُ هِمَّتِي لا تَرى إلا لذَّةَ تحصيل العلم ، فأثمر ذلك عندي أني عُرِفْتُ بكثرة سماعي لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله وآدابه ، وأحوال أصحابه وتابعيهم . »

٩٢ - وقال أيضاً : « ولم أقنع بفنٍّ واحد ، بل كنتُ أسمع الفقه والحديث ، وأتبع الزُّهاد ، ثم قرأتُ اللغة ، ولم أترك أحداً ممن يَروى ويعظ ، ولا غريباً يقدِّمُ إلا وأحضُرُهُ ، وأتخير الفضائل .

ولقد كنتُ أدور على المشايخ لسماع الحديث ، فينقطع نفسي من العَدُوِّ لئلا أسبق ، وكنتُ أصبح وليس لي مأكل ! وأمسي وليس لي مأكل ! ما أذلني الله لمخلوق قط ، ولو شرحتُ أحوالي لطال الشرح . انتهى من مقدمة الأستاذ علي الطنطاوي لكتاب « صيد الخاطر » ص ٢٧ .

٩٣ - وأختم الحديث عن هذا الجانب بخبر جُوع شيخنا الإمام (شيخ الإسلام مصطفى صبري) آخر شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية ، المتوفى سنة ١٣٧٣ رحمه الله تعالى ، فانه حين هاجر بدينه من تركيا ، بعد أن وقِفَ من طاغيته : مصطفى كمال الموقف المشرف الشجاع ، وتزامت به البلاد ثم استقر في مصر ، على فاقة وإملاق شديد ، مع التجمُّل في الظاهر والتجلُّد للشدائد ، نشرتُ الصحفُ العالمية خبرَ صيام (غاندي) زعيم الهند ، احتجاجاً على سياسة الإنجليز في بلاده ، فارتجت بهذا النبأ أرجاءُ العالم ، واستعظم النبأ كل الاستعظام .

فأنشأ شيخنا رحمه الله تعالى أبياتاً ، قارن فيها بين جُوعه الدائم الصامت

وجُوعِ غاندي العابر الصاحب ، إذ تحدّثت عنه صحفُ العالم فقال :

صام شيخُ الهند الحديثِ غنّدي	صَوْمَةَ المستميتِ والمتحدّي
وأراني على شَفَا الموتِ أدعى	شيخَ الإسلامِ بِلَهْ هِنْدِ وسنْدِ
غير أن الصومين بينهما فَرْ	قٌ عَجِيبٌ أُلْدِيه من غير رَدِّ
صام مع وُجْدِهِ وصُمْتُ لِعُدْمِ	دام مُدُّ ضِفَتِ مُصْرِكَ الضيفِ عِنْدِي
وغدا صومُهُ حَدِيثٌ جميع النّاسِ	سِ ، أمّا صومي فَأَدْرِيه وحدي !
في سبيل الإسلام ما أنا لاقٍ	ولئن مِتُّ فليعِشْ هو بعدي
فليعِشْ رغمَ مسلمي العصرِ دينٌ	ضيّعوه ولم يفوه بعهد
كان مثلي يموت جُوعاً ولا يُعْـ	رَفُّ لو كان شيخَهم شيخُ هند !

أما أخبارهم في العطش فهي كثيرة ، أكتفي منها بما يلي :

٩٤ — رَوَى الحافظ الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » ٣ : ٣١٧
والحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٢ : ٦٥٢ في ترجمة (الإمام محمد بن
نصر المروزي) المولود سنة ٢٠٢ والمتوفى سنة ٢٩٤ : رَوَا بِسَنَدِهِمَا إِلَى أَبِي
عَمْرٍو عَثْمَانُ بْنُ جَعْفَرٍ بْنِ اللَّيْثِ قَالَ :

« حدثني محمد بن نصر المروزي ، قال : خرجتُ من مصر ومعي جارية
لي ، فركبت البحر أريدُ مكة ، فغرقْتُ فذهبَ مِنِّي ألفا جُزء ! وصيرتُ إلى
جزيرة أنا وجاريتي ، فما رأينا فيها أحداً ، وأخذتُني العطش فلم أقدر على الماء
وأجهدتُ ، فوضعتُ رأسي على فخذي جاريتي مستسلماً للموت ، فاذا رجلٌ
قد جاعني ومعه كُوز ، فقال لي اشرب ، فأخذتُ فشربتُ وسقيتُ الجارية ،
ثم مضى ، فما أدري من أين جاء ولا من أين ذهب ؟ » .

٩٥ — وقال الحافظ الذهبي في « العيبر في خبر من غيبر » ٢ : ٧٠ ،
وفي « ميزان الاعتدال » ٢ : ٦٠٠ « وفي سنة ٢٨٣ توفي أبو محمد عبد الرحمن

ابن يوسف بن خِرَاش المروزي ثم البغدادي ، وكان حافظ زمانه ، له الرحلة الواسعة ، قال بكر بن حمدان المروزي : سمعتُ ابنَ خِرَاش يقول : شربتُ بولي في طلب هذا الشأن - يعني طلب الحديث - خمسَ مرات . انتهى .

وذلك أنه كان يمشي في الفسّات والقفار لتحصيل الحديث وتلقيه عن أهله ، فينال العطش الشديد في طريقه !

وسألتني في ضمن الخبر - ١٠٦ - في ص ٨٤ عن الإمام أبي حاتم الرازي : أنه فسّني معه الزادُ والماء أياماً حين تيسره في البر : حتى سقط هو وأحدُ رفيقيه مغشياً عليهما !

وأنقل بعد هذا إلى :

الجانب الخامس

في أخبارهم في العُرى الدائم ونفاد المال والنفقات في الغُربات .

وإن قارئ هذه الأخبار أو سامعها ليعجب من أولئك العلماء الأجلاء ، كيف تحمّلت قلوبهم ما نزل بهم من الشدائد والرزايا ، التي يتحمل الإنسان عند سماعها ، ولكنها كانت قلوباً عامرةً بالإيمان بالله ، راجيةً ما عنده من رضوان وثواب ، فهان عليها في سبيل مرضاته كلُّ صعب وشديد .

٩٦ - حكى الخطيب البغدادي في ترجمة الإمام البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ في « تاريخ بغداد » ٢ : ١٣ قال « قال عمر بن حفص الأشقر : إنهم فقدوا البخاري أياماً من كتابة الحديث بالبصرة ، قال : فطلبناه فوجدناه في بيتٍ وهو عُريان ، وقد نَفِدَ ما عنده ولم يبق معه شيء ، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوباً وكسونا ، ثم اندفع معنا في كتابة الحديث » .

٩٧ - وقال الخطيب البغدادي في ترجمة (أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن الأبيوردِي) الفقيه : كان متجسلاً في فاقة : يقال : إنه مكث

سَنِينَ لَا يَقْدِرُ عَلَى شِرَاءِ جُبَّةٍ يَلْبَسُهَا فِي الشِّتَاءِ ، وَيَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : لِي عِلَّةٌ تَمْنَعُنِي لِبَسِّ الْمَحْشُوِّ (١) .

٩٨ - وَقَالَ التَّاجُ السَّبْكِ فِي « طَبَقَاتِ الشَّافِعِيَةِ الْكُبْرَى » ٣ : ٩٠ فِي تَرْجُمَةِ (الْإِمَامِ أَبِي إِسْحَاقَ الشَّيرَازِي) لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ عَلِيٍّ ، الْمَوْلُودِ سَنَةَ ٣٩٣ ، وَالْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٧٦ بِبَغْدَادَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَكَانَ إِمَامَ الشَّافِعِيَةِ فِي عَصْرِهِ غَيْرَ مُدَافِعٍ : « قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْحُرْجَانِيُّ : كَانَ أَبُو إِسْحَاقَ الشَّيرَازِي لَا يَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا ، فَبَلَغَ بِهِ الْفَقْرُ مَبْلَغَهُ ، حَتَّى كَانَ لَا يَجِدُ قُوَّةً وَلَا مَلْبَسًا !

وَلَقَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ وَهُوَ سَاكِنٌ فِي الْقَسْطِيعَةِ - حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ بَغْدَادَ - ، فَيَقُومُ لَنَا نَصْفَ قَوْمَةٍ ، لَيْسَ يَتَعَدَّلُ قَائِمًا مِنَ الْعُرَى ، كَيْ لَا يَظْهَرَ مِنْهُ شَيْءٌ .

٩٩ - قِيلَ : وَكَانَ إِذَا بَقِيَ مَدَّةٌ لَا يَأْكُلُ شَيْئًا ، جَاءَ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ بِاقِلَاتِي - أَيْ فَوَّالٍ - ، فَكَانَ يَتَرَدَّدُ لَهُ رَغِيْفًا - أَيْ يَتَقَشَّتُهُ - وَيَشْرِيهِ - أَيْ يَبْلُغُهُ وَيُلَاقِيَنَّهُ - بِمَاءِ الْبَاقِلَاءِ . فَرُبَّمَا أَتَاهُ وَكَانَ قَدْ فَرَّغَ مِنْ بَيْعِ الْبَاقِلَاءِ ! فَيَقِفُ أَبُو إِسْحَاقَ وَيَقُولُ : تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ! وَيَرْجِعُ ! ! .

وَالْإِمَامُ أَبُو إِسْحَاقَ الشَّيرَازِي هَذَا ، هُوَ قَائِلُ الْبَيْتَيْنِ السَّائِرَيْنِ :

سَأَلْتُ النَّاسَ عَنْ خَيْلٍ وَفَيْسٍ فَقَالُوا : مَا إِلَى هَذَا سَبِيلُ !
تَمَسَّكَ إِنْ ظَفِيرَتَ بِذَيْلٍ حُرٍّ فَانَّ الْحُرَّ فِي الدُّنْيَا قَلِيلٌ (٢) !

١٠٠ - وَقَالَ الْقَاضِي ابْنُ خَلِّكَانَ فِي « الْوَفِّيَّاتِ » ١ : ٢٣٤ فِي تَرْجُمَةِ (الْقَاضِي أَبِي الطَّيِّبِ طَاهِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الطَّبْرِيِّ) رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : « حَكَى الْمَوْرِخُ

(١) مَا أَحْسَنَ قَوْلَهُ : (لِي عِلَّةٌ تَمْنَعُنِي لِبَسِّ الْمَحْشُوِّ) ، فَإِنَّهُ مِنَ الْإِيهَامِ وَالتَّوْرِيَةِ اللَّطِيفَةِ ، وَالْعِلَّةُ هِيَ عِلَّةُ الْفَقْرِ الَّذِي لَا يَفَارِقُهُ ! ذَكَرَهُ الدَّكَّاجِيُّ فِي « الْفَلَاحَةِ وَالْمُفْلُوكُونَ » .

(٢) سَأَلَ الْإِمَامَ الشَّافِعِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ تَعْرِيفِ (الْحُرِّ) ، فَقَالَ : « الْحُرُّ مَنْ رَاعَى وَدَادَ لِحَظَةٍ ، وَانْتَمَى لِمَنْ أَفَادَهُ لَفْظَةً » . كَمَا نَقَلَهُ الشَّيْخُ الْبَاجُورِيُّ فِي حَاشِيَتِهِ عَلَى « السَّنُوسِيَةِ » فِي التَّوْحِيدِ ص ٤٢ .

النسابة السمعاني في «الذيل» عن شيخه (أبي إسحاق علي بن أحمد اليزدي) أنه كان له عمامة وقميص بينه وبين أخيه ، إذا خرجَ ذاك قعدَ هذا في البيت ، وإذا خرج هذا احتاج ذاك أن يَتَعَمَّدَ !

قال السمعاني : وسمعتُه يقول يوماً ، وقد دخلتُ عليه داره مع علي بن الحسين الغزنوي الواعظ مُسَلِّماً عليه ، فوجدناه عُرِيَاناً متأزراً بِمِثْرٍ ، فاعتذر من العُري وقال : نحن إذا غسَلْنَا ثيابنا ، نكونُ كما قال القاضي أبو الطيب الطبري :

قومٌ إذا غَسَلُوا ثيابَ جمالِهِم لَبَسُوا البُيُوتَ إلى فراغِ الغاسِلِ ! .
١٠١ — وقال سفيان بن عيينة : سمعتُ شعبة بنَ الحجاج يقول : من طَلَبَ الحديثَ أفلسَ ، بعثُ طَسَّتْ أُمِّي بسبعةِ دنانير . حكاه الذهبي في «تذكرة الحفاظ» ١ : ١٩٥ .

١٠٢ — وجاء في «المنهج الأحمد» لأبي اليُمن العُلمِي الحنبلي ، في ترجمة (الإمام أحمد) فيه ١ : ٨ «خرج الإمام أحمد إلى عبد الرزاق . بصنعاء اليمن سنة سبع وتسعين ومئة ، ورافق يحيى بن معين — في هذه الرحلة — .

قال يحيى : لما خرجنا إلى عبد الرزاق إلى اليمَن ، حججنا ، فبينما أنا بالطواف إذا بعبد الرزاق في الطواف ، فسَلَّمْتُ عليه وقلتُ له : هذا أحمد بن حنبل أخوك ، فقال : حيَّاه الله وثبَّتَه ، فانه بَلَغَنِي عنه كلُّ جميل ، فقلتُ لأحمد : قد قَرَّبَ الله خُطانا ، ووفَّرَ علينا النفقة ، وأراحنا من مسيرة شهر ، فقال أحمد : إني نويتُ ببغداد أن أسمع من عبد الرزاق بصنعاء ، والله لا غَيَّرْتُ نِيَّتِي .

قال يحيى فلما خرجنا إلى صنعاء ، نَسَفَدَتْ نفقةُ أحمد ، فعَرَضَ علينا عبدُ الرزاق دراهم كثيرة فلم يقبلها ، فقال له : اقبلها على وجه القرض فأبى ، وعَرَضْنَا عليه — أي على أحمد — نفقتنا فلم يقبل ، فاطَّلَعْنَا عليه وإذا به يعمل التَّكْكُ وَيُفْطِرُ على ثمنها .

١٠٣ — ثم قال العلّيمي ١ : ١٤ « ولما كان أحمد باليمن رهناً سَطْلًا عند بَقَّالٍ بحضور سليمان بن داود الشاذَ كُونِي^(١) ، وأخذَ منه ما يَتَقَوَّى به ، ثم جاءه بفكّاكه ، فأخرجَ إليه سَطْلين . فقال : أيُّهما سَطْلُك فخذهُ ، فقال : قد اشتَبَهَ عليّ ، أنت في حِلٍّ من السَّطْل وفكّاكه ، فقال الشاذَ كُونِي للبقّال : أخرجتَ سَطْلين إلى رجلٍ من أهل الورع ، والسَّطْلُ تشابه ، فقال : والله إنه لسَطْلُهُ بعينه ، وإنما أردتُ امتحانَهُ . »

١٠٤ — ونَقَلَ القاضي ابن أبي يعلى في « طبقات الحنابلة » ١ : ٢٠٩ في ترجمة (عبد الرزاق بن هَمَّام الصنعاني) شيخ الإمام أحمد ، وابنُ الجوزي في « مناقب الإمام أحمد » ص ٢٢٦ : « أن عبد الرزاق ذَكَرَ أحمدَ بن حنبلٍ فدمعت عيناه ، ثم قال : قدِمَ علينا فأقامَها هنا سنتين إلا شيئاً . »

وبلَغَنِي أن نفقته نَفِدَتْ ، فأخذتُ بيده فأقمتُهُ خلف الباب ، وأشار إلى بابهِ ، وما معي ومعه أحدٌ ، فقلت : إنه لا يجتمع عندنا الدنانير ، وإذا بعنا الغنّة شغلناها في شيء ، وقد وجدتُ عند النساء عشرةَ دنانير فخذها ، فأرجو أن لا تنفقا حتى يتهيا عندنا شيء . قال : فقال لي أحمد : يا أبا بكر لو قبلتُ شيئاً من الناس قبلتُ منك . »

ثم نقل ابن الجوزي « عن إسحاق بن راهويه ، قال : لما خرج أحمد إلى عبد الرزاق انقطعتْ به النفقة ، فأكرى نفسه من بعض الجَمَّالين إلى أن وافى صنعاء ، وقد كان أصحابُهُ عَرَضُوا عليه المُواساة فلم يَقْبَل من أحد شيئاً . وقال أحمد بن سِنَان الواسطي : بلغني أن أحمد رهن نَعْلَهُ عند خبازٍ على طعام أخذه منه ، عند خروجه من اليمن . » انتهى . ونحو هذا في « الحلية » لأبي نعيم ٨ : ١٧٤ — ١٧٥ .

(١) هكذا الصواب : سليمان بن داود ... ، كما جاء في « طبقات الحنابلة » لابن أبي يعلى ١ : ١٦٣ ، و « مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي ص ٢٥٩ . ووقع في « المنهج الأحمد » للعلّيمي : (أحمد بن داود) وهو تحريف فاجتنبه .

١٠٥ - وحكى التاج السبكي في « طبقات الشافعية » ٢ : ٢٢٧ في ترجمة الإمام (البخاري)، والحافظ ابن حجر في مقدمة « فتح الباري » المسماة : « هادي الساري » ٢ : ١٩٥ قال : « قال ورَّاقُ البخاري محمد بن أبي حاتم : سمعته يقول : خرجت إلى آدم بن أبي إياس - في عسقلان - ، فتأخَّرتُ نفقتي حتى جعلتُ أتناول حشيش الأرض ، ولا أُخبرُ بذلك أحداً ، فلما كان اليوم الثالث أتاني رجل لا أعرفه ، فأعطاني صُرَّةً فيها دنانير وقال : أنفقْ على نفسك » .

١٠٦ - وقال الحافظ الإمام ابن أبي حاتم الرازي في كتابه « مقدمة الجرح والتعديل » في ترجمة والده (الإمام أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي) ص ٣٦٣ : (باب ما لقي أبي من المقاساة في طلب العلم من الشدة) : « سمعتُ أبي يقول : بقيتُ بالبصرة في سنة أربع عشرة ومئتين : ثمانية أشهر ، وكان في نفسي أن أقيم سنة ، فانقطعتُ نفقتي ، فجعلتُ أبيع ثيابَ بدائي شيئاً بعد شيء ، حتى بَقِيتُ بلا نفقة ! ومضيتُ أطوفُ مع صديق لي إلى المشيخة ، وأسمعُ منهم إلى المساء ، فانصرف رفيقي ورجعتُ إلى بيتِ خالٍ ، فجعلتُ أشرب الماء من الجوع !

ثم أصبحتُ من الغد وغدا عليَّ رفيقي ، فجعلتُ أطوفُ معه في سماع الحديث على جُوع شديد ، فانصرف عني وانصرفتُ جائعاً ، فلما كان من الغد غدا عليَّ فقال : مُرَّ بنا إلى المشايخ ، فقلت : أنا ضعيف لا يمكنني ، قال : ما ضعفُك ؟ قلت : لا أكتملكُ أمري ، قد مضى يومان ما طَعِمْتُ فيهما شيئاً ، فقال لي : قد بقي معي دينار ، فأنا أواسميك بنصفه ، ونجعل النصف الآخر في الكراء ، فخرجنا من البصرة ، وقبضتُ منه النصفَ دينار .

ثم قال ابن أبي حاتم : « سمعتُ أبي يقول : لما خرجنا من المدينة من عند داود

الجعفري ، صرنا إلى الجار^(١) ، وركبنا البحر ، وكنا ثلاثة أنفس : أبو زهير المروزي شيخ ، وآخر نيسابوري .

ولما كنا في البحر احتلمت ، فأصبحتُ وأخبرتُ أصحابي بذلك ، فقالوا لي : اغمس نفسك في البحر ، قلت : إني لا أحسن أن أسبح ، فقالوا : إنا نشدُّ فيك حبلاً ونشدُّ لك في الماء ، فشددوا في حبلاً وأرسلوني في الماء ، وأنا في الماء أريدُ إسباغَ الوضوء ، فلما توضأتُ قلت لهم : أرسلوني قليلاً ، فأرسلوني ، فغمستُ نفسي في الماء فقلتُ : ارفعوني فرفعوني .

وركبنا البحر ثم مشينا فكانت الريحُ في وجوهنا ، فبقينا في البحر ثلاثة أشهر ! وضاعت بنا صدورنا ، وفني ما كان معنا من الزاد ، وبقيت بقية ، فخرجنا إلى البر ، فجعلنا نمشي أياماً على البر ، حتى فني ما كان معنا من الزاد والماء ! .

فمشينا يوماً وليلة لم يأكل أحدٌ منا شيئاً ولا شربنا ، واليوم الثاني كمثلاً ، واليوم الثالث ، كل يوم نمشي إلى الليل ، فإذا جاء المساء صليتنا وألقينا بأنفسنا حيث كنا ، وقد ضعفتُ أبداننا من الجوع والعطش والعياء ، فلما أصبحنا اليوم الثالث جعلنا نمشي على قدر طاقتنا ، فسقط الشيخ المروزي مغشياً عليه ، فجئنا نحركه وهو لا يعقل ، فتركناه !

ومشينا أنا وصاحبي النيسابوري قنطرة فرسخ أو فرسخين^(١) ، فضعفتُ وسقطتُ مغشياً علي ، ومضى صاحبي وتركني !

فلما يزل هو يمشي إذ بصر من بعيد قوماً قد قربوا سفينتهم من البر ، ونزلوا على بشر موسى صلى الله عليه وسلم ، فلما عاينهم لَوَّحَ بثوبه إليهم ،

(١) في « القاموس » الجار موضع بينه وبين المدينة الشريفة يوم وليلة ، وقرية بأصبهان ، وقرية بالبحرين .

(٢) الفرسخ بمشي القدم ساعة ونصف ، وهو يزيد على خمسة كيلومترات .

فجاءوه معهم الماءُ في إداوة فسقّوه وأخذوا بيده ، فقال لهم : الحقوا رقيقين لي قد ألقوا بأنفسهم مغشياً عليهم ، فما شعرتُ إلا برجل يصب الماء على وجهي ، ففتحتُ عيني فقلت : اسقني ، فصَبَّ من الماء في ركوة أو مشربة شيئاً يسيراً ، فشربتُ ورجعتُ إليّ نفسي ، ولم يُروني ذلك القادر ، فقلت : اسقني فسقاني شيئاً يسيراً وأخذ بيدي .

فقلتُ : ورائي شيخٌ مُلقى ! قال : قد ذهب إلى ذاك جماعة ، فأخذتُ بيدي وأنا أمشي أجر رجلي ، ويسقيني شيئاً بعد شيء ، حتى إذا بلغتُ إلى سفينتهم ، وأتوا برقيقَي الثالث الشيخ ، أحسن إلينا أهلُ السفينة ، فبقينا أياماً حتى رجعتُ إلينا أنفسنا .

ثم كتبوا كتاباً إلى مدينة يقال لها : راية ^(٢) ، إلى واليهم ، وزودونا من الكعك والسويق والماء ، فلم نزلْ نمشي حتى نفد ما كان معنا من الماء والسويق والكعك ، فجعلنا نمشي جوعاً عطاشاً على شطّ البحر ، حتى وقعنا إلى سَلَحَفَاة قد رمى بها البحر مثل التُّرْس ، فعمدنا إلى حجر كبير فضربنا على ظهرها فانفلق ظهرها ، وإذا فيها مثلُ صُفْرة البيض ، فأخذنا من بعض الأصداف الملقاة على شطّ البحر ، فجعلنا نغترف من ذلك الأصفر فنتحسّاه ، حتى سكن عنا الجوعُ والعطش .

ثم مررنا وتحملنا حتى دخلنا مدينة الراية ، وأوصلنا الكتاب إلى عاملهم ، فأنزلنا في داره ، وأحسن إلينا ، وكان يُقدِّمُ إلينا كلَّ يوم القَرَاع ، ويقول لحادِمْه : هاتي لهم اليقطينَ المبارك ، فقدَّم إلينا من ذلك اليقطين مع الخبز أياماً ، فقال واحدٌ منا بالفارسية : ألا تدْعُو - لنا - باللَّحْمِ المشووم ؟ ! وجعلَ يُسمِعُ الرجلَ صاحبَ الدار ، فقال : أنا أحسنُ الفارسية ، فإن

(١) هي راية القُلُزُم ، كورة من كور مصر القبلية . كما في « معجم البلدان » .

جَدَّتِي كَانَتْ هَرَوِيَّةً ، فَأَتَانَا بَعْدَ ذَلِكَ بِاللَّحْمِ ، ثُمَّ خَرَجْنَا مِنْ هُنَاكَ وَزَوَّدَنَا إِلَى أَنْ بَلَّغْنَا مِصْرَ . »

١٠٧ — وَقَالَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ فِي « الْعِيسَى » ٢ : ٥٨ ، وَالْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي « تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ » ١١ : ٣٨٦ فِي تَرْجُمَةِ (يَعْقُوبُ بْنُ سَفْيَانَ الْفَارِسِيُّ الْقَسَّاسِيُّ الْحَافِظُ) الْمُتَوَفَى سَنَةَ ٢٧٧ « قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ بْنُ حَمْرَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ :

قَالَ لِي يَعْقُوبُ بْنُ سَفْيَانَ : أَقْبَسْتُ فِي الرَّحْلَةِ ثَلَاثِينَ سَنَةً . وَكُنْتُ فِي رِحْلَتِي فَقَسَلْتُ نَفْقَتِي ! فَكُنْتُ أَدْمِنُ الْكِتَابَةَ لَيْلًا ، وَأَقْرَأُ نَهَارًا ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ كُنْتُ جَالِسًا أَنْسَخُ فِي السَّرَاجِ ، وَكَانَ شَتَاءٌ ، فَتَنَزَلَ الْمَاءُ فِي عَيْنِي فَلَمْ أَبْصُرْ شَيْئًا ! فَبَكَيْتُ عَلَى نَفْسِي لِانْقِطَاعِي عَنْ بِلَدِي ، وَعَلَى مَا فَاتَنِي مِنَ الْعِلْمِ !

فَغَلَبَتْنِي عَيْنَايَ ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ ، فَنَادَانِي : يَا يَعْقُوبُ لِمَ أَنْتَ بِكَيْتَ ؟ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ بَصْرِي فَتَحَسَّرْتُ عَلَى مَا فَاتَنِي ، فَقَالَ لِي : ادْنُ مِنِّي فَدْنُوتُ مِنْهُ ، فَأَمَرَ يَدَهُ عَلَى عَيْنِي كَأَنَّهُ يَقْرَأُ عَلَيْهِمَا ، ثُمَّ اسْتَيْقَظْتُ فَأَبْصَرْتُ ، فَأَخَذْتُ نُسْخِي وَقَعَدْتُ أَكْتُبُ . وَتَوَفَى سَنَةَ ٢٧٧ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ بَضْعِ وَثْمَانِينَ سَنَةً . »

١٠٨ — وَقَالَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ فِي « تَذَكُّرَةِ الْحَفَظِ » ٢ : ٧٦٨ ، فِي تَرْجُمَةِ (الْحَافِظُ أَبِي بَكْرٍ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْإِمَامِ الْحَافِظِ أَبِي دَاوُدَ السَّجِسْتَانِيِّ) الْمَوْلُودِ سَنَةَ ٢٣٠ ، وَالْمُتَوَفَى سَنَةَ ٣١٦ : « قَالَ : دَخَلْتُ الْكُوفَةَ وَمَعِيَ دِرْهَمٌ وَاحِدٌ ، فَاشْتَرَيْتُ بِهِ ثَلَاثِينَ مُدًّا بِاقِلَاءَ ، فَكُنْتُ أَكُلُ مِنْهُ وَأَكْتُبُ عَنِ الْأَشْيَخِ — عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ الْكِنْدِيُّ مُحَدِّثُ الْكُوفَةِ — ، فَمَا فَدَرَغَ الْبَاقِلَاءُ حَتَّى كَتَبْتُ عَنْهُ ثَلَاثِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ مَا بَيْنَ مَقْطُوعٍ وَمُرْسَلٍ . »

١٠٩ — وَقَالَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ فِي « تَذَكُّرَةِ الْحَفَظِ » ٣ : ١٠٧٥ فِي تَرْجُمَةِ الْإِمَامِ الْحَافِظِ شَيْخِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ (أَبِي بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَرْقَانِيُّ) شَيْخِ بَغْدَادَ ، الْمَوْلُودِ سَنَةَ ٣٣٦ وَالْمُتَوَفَى سَنَةَ ٤٢٥ بِبَغْدَادَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، قَالَ

فيها : « قال البرقاني : دخلتُ إسفرايين ومعي ثلاثة دنانير ودرهم ، فضاقت الدنانير وبقي الدرهم ! فدفعته إلى خبّاز ، فكنتُ آخذُ منه كلَّ يومٍ رغيفين ، وآخذ من يِشر بن أحمد جزءاً فأكتبه وأفرغه بالعشي ، فكُتبت ثلاثين جزءاً ، ونفدتُ ما عند الخبّاز فسافرتُ ! » .

١١٠ — وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٤ : ١١٧٣ في ترجمة (الإمام الحافظ الجوال أبي علي الحسن بن علي البخاري الوخشي) المتوفى سنة ٤٧١ ببلخ « قال الوخشي يوماً : سمعتُ ورَحَلْتُ وقاسَيْتُ المشاقَّ ، والدُّلَّ ، ورَجعتُ إلى وَخْش — وَخْش قرية من أعمال بلخ — ، وما عَرَفَ أحدٌ قدرِي ، ولا فَهَمَ ما حَصَلَتْهُ ! فقلتُ : أموتُ ولا ينتشر ذِكري ولا يترحمُ أحدٌ علي ، فسَهَّلَ الله ووَفَّقَ نِظامَ المُلكِ حتى بنى هذه المدرسة — في وَخْش — وأجلستني فيها حتى أحدث .

لقد كنتُ بعسقلان أسمعُ من ابن مُصَحِّح وغيره ، فضاقت عليَّ النفقةُ وبقيتُ أياماً بلا أكل ، فأخذتُ لأكتب فعجزت ! فذهبتُ إلى دكانِ خباز وقعدتُ بقربه لأشمَّ رائحةَ الخبز وأتقوى بها ! ثم فَتَحَ الله عليَّ .

وأختتم الحديث عن هذا الجانب بذكر حادثة الإمام محمد بن جرير الطبري ، الذي قُسِمَت مؤلفاته على أيام عمره من ولادته إلى وفاته ، فكان نصيب كل يوم من حياته أربعة كراريس .

١١١ — قال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٢ : ٧١١ ، والتاج السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » ٣ : ١٢٥ في ترجمة (الإمام محمد بن جوير الطبري) : « قال أبو محمد الفَرَّغاني — تلميذُ ابن جرير — :

كان محمد بن جرير لا تأخذه في الله لومةُ لائم ، مع عِظَم ما يؤدِّي ، فأما أهلُ الدين والعلم فغيرُ منكرين علمه وزُهدَه ، ورَفُضَه للدنيا ، وقناعته بما يجيئه من حصّةٍ خَلَّفها له أبوه بطبرستان .

قال: ورحلَ محمد بن جرير لما ترعرع من أمل، وسمَّحَ له أبوه بالسفر، وكان أبوه طولَ حياته يُوجِّهُ إليه بالشَّيء بعد الشَّيء إلى البلدان، فسمَّعته يقول: أبطأتُ عني نفقةُ والدي، واضطَّرتُّ إلى أن فتقتُ كُمِّي قميصي فبعتهُما» .

والإمامُ ابن جرير هو القائل — كما في « كنوز الأجداد » ص ١٢٠ للأستاذ محمد كرد علي — :

إذا أعسرتُ لم يَعْلَمْ رَفِيقِي
حيائي حافِظٌ لي ماءَ وجهِي
ولو أَنِّي سَمَحْتُ بِبَدَلِ وَجْهِ
وأَسْتَغْنِي فِيهِ سَتَغْنِي صَدِيقِي
ورَفِيقِي فِي مُطَالَبَتِي رَفِيقِي
لَكُنْتُ إِلَى الْغِنَى سَهْلَ الطَّرِيقِ
وهو الذي يقول أيضاً :

خُلُوقَانِ لَا أَرْضَى طَرِيقَهُمَا
بَطَرُ الْغِنَى وَمَدَلَةُ الْفَقْرِ
فَإِذَا غَنَيْتَ فَلَا تَكُنْ بَطِيراً
وَإِذَا افْتَقَرْتَ فَتِهِ عَلَى الدَّهْرِ .

رحم الله صاحبَ هذه النَّفْسِ الأبية، وهذا الشَّعْمِ الباذخ، وذلك الخُلُقِ العظيم، والعِشْمِ الغزير النَّمِير .

١١٢ — وقد وقع للعبدِ الضَّعِيفِ جامعُ هذه « الصفحات » نَفَادُ النِّفْقَةِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ (١)، ومنها أَثْنَاءُ دِرَاسَتِي فِي كَلِيَّةِ الشَّرِيعَةِ بِالقَاهِرَةِ، فَقَدْ أَبْطَأْتُ نَفْقَتِي عَلَيَّ مِنْ أَهْلِي فِي حَلَبَ، وَأَصْبَحْتُ وَلَمْ يَبْقَ مَعِيَ سِوَى ١٣ قِرْشاً مِصْرِيّاً، وَكَانَ الْيَوْمَ يَوْمَ الْحَمِيسِ وَلَمْ أَفْطِرْ بَعْدَ، فَذَهَبْتُ إِلَى الْكَلِيَّةِ عَلَى غَيْرِ طَعَامٍ، وَلَمَّا عَدْتُ مِنْهَا مَرَرْتُ بِالْمَطْعَمِ وَدَخَلْتُهُ لِلْغَدَاءِ قَبْلَ وَرُودِ الْآكِلِينَ، فَتَسَابَقَ إِلَيَّ التُّدُلُ

(١) أَذْكَرُ وَاقِعَتِي هَذِهِ عَلَى اسْتِحْيَاءِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ دَوَّنْتُ بَعْضَ أَخْبَارِهِمْ فِي هَذِهِ « الصَّفَحَاتِ »، فَانْ وَاقِعَتِي لَيْسَتْ بِشَيْءٍ فِي جَنْبِ مَا وَقَعَ لَهُمْ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَأَثَابَهُمْ وَرَضِي عَنْهُمْ .

— خَدَمَ المَطْعَم — ، استثناساً منهم بمظهري العلمي الشامي ، وكل منهم يبدي الاهتمام بي بغية إكرامه بشيء .

ولما جلست للطعام تظاهرت بالمرض ، وأنه لا يواتيني من الطعام سوى الحساء (الشوربة) مع الخبز ، وهو أرخص الطعام في ذلك المطعم . ثم خرجت من المطعم على بقية جوع حسنة ، وبقي لدي عشرة قروش ، وما أن وصلت إلى غرفتي التي أسكنها واستقرت فيها ، حتى أرسلت جارة لي ولداً تقترض مني خمسة قروش ، فأقرضتها ، وبقي لدي خمسة قروش ، ونمت كما أنا دون أن آكل شيئاً ، على أمل أن أفطّر فولاً في الغد صباح الجمعة ، فيقوتني إلى آخر النهار ، ويبقى من القروش بقية .

فلما أصبحت ظهرت إلى ساحة السطح الذي كانت غرفتي عليه ، فإذا زميل لي من الطلبة السوريين الفقراء ، كان يسكن على سطح يبعد عني نحو خمسين متراً ، فأشار إليّ هل لديك فلوس ؟ فأشرت إليه : ليس لدي سوى خمسة قروش ، فأشار أنه يريد الفلوس للفطور ، فقلت بالإشارة : وأنا أريد الفطور أيضاً ، فأنا أرميها لك ، فاشتر بها فولاً وخبزاً لفطورنا جميعاً ، وتعال به إليّ ، ثم رميت له بقطعة خمسة قروش ، على اعتدادي أنه فسيهم مني ، وأن الفول سيأتي قريباً وأفطّر .

ثم عدت إلى غرفتي وانتظرت ثم انتظرت ، ثم انتظرت فلم يأت أحد ، وقاربت صلاة الجمعة فذهبت للصلاة ، ثم عدت وبقيت دون طعام إلى صباح يوم السبت ، فذهبت إلى الكلية وعلائم الجوع والتأثر بادية على وجهي ، فقال لي بعض زملائي الحمويين : ما بك ؟ قلت : لا شيء ، قال : لا بد ، فاني أرى وجهك ذاوياً متغيراً فأخبرني ، وأصرّ عليّ بإخباره ، فأخبرته بجوعي منذ يومين ، فأخذني لمنزله وأضافني أكرمه الله ، وأقرضني من نفقته حتى جاءت نفقتي ، وأوسع الله عليّ وذهبت الفاقة .

١١٣ — وبعد أن وقعت لي هذه الحادثة ، وجاءتني النفقة من بلدي حلب ،

حدثتُ بها شيخنا الإمام محمد زاهد الكوثري وكيلَ شيخ الإسلام في الدولة العثمانية ، المهاجرَ بدينه من تركيا إلى القاهرة ، المتوفى بها سنة ١٣٧١ رحمه الله تعالى ، للاستمتاع بالخبر وطرافته ، فحدثني تطبيقاً لنفسه بما وقع له من ذلك ، فكان أغرب وأعجب ، فأنا أسجّلُ ما سمعته منه بعد أكثر من عشرين سنةً من سماعه ، فأكتبُ ما بقي في ذهني .

قال رحمه الله تعالى : لما أقمت بدمشق ، وعكفت على المكتبة الظاهرية أطالع في أسفارها قرابة سنة ، نزلتُ أوّلَ الأمر في الفندق ، فلما قلتُ نفقتي نزلتُ في غرفة متواضعة على سطح ، استأجرتها مشتركةً بيني وبين إنسان آخر غريب من تركيا ، ثم إني أملتُ بالمرّة ، فكان صاحبي في الغرفة — على فقره — يواسيني بما لديه من نفقة قليلة نشترك فيها طعاماً وشراباً ، ثم أملتُ هو مثلي ، وغاب يسعى في الرزق . وأصبحتُ على جوع شديد ، ولم يبقَ لديّ درهم آكل به .

فذهبتُ صبيحة اليوم الأول من حالي هذه إلى الظاهرية كعادتي ، ولكن دون طعام ، ثم عدتُ إلى الغرفة ، ثم أصبحتُ على ما نمت عليه من الجوع ، وذهبتُ إلى الظاهرية ، وعدتُ منها في جوع شديد ، وجلستُ في غرفتي إلى الغد ، ثم ذهبتُ إلى الظاهرية في اليوم الثالث على اشتداد الجوع بي ، إذ وجدتُ جالوسني في الغرفة يزيد ألمَ الجوع عليّ ، فالاشتغالُ بالعلم ربما يُخففُ بعض الشيء ؟ !

ولما عدتُ إلى الغرفة بعد الظهر ، مررتُ بسَمَّان الحلي الذي أودعتُ عنده عنواني للمراسلة ، فأخبرني أن ساعي البريد جاء إليّ ومعه رسالة مسجّلة لا تُسلم إلا بيدي ، فذهبتُ إلى البريد على سَعْبِي وجوعي وتهالك قُوَّتِي ، فإذا هي رسالة من الشيخ رشيد الحواصلي الدمشقي ، أرسلها لي من إصطنبول إلى القاهرة منذ أكثر من أربعة أشهر ، ومعها حوالة لي بثلاثة جنيهات ذهبية .

وقد ظلتُ هذه الحوالة مع الرسالة تذهب وتعود بين إصطنبول والقاهرة

طوال هذه المدة ، لعدم وجودي ولعدم معرفة عنواني في القاهرة ، حتى وصلتني في ذلك اليوم الثالث من شدتي هذه ، فأخذت الحوالة ، وتوسّعتُ بها أنا ونزيلي في الغرفة إلى حين .

قال : وكان سبب إرسال تلك الجنيحات إلي ، من صاحبي الشيخ الحواصلي في إصطنبول — كما حدثني بعد التقائنا في القاهرة — ، أنه عاد يوماً إلى بيته ، وقد اشترى سمكاً طيباً وتعدّتي منه ، ثم تذكرني وتذكّر أنني بعيد عن الأهل والبلد ، ولا مورد ولا عمل ، وأني خرجت من البلد بملاسي ، فأرسل لي تلك الحوالة من أشهر بعيدة ، وشاء الله أن تصلني في حينها المناسب ، فالحمد لله على كريم لطفه وتدييره .

١١٤ — قال : وقد أملت إملاقة ثانيةً بدمشق أيضاً ، ومضى عليّ يومان — أوقال : ثلاثة — دون طعام ، وفي اليوم الثالث لقيني في الطريق رجل من أهل فلسطين ، كنت لمحتّه في بعض المجالس التي ضمتني مع بعض العلماء بدمشق ، فتقدّم لي قدرًا حسنًا من المال ، وأصرّ عليّ بأخذه ، وألحّ كثيرًا ، فأخذته تحت إلحاحه وتحت شدّة الفاقة والجوع ، ولكنني ما عرفتُ اسم ذاك الرجل ، ولا اهتديتُ إليه حتى الآن لأردّ له الجميل !

وكان شيخنا (الكوثري) رحمه الله تعالى (زاهدًا) حقًا عند كل عارفيه ، فكان من الذين إذا وجدوا آثروا ، وإذا فقدوا صبروا وشكروا ، فرحمته الله تعالى وأعلى مقامته في الصابرين .

١١٥ — ومما وقع للعبد الضعيف مؤلف هذه (الصفحات) أيام الطلب والدراسة : أنني كنت عائداً من القاهرة إلى بلدي حلب في آخر العام الدراسي عام ١٣٦٧ = ١٩٤٧ ، فلما وصلت إلى مدينة حيفا — وكانت تحت الاحتلال الإنكليزي — بيّتها انتظاراً لسفر السيارة صباح الغد إلى دمشق ، بعد أن حجزت في السيارة الكبيرة لسفري ودفعت الأجرة ٦٠ قرشاً مصرياً ، وذهبت إلى الفندق بانتظار صباح الغد للسفر ، وكان قد بقي معي من النفقة بعد تناول العشاء وأجرة

الفندق ٦٥ قرشاً مصرياً .

فلما جئت على الموعد صباحاً رفض سائق السيارة أن يحماني ، نظراً إلى أن معي أمتعتي في حقيبة ومعني أيضاً حقيبتان مملوءتان كتباً ، وردّ لي ٦٠ قرشاً ، فقلت له : أزيدك على أجرتك أجرةً للحقيبتين ، فأبى وأنزل ما كان حمله من أمتعتي في الطريق ، وساق سيارته ومشى دون أن يستجيب لما عرضته عليه ! فبقيتُ على الأرض ! والسيارة الكبيرة التي حجزتُ فيها لرخصتها لا تذهب إلى دمشق إلا مرةً واحدة في اليوم ، فنالني من الغم والحزن ما الله تعالى به عليم .

ورآني رجل من أهل حيفا وأنا أحاور السائق لإركا بي ، ورآه قد تركني ومشى دون مبالاة ولا رحمة ، ورأى هَمَمِيَّ وَغَمَمِيَّ ! فقال لي : لا تَغْمَ يا شيخ ، هناك سيارة ثانية تذهب إلى دمشق في (شركة العلمين) ، وهي سيارة صغيرة تذهب بعد الظهر فسافرُ فيها ، واستدعى سيارة أجرة لنذهب بها إلى (شركة العلمين) ، فأخذتُ طريقي معه إليها ، ولما وصلتُ إلى مقر الشركة علمتُ أن السيارة تسافر بعد الظهر في الساعة الثانية ، وأجرة الركوب فيها ٢٥٠ قرشاً مصرياً ، فقلت لهم : عندي الآن ١٢٥ قرشاً ، وأدفع لكم الباقي في دمشق فقبلوا . فدفعتم لهم ما بقي معي ١٢٥ قرشاً ، وذهبتُ أتمشى في البلد بانتظار الموعد بعد الظهر .

ولما جئت على الموعد في الساعة الثانية ، وجدت الموظفين في مكتب الشركة يتوارون بوجوههم مني ، وقد خان الموعد المحدد للسفر ، ومشهور جداً عن هذه الشركة ضبطُ مواعيدها ودقّةُ انتظامها في معاملتها ، فرابني تأخّرهم وتواريهم ، ثم علمتُ أنه ليس من مسافر إلى دمشق سواي عندهم ، وهم يَظُنُّون أن تَخرج سيارة براكب واحد ، وعددُ ركابها خمسة .

ثم مضى من الوقت نصف ساعة وأنا أذكّرهم بالموعد واضطراري إلى السفر ، وإذا برئيس الشركة يحضر ، واسمه : (أبو أحمد فستق) ، ولما دخل قاموا لاجترامه ، وعلمتُ أنه المسؤول الأول ، فحدّثته بالأمر ، فأمرَ على الفور

باخرج سيارة تسافر بي وحدي إلى دمشق ، تحقيقاً لانتظام مواعيد الشركة والتزاميها ، فأخرجوها وجعلوا يرفعون أمتعتي إلى السيارة ، فشكرته وحَمَدتُ له موقفه .

ثم استدعى سيارةً ثانية لركوبه خاصةً يسافر بها إلى بيروت ، ثم قال لي : هل تركبُ معي إلى بيروت وتذهبُ من هناك إلى دمشق في سيارتنا في بيروت؟ فقلت له : لا مانع عندي من هذا ، وما أحبُّ أن أكلفكم سيارةً كاملةً من أجلي وحدي تسافر بي إلى دمشق ، فحوّلوا لي أمتعتي من سيارة دمشق إلى سيارته إلى بيروت .

ولما وصلنا إلى (الناقورة) من حدود الاحتلال الإنكليزي ، كان التفتيشُ من رجال الحدود والجيش هناك شديداً جداً للغاية وطويلاً جداً ، وينظرون في كل شيء ويفتحون كل كتاب مع المسافر ، وكان معي حقيبتان من الكتب ، فامتأ قلبي همماً وغماً لما سألاقي من العناء معهم .

ولما رأى رجالُ الحدود والضابطُ المسئول هناك : صاحبي (أبو أحمد فستق) وكان رجلاً وجيهاً مشهوراً عندهم فيما بدا لي ، تساهلوا في تفتيش الأمتعة والكتب ، فما زادوا على فتح الحقائق ثم إغلاقها . وخرجنا من (الناقورة) بيسر وسهولة لا ألقاهما لو لم يكن معي هذا الرجل الوجيه ، فشكرتُ له صحبته ، ولما وصلنا إلى بيروت كان قد بقي للمغرب نحو ساعة ، ولم يكن هناك سيارة مسافرة من مكتب شركة العلمين إلى دمشق !

فقلت لمسئول المكتب في بيروت : يلزمكم أن تُسفرّوني إلى دمشق كما هو الاتفاق ، فقال لي : آسفٌ أنه لا يوجد لدينا مسافرون غيرك ، ولعلّك تغدُرنا؟ ونحن نكتفي منك بمقابل ذلك بالأجرة التي أخذناها منك ، فقلت له : أنظرُ في أمري ، ولم يكن بقي معي شيء من المال ، وليس لي معارف في بيروت يسهل عليّ الاقتراض منهم ، ففكرت : كيف أنام هذه الليلة ؟ وكيف أسافر غداً؟

ولا درهم ولا مال بيدي ! فضاقت علي نفسي ، ثم استفتحت الله تعالى الخير
وكشفت الغُمَّة .

ثم تذكرت أن لي قريباً من الأرحام في بيروت ، بعد عهدي بلقائه ، ولا
أتذكر بالضبط موضع سكّنه ، فجعلتُ أستذكر الحي الذي يقطن فيه ،
وأمشي فأسأل عنه حتى اهتديتُ إليه بعد المغرب بكثير ، فاستقباني ورحّب
بي ، وفرّحَ بقدومي كثيراً ، وبادرَ إليّ قائلاً : لديّ مثلاً ليرة سورية أريد
إرسالها إلى حلب من نحو شهر ولم يتيسر لي أحد ، فهل تتكرّمُ باصطحابها معك
وأكون لك من الشاكرين ؟ فقلت له : نعم وبكل سرور ، وأخذتها ونِمتُ
عنده ، وأصبحتُ وقد ذهبَ الغمُّ عني ، وأعقبه اليُسْر والارتياحُ الغامر بما
يَسّر الله لي وأذهب عني من الهم والغم ، فالحمدُ لله الذي لا يَنْسى عباده ،
ويدبّرُ الأمرَ بحِكمته وعلمه وهو اللطيفُ الخبير .

أنتقل بعد هذا إلى :

الجانب السادس

في أخبارهم في فقْدِ الكتب أو بيعِها أو نحو ذلك عند المُليَمّات .

والكتبُ من حياة العالم تحلُّ منه محلّ الروح من الجسد والعافية من البدن .
وسنرى من أخبارهم في فقد الكتب أو تلفِها أو احتراقِها العَجَبُ
العجّاب ، وقد أكثروا القول في انتكا بهم بها ، وأجتزىء مما قالوه باليسير :

١١٦ - وهذا القاضي الجُرْجاني (أبو الحسن علي بن عبد العزيز) ،
يذكر موقعَ الكتاب من نفسه ومن لِدَادَةِ حياته ، فيقول كما في ترجمته في
« وَفَيَاتِ الأعيان » ١ : ٣٢٥ :

ما تَطَعَّمْتُ لِدَّةَ العَيْشِ حتى صِرْتُ لِلْبَيْتِ والكتابِ جَلِيساً

ليس شيءٌ عندي أعزَّ من العلم - فما أبتغي سواه أنيساً
إنما الدُّلُّ في مُخالطةِ النِّسَا - من فدَّ عنهم وعِش عزيزاً رئيساً

١١٧ - وكان قاضي مصر ومُحدِّثُها (عبد الله بن لَهَيْعَة) ، المولود سنة ٩٧ ، والمتوفى سنة ١٧٤ : إماماً في الحديث وحفظه وروايته ، فُنِكَبَ باحتراق كتبه في سنة ١٦٩ ، فكشَّرَ الوَهَّامُ والتدليسُ في حديثه ، فمن أخذَ عنه قبل احتراق كتبه ، فحديثُه أقوى ممن أخذَ عنه بعد احتراقها ، كما في ترجمته في « تذكرة الحفاظ » للذهبي ١ : ٢٣٨ .

ولما احترقت كتبه ، وصلَّه الإمامُ الليث بن سعد المصري بألف دينار ، كما ذكره الحافظ ابن حجر في « تهذيب التهذيب » ٨ : ٤٦٤ .

وهذا خبرٌ آخر يُصوِّرُ تفديةَ العالم لكتِّبِهِ التي هي جزء من لحمه ودمه ،

١١٨ - قال الحافظ السخاوي رحمه الله تعالى في « فتح المغيث بشرح ألفية الحديث » ص ١٥٧ « كان أبو أيوب سليمان بن داود الشاذكُوني من الحفاظ الكبار - وتُوفِّي في أصبهان سنة ٢٣٤ - رُوي بعد موته في النوم ، فقيل له : ما فعلَ الله بك ؟ قال : غفَّرَ لي ، فقيل : بماذا ؟ قال : كنتُ في طريق أصبهان ، فأخذني المطرُ ، وكان معي كتب ، ولم أكن تحت سقفٍ ولا شيء ! فانكبتُ على كتبي حتى أصبحتُ وهذا المطر ، فغفر الله لي بذلك في آخرين » (١) .

١١٩ - وهذا إمام المحدثين وشيخ البخاري (علي بن المدِّيني) المتوفى سنة ٢٣٤ رحمه الله تعالى ، - وهو الذي قال فيه الخطيبُ البغدادي : « فيلسوفُ هذه الصنعة وطبيبُها ، ولسانُ طائفة أهل الحديث وخطيبُها » - قد ألَّف كتابه

(١) وتقدم في ص ٦٨ خبرُ (ابن الخاضبة) حين وقع الغرق في بغداد على داره وكتبه ! ، وفي ص ٧٨ خبرُ (محمد بن نصر المروزي) حين غرق في البحر ، وذهب منه ألفا جزء !

العظيم « المسند » على الأطراف^(١) ، واستقصى فيه واستوعب ما أمكنه ، ثم رحلَ رحلةً طويلةً ، فطوّفَ فيها ما طوف من بلاد الإسلام في ثلاث سنين ، ثم عاد إلى بلده : البصرة ، فرأى « مسنده » قد أكلته دودة الكتب وقضت عليه ، فمات الكتابُ في حياة مؤلفه !

حكى الخطيب في ترجمته في « تاريخ بغداد » ١١ : ٤٦٢ أنه قال : « كنتُ صنّفتُ (المسند) على الطّرفِ مستقصى^(١) ، وكتبته في قراطيس ، وصيرته في قمطرٍ كبير^(٢) ، وخلفته في المنزل ، وغبتُ هذه الغيبة ، فلما قدّمتُ ذهبتُ يوماً لأطالع ما كنتُ كتبتُ ، فحرّكتُ القمطرَ ، فاذا هي ثقيلةٌ رزينةٌ بخلاف ما كانت ، ففتحتها فإذا الأرضة قد خالطت الكتب ، فصارت طيناً ! فلم أنشط بعدُ لجمعه ! » .

١٢٠ — وقال القاضي شمس الدين ابن خلكان في كتابه « وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان » ١ : ٣٣٧ ، في ترجمة الشريف المرتضى أبي القاسم (علي بن الطاهر) : « حكى الخطيب أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي اللغوي ، أن أبا الحسن علي بن أحمد بن علي بن سلك الفّالي الأديب ، كانت له نسخة من كتاب « الجمهرة » لابن دريد في غاية الجودة ، فدعته الحاجة إلى بيعها ، فاشتراها الشريف المرتضى أبو القاسم المذكور بستين ديناراً ، وتصفحها فوجد بها أبياتاً بخط بائعها أبي الحسن الفّالي المذكور ، وهي :

أنسيتُ بها عشرين حولاً وبيعتهُها	لقد طال وجدي بعد ها وحسني
وما كان ظنّي أني سأبيعُها	ولو خلّدتني في السجون ديوني
ولكن لضعفٍ وافتقارٍ وصبيّة	صغارٍ عليهم تسهيلٌ شؤوني
فقلتُ ولم أملك سوا بقٍ عبّرَتي	مقالةً مكويّ الفؤادِ حزينِ

(١) الطّرفُ هنا المراد به جملةٌ بارزة من الحديث تدل عليه .

(٢) القمطر : تقدّم تفسيره تعليقاً في خبر ابن مَعِين في ص ٥٨ .

«وقد تُخرجُ الحاجاتُ يا أمَّ مالكٍ كرائيمَ من ربِّ بهينٍ ضنينٍ»
فأرجعَ النسخةَ إليه ، وترك له الدنانيرَ رحمه الله تعالى . انتهى (١) .

١٢١ - ولأبي الحسن الفّاليّ هذا شعرٌ لطيف ، استحسنتُ ذكره
استطراداً ، لما له من صلة بالعلم والعلماء ، وقد أورد منه ابن الأثير في «الكامل» ،
في حوادث سنة ٤٤٨ التي توفي فيها الفّاليّ رحمه الله تعالى ، فمن شعره
الجميل قوله :

(١) وهذا القالي : منسوب إلى فالة بالفاء ، وهي بلدة بخوزستان ، كما ضبطه ابن خلكان ،
وياقوت في ترجمته في «معجم الأدباء» و «معجم البلدان» . وقد أقام بالبصرة مدة
طويلة ، ثم استوطن بغداد وحدث بها ، وتوفي فيها سنة ٤٤٨ ، وكان أديباً شاعراً ،
روى عنه الخطيب البغدادي صاحب «تاريخ بغداد» وغيره كما ذكره ابن خلكان .
قال عبد الفتاح : وإنما ذكرتُ نسبةَ الفّاليّ ، وذكرتُ تاريخَ وفاته وبسبب إقامته ،
لأدفعَ الاشتباهَ عنه والتحريفَ الذي يقع في اسمه ، فانه يقع محرّفاً إلى (القالي) بالقاف ،
ظناً أنه (أبو علي القالي) المشهور ، وذلك (أبو علي) وهذا (أبو الحسن) ، وأبو
علي توفي قبله بنحو مئة عام في قرطبة سنة ٣٥٦ ، وهذا توفي ببغداد سنة ٤٤٨ .
وقد وقع هذا التحريف في اسمه في كتب كثيرة ، مثل كتاب «الفلاكة والمفلوكون»
للدّاجي ص ١١٤ ، و «المزهر» للسيوطي ١ : ٩٥ بتحقيق ثلاثة من الأساتذة
المحققين ، و «تاج العروس» للزبيدي ١ : ١٢ وكتاب «ظهر الإسلام» ١ : ١١٧ -
١١٨ ، للأستاذ أحمد أمين ، فقد قال فيه : «وهذا أبو علي القالي البغدادي ، ضاقت
به الحال قبل أن يرحل إلى الأندلس ، حتى اضطر إلى أن يبيع بعض كتبه ، وهي أعز
شيء عنده ، فباع نسخةً من كتاب «الجمهرة» وكان كلفاً بها ، فاشتراها الشريفُ
المرتضى ، فوجدَ عليها بخط أبي علي :

أَنيستُ بها عشرينَ حَوْلاً وبعْتُها الأبيات ... » .

فراَد الأستاذ أحمد أمين إلى هذا التحريف الذي وقع فيه وتقبَّلَه بقبول حسن : أن
ذلك كان من أبي علي القالي قبل أن يرحل إلى الأندلس ! وأن الشريف المرتضى
اشترى النسخة منه ! والشريف المرتضى وُلِدَ سنة ٣٥٥ ، وأبو علي القالي توفي سنة
٣٥٦ ، فكيف يشتري هذا من هذا ؟ !

لما تَبَدَّلَتِ المجالسُ أَوْجُهًا غيرَ الذين عَهِدْتُ من علمائها
ورأيتها مخفوفةً بسِوَى الأُلَى كانوا وُلَاةَ صُدُورِها وفِنائِها
أَنشَدْتُ بيتاً سائراً متقدِّماً والعَيْنُ قد شَرِقَتْ بِجاري مائِها
«أما الحِيَامُ فإنها كخيَامِهِم وأرى نساءَ الحَيِّ غيرَ نساءِها»

قال ابن الأثير : « ومن شعره الحسن قوله :

تصدَّر للتدريس كلُّ مُهَوَّسٍ بليدٍ تَسَمَّى بالفقيه المدرِّسِ
فحقَّ لأهلِ العلم أن يتمثَّلُوا ببيتٍ قديمٍ شاع في كلِّ مجلسِ
«لقد هزِلْتُ حتى بدَّ آمِنُ هزَالها كُلاها وحتى سامها كلُّ مُفْلِسِ !»

١٢٢ — وهذا الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن ثابت الحَوْلاني ، المعروف بالحدَّاد المَهْدَوِي^(١) ، يَبِيعُ كُتُبَهُ اضطراراً وفقراً ، فتَسألُهُ زوجته وهي تَعْرِفُ حُبَّهُ لِكُتُبِهِ وشِدَّةَ تعلقِهِ بها : كيف بِعْتَ الكُتُبَ وهي أعزُّ شيءٍ لديك ؟! فيقول لها كما حكاه الحافظ السَّلَفِيُّ في كتابه «معجم السَّفَر» ، وياقوت الحَمَوِي في «معجم البلدان» عند اسم (المَهْدِيَّة) ٨ : ٢٠٨ :

قالت وأبدتُ صفحَةً كالشمس من تحت القِنَاعِ
بِعتَ الدفاترَ وهي آخِرُ — رُ ما يُباعُ من المتع
فأجبتُها ويدي على كبدي وهَمَّتْ بانصداع
لا تَعجبي مما رأيتِ فنحن في زمن الضياع !

١٢٣ — وجاء في «الأعلام» للزركلي ١ : ١٩٦ ، نقلاً عن «معالم الإيمان» ٣ : ٩ - ١٢ في ترجمة (أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن القَصْرِي المتوفى سنة ٣٢١ : «فقيه من أهل القيروان ، نسبته إلى قَصْر الأغلب ، على ميلين من جنوب القيروان .

(١) نسبة إلى بلدة المَهْدِيَّة قرب مدينة سَكَا في المغرب الأقصى .

له عناية بالعلم ورواية الحديث وجمع الكتب ونسخها وتصحيحها . كان يقول : لي أربعون سنة ما جفَّ لي قلم - يعني من كثرة ما ينسخ بالليل والنهار - ، وكان ربما باع بعض ثيابه ، واشترى بشمسه كتاباً أو رُقُوقاً لنسخ كتاب .
رحمه الله تعالى .

١٢٤ - وقال التاج السبكي في « طبقات الشافعية » في ترجمة الإمام الغزالي ٣ : ١٠٣ « قال الإمام أسعد الميهني : سمعت الغزالي يقول : قُطِعت علينا الطريق ، وأخذ العيسارون جميع ما معي ومَضَوْا ^(١) ، فتبعتهم فالتفت إليّ مقدّمهم وقال : ارجع ويحك ، وإلا هلك . فقلت له : أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن تردّ عليّ تعليقاتي فقط ، فما هي بشيء تنتفعون به .

فقال لي : وما هي تعليقاتك ؟ فقلت : كتب في تلك المخلاة ، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك وقال : كيف تدّعي أنك عرفت علمها ؟ وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ! ثم أمر بعض أصحابه فسلم إليّ المخلاة .

قال الغزالي : هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري ، فلما وافيت طُوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين ، حتى حفظت جميع ما علّفته ، وصيرتُ بحيث لو قُطِع عليّ الطريق لم أتجرد من علمي .

١٢٥ - وقال القاضي ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ١ : ٢٠٩ في ترجمة ابن الدهان النحوي البغدادي (أبي محمد سعيد بن المبارك) المتوفى سنة ٥٦٩ « كان سيبويه عصره ، وله في النحو التصانيف المفيدة - ثم ذكرها ابن خلكان - ثم إن أبا محمد ترك بغداد ، وانتقل إلى الموصل ، قاصداً جناب الوزير جمال الدين الأصبهاني المعروف بالجواد ، فتلقاه بالإقبال وأحسن إليه ، وأقام في كنفه مدة .

(١) العيارون جمع عيار ، وهو النشيط في المعاصي .

وكانت كتبه قد تَخَلَّفَتْ ببغداد ، فاستولى الغَرْقُ تلك السنة على البلد ، فسيَّر من يُحضرها إليه إن كانت سالمةً ، فوجدها قد غَرِقَتْ ! وكانت خلف داره سدُّ بَغْعةٍ فغرقت أيضاً ، وفاض الماء منها إلى داره ، فتلفت الكتب بهذا السبب زيادةً على إتلاف الغرق ، وكان قد أفنى في تحصيلها عمره ، فلمَّا حُمِلَتْ إليه على تلك الصورة ! أشاروا عليه أن يُطَيِّبَهَا بالبَخُور ، ويصلح منها ما يمكن . فبَخَّرَهَا بِاللَّاذَنْ (١) .

ولازِمَ ذلك إلى أن بَخَّرَهَا بِأَكْثَر من ثلاثين رطلاً لاذناً ، فطَلَعَ ذلك إلى رأسه وعينيه ، فأحدث له العمى وكُفَّ بصره ! » .

١٢٦ — وهذه فاجعة كبرى من فواجع العلماء بفقد الكتب ، تنزلُ بأَسامة بن منقذ أمير بلدة شَيْزَر وقلعَتِها ، وأحدِ الشجعان والعلماء الأدباء في عصره ، ولد سنة ٤٨٨ وتوفي سنة ٥٨٤ ، وقد حَلَّتْ به هذه الداهية الدهية قبل سنة ٥٦٩ في حياة الملك العادل نور الدين الشهيد رحمهما الله تعالى .

قال أسامة في كتابه « الاعتبار » ص ٣٤ ، الذي دَوَّن فيه مجمل سيرته — وهو يتحدث عن هذه الفاجعة المؤلمة على مَدَى العمر — : « ثم اتصلتُ بخدمة الملك العادل نور الدين رحمه الله ، وكاتبَ الملك الصالح — بن رُزَيْك في مصر — في تسيير أهلي وأولادي الذين تخلفوا بمصر ، وكان محسناً إليهم .

فردَّ الرسولَ واعتذر بأنه يخاف عليهم من الإفرنج ، وكتبَ إليَّ يقول : ترجع إلى مصر وأنت تعرف ما بيني وبينك ، وإن كنت مستوحشاً من أهل القصر ، فتصل إلى مكة ، وأنفذُ لك كتاباً بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمُدُّك بما تتقوى به على محاربة الحبشة ، فأسوان ثَغْرٌ من ثغور المسلمين ، وأسِيرُ إليك أهلُك وأولادك .

ففاوضتُ الملك العادل واستطلعتُ أمره ، فقال : يا فلان ما صدَّقْتَ متى

(١) قال في « لسان العرب » : اللاذَنْ من العلوك . وقيل : هو دواء بالفارسية .

تَخْلُصُ من مصرَ وفِتْنِهَا ، تَعُودُ إِلَيْهَا ؟ ! العُمَرُ أَقْصَرُ من ذلك ، أنا أَنْفَعُ
— من — يَأْخُذُ لَأَهْلِكَ الأَمَانَ من ملكِ الإفرنج ، وَأُسَيِّرُ من يُحْضِرُهُمْ .

فَأَنْفَعُ رَحِمَهُ اللهُ — من — أَخَذَ أَمَانَ المَلِكِ في البرِ والبحرِ ، وَمَسَيَّرَ
الأَمَانَ مع غلامٍ لي وكتابَ المَلِكِ العادلِ وكتابي إلى المَلِكِ الصالحِ ، فَمَسَيَّرَهُمْ في
عُشَارِي من الخَاصِّ إلى دِمِيَاطَ ، وَحَمَلَ لَهُمْ كُلَّ مَا يَحْتَاجُونَهُ من النَفَقَاتِ
وَالزَّادِ ، وَوَصَّى بِهِمْ .

وَأَقْلَعُوا من دِمِيَاطَ في بَطْطَسَةٍ من بَطْطَسِ الإفرنج ^(١) ، فَلَمَّا دَنَوْا من عَسْكَرِ
وَالْمَلِكِ — لا رَحِمَهُ اللهُ — فِيهَا ، نَفَذَ قَوْمًا في مَرْكَبٍ صَغِيرٍ ، كَسَرُوا
البَطْطَسَةَ بِالْفُؤُوسِ ، وَأَصْحَابِي يَرُونَهُمْ ، وَرَكِبَ وَوَقَفَ عَلَى السَّاحِلِ ،
— وَ — نَهَبَ كُلَّ مَا فِيهِ !

فَخَرَجَ إِلَيْهِ غلامٌ لي سَبَاحَةً ، وَالْأَمَانُ مَعَهُ ، وَقَالَ لَهُ : مَا هَذَا أَمَانُكَ ؟
قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنْ هَذَا رَسْمُ المُسْلِمِينَ : إِذَا انْكَسَرَ لَهُمْ مَرْكَبٌ عَلَى بِلَدٍ ،
نَهَبَهُ أَهْلُ ذَلِكَ الْبِلَدِ ! قَالَ : فَتَسْبِيحُنَا ؟ قَالَ : لَا .

وَأَنْزَلَهُمْ — لَعَنَهُ اللهُ — فِي دَارٍ ، وَفَتَشَ النِّسَاءَ ، حَتَّى أَخَذَ كُلَّ مَا مَعَهُمْ ،
وَقَدْ كَانَ فِي الْمَرْكَبِ حُلِيٌّ أَوْدَعَهُ النِّسَاءَ ، وَكِسَوَاتٌ وَجَوَاهِرٌ وَسِیُوفٌ وَسِلَاحٌ
وَذَهَبٌ وَفِضَّةٌ ، بَنَحَوْا مِنْ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَأَخَذَ الْجَمِيعَ ، وَنَفَذَ لَهُمْ
خَمْسَ مِائَةِ دِينَارٍ ، وَقَالَ : تَوَصَّلُوا بِهِذِهِ إِلَى بِلَادِكُمْ ، وَكَانُوا رِجَالًا وَنِسَاءً فِي
خَمْسِينَ نَسَمَةً .

وَكُنْتُ إِذْ ذَلِكَ مع المَلِكِ العادلِ فِي بِلَادِ المَلِكِ مَسْعُودَ : رَغْبَانَ وَكَيْسُونَ ^(٢) ،
فَهَوَّنَ عَلَيَّ سَلَامَةً أَوْلَادِي وَأَوْلَادَ أَخِي حِرْمَانَ مَا ذَهَبَ مِنَ الْمَالِ ، إِلَّا مَا
ذَهَبَ لِي مِنَ الْكِتَابِ ! فَانْهَا كَانَتْ أَرْبَعَةَ آلَافٍ مَجْلَدٍ مِنَ الْكِتَابِ الْفَاخِرَةِ ،

(١) البطسة : المركب ، وهي كلمة غير عربية .

(٢) الملك مسعود : سلطان قونية آنذاك . ورغبان وكيسون اسما بلدين من بلاده .

فانَّ ذهابها حَزَّازَةٌ في قلبي ما عِشْتُ ! فهذه نكبات ترزعزع الجبال ، وتُسْفِني الأموال ، والله سبحانه يعوِّض برحمته ، ويختم بلطفه ومغفرته .

١٢٧ — وقال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في « مناقب الإمام أحمد » ص ٢٩٧ : « لما وقع الغرقُ ببغداد سنة أربع وخمسين وخمسة مئة ، غَرِقَتْ كُتُبِي ! وسَلِمَ لي مجلِّدٌ فيه ورقتان بخط الإمام أحمد ! » .

١٢٨ — وقال الحافظ السخاوي في « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » ٦ : ١٠٥ في ترجمة الإمام الحافظ (عُمَرُ بن علي بن أحمد الوادي آشي) الشهير بابن المُلَقِّن ، المولود بالقاهرة سنة ٧٢٣ والمتوفى بها سنة ٨٠٤ رحمه الله تعالى ، وقد بلغت مؤلفاته نحو ثلاث مئة مصنف ، قال السخاوي :

« قال شيخنا — أي الحافظ ابن حجر — : وكان عنده من الكتب ما لا يدخل تحت الحصر ، ثم إنها احترقت مع أكثر مسوداته في أواخر عمره ، فقُتِلَ أكثرها ! وتغيَّر حاله بعدها ! فحَجَّبه ولده إلى أن مات . وقال شيخنا أيضاً — الحافظ ابن حجر — في « معجمه » : إنه قبل احتراق كتبه كان مستقيمَ الذهن . ولما احترقت كتبه أنشده شيخنا من نظمه مخاطباً له :

لا يُزْعِجَنَّكَ يَاسِرَاجُ الدِّينِ إِن لَعِبْتَ بِكُتُبِكَ أَلْسُنُ النَّيرانِ
للهِ قد قَرَّبَتْهَا فَتَقَبَّلَتْ والنَّارُ مُسْرِعَةٌ إِلَى الْقُرْبَانِ .

١٢٩ — وقال الحافظ المتقنُ محدِّث حلب سبطُ ابن العجمي في كتابه « الاغتباط بمعرفة من رُمِيَ بالاختلاط » ص ١٩ : « عُمَرُ بن علي بن أحمد الوادي آشي ، شيخنا الحافظ الشهير بابن المُلَقِّن ، اختلط قبل موته — فيما بلغني — بسبب احتراق كتبه » . انتهى ..

١٣٠ — وقد وقع لشيخنا الإمام محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى ، في كهولته غرقٌ أشرفَ فيه على الموت لولا أن الله أحياه ، وذهب منه في

غرقه هذا عددٌ من نفائس المخطوطات كان يصحبها معه في سفره وحضره لنفاستها وتعلقه بها ، فكان دائم الحسرة عليها طول عمره .

وذلك أنه في سنة ١٣٣٦ كان في بلدة قَسْطَمُونِي ، وأراد العودة إلى إصطنبول ، وكان الوقت شتاءً ، ولا يمكن السفر إليها بالبر لكثرة الثلوج ، فركب طريق البحر ، حتى إذا ما وصل إلى ميناء أَرِيْلِي ، استقلَّ قارباً للذهاب إلى (أقتشهر) ميناء بلدته (دُوَزْجَة) لزيارة أهله فيها .

ولما قارب ساحل مدينة (أقتشهر) هاج البحر وانقلب بهم القارب ، ولكنهم ظلوا متمسكين به ، فما كان من اثنين على الشاطئ إلا أن نزلوا إلى الماء ، وسبّحا ومعهما الحبال الطويلة ، فربطوا القارب وعادا بالحبال إلى من في الساحل لجذبه ، وأثناء جذبه اشتدت الأمواج حتى أفلتت القارب من أيديهم ، وعاد القارب إلى وسط البحر ، وغرق الشيخ في قلب الأمواج !

ثم هدأ البحر قليلاً فأنقذوا الغرقى ، ولم يعرف الشيخ أحدٌ من معارفه لشدة ما تحمل من البرد ومقاومة الأمواج ، وهم يرونه في عداد الأموات ، ولكن أحد الشيوخ قال : اضربوه على رجليه ، ونكسوا رأسه ليستفرغ الماء من جوفه ، فان كان فيه حياة يُحييه الله تعالى . ومضت مدة طويلة والشيخ كذلك ، فاذا به تعود له الحركة والحياة رويداً رويداً ، ثم عاد إلى حالته العادية بعد أيام طويلة .

وكان معه حين غرقه مجموعة من أنفس المخطوطات ، منها ما هو من مخطوطات القرن السادس ومنها ما هو من القرن السابع ، وكانت من عيون الذخائر ، بلغ به الحرصُ عليها أن يستصحبها حيث سافر ، وكان من بينها مجموعة رسائل فيها كتابٌ في (مناقب أبي حنيفة) لابن حجر الهيتمي غير المطبوع ، وكتابٌ (عقيدة الطحاوي) ، بخط ابن العديم وهو معروف بإجادة الخط المنسوب وعليها تسميعات متوالية ، ونفائس وذخائر غيرهما ذهبَتْ مع الماء ! وبقي الشيخ يتحسّر عليها طوال حياته رحمه الله تعالى .

١٣١ — وقال أبو جعفر أحمد بن يوسف البغدادي المصري الكاتب المتوفى سنة ٣٤٠ ، في كتابه « المكافأة » ص ١١٩ : « وحدثني شجاع بن أسلم الحاسب قال : قلت لسند بن علي : من كان سببناك إلى المأمون حتى اتصلت به وكنت من جلسائه من العلماء ؟ فقال : أحدثك به :

كان والدي يتكسبُ بصناعة أحكام النجوم مع قومٍ من أسباب الساطن يودونه ويحبونه ، وتعلق قلبي بعد فراغي من قراءة كتاب « أقليدس » ، بكتاب « المجسطي » ، ^(١) وكان في أيام المأمون بسوق الوراقين رجل يعرف بمعروف ، يورقُ هذا الكتاب — أي يسهيئ ورقة ويكتبه فيه — ويبيعه بعد تكامل خطه وأشكاله وتجليده بعشرين ديناراً ، فسألت والدي ابتاعه لي ، فقال : أنظرني يا بُني إلى أن يتهيأ لي شيء آخذه إماماً من رزق ، وإماماً من فضل ، وأبتاعه لك .

وكان لي أخ لا يشتهي مما تقدمت أنا فيه من العلم شيئاً ، إلا أنه كان يخدم أبي في جوائجه والإشفاق عليه .

فلما سوفني أبي بالكتاب ، وطالت المدة فيه ، ركبته معه لأُمسك دابته في دخوله إلى من يدخل إليه ، ولي إذ ذاك سبع عشرة سنة ، فخرج إليَّ غلمانٌ من كان عنده فقالوا : انصرف ، فقد أقام أبوك عند مولانا ، فمضيت

(١) جاء في « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون » لحاجي خليفة ١ : ١٣٧ قوله : « أقليدس في أصول الهندسة والحساب . وهو بضم الهمزة وكسر الدال وبالعكس ، لفظ يوناني مركب من (أقلي) بمعنى المفتاح ، و (ديس) بمعنى المقدار . وقيل : الهندسة أي مفتاح الهندسة » . انتهى .

وفي « المعجم الوسيط » ٢ : ٨٦١ « المجسطي : كتاب قديم في الهندسة والفلك ، وضعه بطليموس الفلكي المصري حوالي سنة ١٤٠ ميلادية ، وترجم إلى العربية في عهد المأمون ، وعُدَّ حجة في بابه » . انتهى . ونحوه في « كشف الظنون » ٢ :

بالدابة فبِعَتُّهَا بِسَرِّجِهَا وَلِجَامِهَا بِأَقْلَ من ثلاثين ديناراً .

ومضيتُ إلى معروف فاشتريتُ الكتابَ بعشرين ديناراً ، وكان لي بيت أخلو فيه ، وجئتُ إلى أمِّي فقلتُ لها : قد جَنَيْتُ عليكم جناية ، واقتَصَصْتُ القِصَّةَ عليها ، وحلفتُ لها إن شَحَذْتَ أبي عليَّ حتى يمنعني من النظر في الكتاب ، لأخرجُنَّ عنهم إلى أبعد غاية ، ورَدَدْتُ عليها فضلَ ثمن الدابة ، وقلتُ لها : أنا أغْلِقُ بابَ هذا المنزل الذي لي ، وأَرْضِي منكم برغيفٍ يُلقَى إليَّ كما يُلقَى إلى المحبوس ، إلى أن أقرأه جميعاً ، فتَضَمَّنَتْ لي بتسكينٍ فَوَرَّتِهِ .

ودخلتُ البيتَ وأغلقته من عندي ، فمضى أخِي إلى والدي في الموضع الذي كان فيه فَأَسَرَّ إليه الخبر ، فتغيَّر وجهه ، وتلجلج في حديثه ، فقال له من كان عنده : قد شَغَلَتْ قلبي وقلوبَ من حضَرَ بما ظهر منك ، فبحقِّي عليك إلا أخبرتنا بماذا ؟ فحدَّثته أبي ، فقال الرجل : هذا والله يَسْرُنَا في ولدك ، فاتَّعِدْ فيه بكل جميل ، ثم استحضِر من إسْطِبله بَغَلاً أَفْرَةً من بَغْلِ أبي ، وسَرَّجاً خيراً من سَرَّجِهِ ، وقال لأبي : اركب هذا البغل ولا تُكَلِّم ابنَكَ بحرف .

قال سَنَدٌ : وأقمتُ ثلاثَ سنينَ كيوم واحد ، لا يَرَى لي أبي صورةَ وجهه ، وأنا مُجِدٌ حتى استكملتُ كتابَ المِجَسْطِي ، ثم خَرَجْتُ وقد عملتُ أشْكَالاً مُستَصْعَبَات ، ووضعتُها في كُفِّي ، وسألت : هل للمهندسين والخُصَّاب موضعٌ يجتمعون فيه ؟ فقل لي : لهم مجلس في دار العباس بن سعيد الجوهري تَرَبُّبُ المأمون ، يجتمع فيه وجوه العلماء بالهيئة والهندسة ، فحضرتهُ فرأيتُ جميعَ من حضَرَ مشايخَ ولم يكن فيهم حَدَثٌ غيري ، لأنِّي كنتُ في العشرين .

فقال العباس : من تكون وفيهم نظرت ؟ فقلت : غلامٌ يُحِبُّ صناعة الهندسة والهيئة ، قال : ما قرأت ؟ قلت : « أُقْلِيدِس » « والمِجَسْطِي » ،

قال : قراءة إحاطة ؟ قلت : نعم ، فسألني عن شيء مستصعب في كتاب « المجسطي » كان تفسيره في الأوراق التي كانت في كُمِّي فأجبت ، فعجب وقال : من أفادك هذا الجواب ؟ قلت : استخرَجْتُهُ قريحتي وما سمعته من غيري ، وهو وغيره فيما سرَّ بي في ورق معي ، قال : هاته ، فلما رآه اغتاظ واضطرب ، ثم قال لبعض مَنْ بين يديه من غلمانِه : « السَّفَطُ » ، فجيء به ، فنظر إلى خاتمه فوجده بحاله ، ثم فضَّه وأخرج منه كراسة ، فجعلَ يقابل بها الورق الذي كان معي ، فكان الكلام فيما معه أحسن رَصْفًا من الكلام الذي معي ، والمعنى واحد .

فقال : هذا شيء تولَّيتُ تبينه من كتاب « المجسطي » ، فلما أحضر تنبيه توهَّمتُ أنه سُرق مني ، حتى تبينَّ اختلافَ اللفظين مع اتفاق المعنى . ثم أمرَ أن يُقطعَ لي أقبيسة ، ويُرْتادَ لي مِنطقة مذهبة ، ففرَّغ من جميع ذلك في تلك الليلة ، وأدخلَ بي إلى المأمون ، وأمرني بملازمته ، وأجرى لي أنزلاً ورزقاً .

١٣٢ — ونقل أستاذنا العلامة المؤرخ المحدث الأديب الشيخ راغب الطباخ رحمه الله تعالى ، في كتابه « إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » ٧ : ٣١٥ ، في ترجمة علامة حلب في عصره الشيخ (أحمد الحجَّار) ، المتوفى سنة ١٢٧٧ رحمه الله تعالى :

أنه « كان يحب اقتناء الكتب ، حتى سمعنا أنه رأى كتاباً يباع ، ولم يكن معه دراهم ، وكان عليه ثياب فنزع بعضَها وباعه ، واشترى الكتاب في الحال . وبلغت قيمة مكتبته بعد موته ٤٠ ألفاً ، مع أنها بيعت بغير أثمانها ! » ^(١) .

١٣٣ — وقال العبد الضعيف مؤلف هذه (الصفحات) : كنت في أيام

(١) ليس في هذا الخبر ولا الخبر الذي قبله ويليه فقد الكتب أو تلفها... كالأخبار السابقة، وإنما فيها بيع الثوب والركوبة من أجل الحصول على الكتاب ، فهو قريب من ذلك .

الطلب والتحصيل مملقاً كأكثر طلبة العلم ، وكنت أشتري من الكتب ما أستطيع شراؤه بالاقتطاع من نفقتي الضيقة ، بالنقد الحاضر أو بالدين الآجل إذا أمكن .

وعَرَضْتُ لي يوماً بعضُ كتب نادرة تهمني جداً ، ورغبتُ في اقتنائها ، ولكنني كنت في إملاق شديد فلا سبيل إلى شرائها ! وقلِقَ قلبي وخاطري من جرّاء ذلك ، فبيعتُ (شالتي) التي ورثتها من أبي رحمه الله تعالى في (سوق الحراج) ^(١) ، واشتريت تلك الكتب ، وأرحتُ قلبي وخاطري ، وفرحتُ باقتنائها ووصولي إليها فرحاً عظيماً أنساني فقد (الشالة) والحمد لله .

و كنت في بعض الأحيان أنذرُ الله تعالى صلاةَ كذا وكذا ركعةً ، إذا حصلتُ على الكتاب الفلاني . ووقعَت لي واقعة في شأن الحصول على كتاب ، أسجلُها هنا لظرافتها :

لما كنتُ في القاهرة أيام دراستي في كلية الشريعة بالجامع الأزهر ، أوصاني شيخنا العلامة الإمام محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى ، خلال ملازمتي له باقتناء كتاب « فتح باب العناية بشرح كتاب النُقاية » للعلامة الشيخ علي القاري ، وخصّني على الحصول عليه حصّاً أكيداً وكثيراً ، مع علمه أني من هواة الكتب النادرة النافعة . وكنت أظن أنه مطبوع في الهند ، وقد مكثت في القاهرة ست سنوات حتى لإنهاء دراستي أسأل عنه ، وأنشده في كل مكتبة أقدرُ وجوده فيها ، فلم أظفر منه بخبر ولا أثر .

ولما عدت إلى بلدي حلب ، ما فتئتُ أبحث عنه أيضاً في كل بلد أزوره أو مكتبة أرتادها ، ولما كنت أظنه مطبوعاً في الهند ، وكان هو من كتب فقه السادة الحنفية ، كنت أسأل الكتبيين عن مطبوعات الهند في الفقه الحنفي عامة ،

(١) الشالة والشال : قطعة نسيج رفيف من الصوف الناعم الرفيع النفيس الملون ، ذات خطوط ونقوش ملونة جميلة ، تصنع في بلاد العجم (إيران وما جاورها) . وكانت تعرف في بلادنا باسم (الشال العجمي) ، ويلبسها الرجال فيلبسها لابسها حزاماً على وسط الثوب العربي المفتوح ، وتوضع الصغيرة منها على العنق في الشتاء لدفع البرد .

لعلي أصل إليه بهذه الطريقة ، إذ قد يجهلون اسمه ، وكان في دمشق كُتّيبون قدماء خبراء في الكتب القديمة والنفيسة ، وعندهم من قديمها ونفيسها الكثير ، ولكنهم يغالون به ويتشددون في بيعه ، منهم السيد عزت القصيباتي ووالده ، والشيخ حمدي السفرجلاني ، والسيد أحمد عبيد .

فسألت السيد عزت القصيباتي عن « فتح باب العناية » على أنه من مطبوعات الهند ، فقال : هو عندي ، وأخرج لي كتاب « البناية بشرح الهداية » للإمام العيني ، المطبوع في الهند من مئة عام سنة ١٢٩٣ ، في ست مجلدات ضخام كبار جداً ، وكان هذا الكتاب أحد الكتب النادرة النفيسة التي أبحث عنها ، فاشتريته بثمن غير مغالى فيه ، إذ كان غير الكتاب المطلوب الذي سميته له .

ثم سألت الشيخ حمدي السفرجلاني رحمه الله تعالى عن الكتاب ، فعلمت منه أنه مطبوع في قزان من بلاد روسيا ، وأنه أندر من الكبريت الأحمر كما يقال ، وأنه طول حياته واشتغاله بالكتب ما مرّ به منه سوى نسخة واحدة ، كان قد باعها للعلامة الكوثري بأعلى الأثمان التي لا تعقل ، فعند ذلك تعيّن عندي البلد الذي طُبِعَ فيه الكتاب ، وضعف أهلي بالحصول عليه !

ولما أتاح الله لي حج بيته الكريم عام ١٣٧٦ ، ودخلت مكة المكرمة : طفقت أسأل عنه في مكباتها ، لعلي أجده قادماً مع أحد المهاجرين من تلك البلاد إلى بلد الله الحرام ؟ فلم أوفق لذلك .

ثم سافقتني عناية الله تعالى إلى كُتّيب قديم منزوٍ في بعض الأسواق المتواضعة في مكة المكرمة ، وهو الشيخ المصطفى بن محمد الشنقيطي سلمه الله تعالى ، فاشتريت منه بعض الكتب ، وسألته - على يأْس - عنه ، فقال لي : كان عندي من نحو أسبوع ، اشتريته من تركة بعض العلماء البخاريين ، وبعته لرجل من بخاري من علماء طشقند بثمن كريم ، فما كدت أصدقه حتى جعل يصفه لي وصفاً مثبتاً لمعرفته به ، وأنه الكتاب الذي ألوبُ عليه وأسعى منذ دهرٍ إليه ! فقلت : من هذا العالم الطشقندي الذي اشتراه ؟ فجعل يتذكره تذكراً

ويسميه لي : (الشيخ عناية الله الطشقندي) . فقلت : أين مسكنه أو محل عمله أو ملته ؟ قال : لا أدري عن ذلك شيئاً ، فقلت : كيف أسأل عنه ؟ قال : لا أدري ، فازددت عند ذلك يأساً من الحصول عليه أو لقاء مشتريه !

فذهبتُ بعد هذا أسأل عن (الشيخ عناية الله) كلَّ بخاري أراه في المسجد الحرام أو في أسواق مكة ، وصرتُ أذهب إلى المدارس والربط التي يقال لي : فيها بخاريون ، لأسأل عن هذا الشيخ البخاري ، حتى ذهبتُ إلى الأحياء الواقعة خارج مكة ، إذ قيل لي : فيها بعضُ البخاريين ، ولكن هيهات اللقاء بالمنشود عنه ؟ ! وكم في مكة المكرمة من البخاريين الذين يُسمَّون : عناية الله ؟

ثم أوصلني السؤال المتتابع إلى الشيخ عبد القادر الطشقندي البخاري الساعاتي رحمه الله ، في جهة حي جرَّوَل من أطراف مكة ، فسألته عن الشيخ الطشقندي ، فعرفه وعيَّن لي اسمه : (الشيخ ميسر عناية الطشقندي) ، ولكن لا علم له بمستقره وملتقاه ، فعند ذلك غلبني اليأس من لقاء هذا الشيخ الذي عنده « فتح باب العناية » ! فصرت في أثناء طوافي حول الكعبة المعظمة زادها الله تشریفاً وتعظيماً : أطلبُ من الله تعالى أن يرشدني إلى ذلك الإنسان ، وييسر لي اقتناء هذا الكتاب ، وصرتُ أكرِّرُ هذا الدعاء والطلب مراتٍ تلو مراتٍ ، ومضى أسبوع وأنا - عليم الله - في تشتتٍ بالٍ من حال البحث عن الكتاب وصاحبه .

حتى كنت يوماً أمشي في سوق باب زيادة من أبواب المسجد الحرام ، فرآني تاجر دمشقي قديم في مكة المكرمة ، يقال له : أبو عَرَب ، كان له متجر هناك قبل توسعة الحرم ، فدعاني إلى متجره لما رآني شامياً السَّحْنَةَ والمظهر ، يسئالني عن الشام وأهلها ، فسألته من شدة هوسِي بالكتاب - وهو تاجر دمشقي شامي - عن الشيخ البخاري ؟ ! فقال لي : هذا ختَنُه زوج ابنته في الدكان الذي أمامي ، وهو أعرف الناس به ، فوالله ما كدتُ أصدق ذلك فرحاً وسروراً .

فذهبتُ إلى ختَنه وسألته عنه ، فاستغرب قائلاً : ما الذي يدعوك للسؤال

عنه ولقائه ؟ قلت : صار لي أكثر من أسبوع وأنا دائب البحث عنه ، فدُلّني عليه جزاك الله خيراً ، فأرشدني إلى منزله بالتعيين في حي المِسْفَلَة ، جوار قهوة السَّقِيْفَة ، فذهبت إليه مرة بعد مرة ليلاً ونهاراً حتى لقيته ، فتنازل لي عن الكتاب بالثمن الذي اختار وأحب ، فكانت عندي فرحة من فرحات العمر . وقد مَنَّ الله علي بنشر الجزء الأول من هذا الكتاب محققاً ، وأسأل الله تعالى أن يَمُنَّ عليّ بنشر باقي الكتاب بفضلله وكرمه .

* * *

وأختم هذه الجوانب بذكر خبَرين جامعين ، اجتمعتَ فيهما جُلُّ الجوانب المتقدمة ، فلذا رأيتُ إيرادهما في آخر هذه الصفحات ، لدخولهما في أغلب الجوانب السابقة .

الخبَر الأول : خبر إبراهيم الحربي

١٣٤ — قال الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » ٦ : ٣١ ، وابن أبي يعلى في « طبقات الحنابلة » ١ : ٨٦ — ٨٨ ، وشمس الدين النابلسي في « مختصره » ص ٥١ و ٢٩٤ ، في ترجمة (إبراهيم بن إسحاق الحربي) المولود سنة ١٩٨ والمتوفى سنة ٢٨٥ ببغداد رحمه الله تعالى . وهو الإمامُ العَلَمُ في العلم والزهد والفقه والحديث والأدب واللغة ، قال الخطيب :

« قال إبراهيم الحربي : أفنيتُ من عمري ثلاثين سنةً برغيفين ، إن جاعني بهما أمّي أو أختي أكلت ، وإلا بقيتُ جائعاً عطشان إلى الليلة الثانية . وأفنيتُ ثلاثين سنةً من عمري برغيف في اليوم واليلة ، إن جاعني امرأتِي أو إحدى بنتي به أكلته ، وإلا بقيتُ جائعاً عطشان إلى الليلة الأخرى .

والآن أكلُ نصفَ رغيف وأربعَ عشرةَ تَمَرَةً إن كان بُرنياً ، أو نصفاً وعشرين إن كان دَقَلًا ، ومَرَضْتُ ابنتي فمَضَتْ امرأتِي فأقامت عندها شهرًا

فقام إفطاري في هذا الشهر بدرهم ودانقين ونصف ! ودخلت الحمام واشتريت لهم صابوناً بدانقين ، فقامت نفقة شهر رمضان كله بدرهم وأربعة دوانق ونصف .

قال أبو القاسم بن بكير : سمعت إبراهيم الحربي يقول : ما كنا نعرف من هذه الأطبخة شيئاً ، كنت أجيء من عشي إلى عشي وقد هيمت لي أمي باذئجانة مشوية ، أو لعققة بين - البين بكسر الباء : الشحم - ، أو باقة فيجل .

قال أبو علي الخياط المعروف بالميت : كنت يوماً جالساً مع إبراهيم الحربي على باب داره ، فلما أن أصبحنا قال لي : يا أبا علي قم إلى شغلك ، فإن عندي فيجلة قد أكلت البارحة خضرها ، أقوم أتغدي بجزرتها .

١٣٥ - ثم روى الخطيب البغدادي بسنده إلى أحمد بن سلمان النجّاد ، أحد المحدثين من السادة الحنابلة المتقدمين ، وأحد الفقهاء الفقراء الشاكرين رحمه الله تعالى « قال أحمد بن سلمان النجّاد القطيعي : أضقت إضاقة شديدة ، فمضيت إلى إبراهيم الحربي لأبشّه ما أنا فيه ، فقال لي : لا يضيق صدرك ، فإن الله من وراء المعونة ، وإني أضقت مرة حتى انتهى أمري في الإضاقة إلى أن عديم عيالي قوتهم !

فقلت لي الزوجة : هبّ أتي أنا وإياك نصبر ، فكيف نصنع بهاتين الصبيّتين ؟ فهات شيئاً من كتبك حتى نبيعه أو نرهنه ! فضمنت بذلك ، وقلت لها : اقترضي لهما شيئاً وأنظريني بقيّة اليوم والليلة .

وكان لي بيت في دهليز داري فيه كتي ، فكنت أجلس فيه للنسخ والنظر ، فلما كان في تلك الليلة إذا داق يدق الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : رجل من الحيران ، فقلت : ادخل ، فقال : أطفئ السراج حتى أدخل ، فكبيبت على السراج شيئاً وقلت : ادخل ، فدخل الدهليز فوضع فيه

صُرَّةٌ كبيرة ، وقال لي : إنا أصلحنا لصبياننا طعاماً ، فأحببنا أن يكون لك وللصبيان فيه نصيب ، وهذا شيء آخر ، فوضَعَه إلى جانب الصُرَّةِ الكبيرة وقال : تَصْرِفُه في حاجتك ، وأنا لا أعرف الرجل وتركني وانصرف .

فدعوتُ الزوجة وقلت لها : أَسْرِجِي السَّرَاجَ ، فَأَسْرَجَتْ وجاءت ، وإذا الصُرَّةُ مَسْدِيلٌ له قيمة ، وفيه خمسون وَسَطاً في كل وسط لونٌ من طعام ، وإلى جانب الصُرَّةِ كَيْسٌ فيه ألفُ دينار ، فقلتُ للزوجة : أنبهي الصبيان حتى يأكلوا ، ولما كان الغد قضينا دَيْنًا كان علينا من ذلك المال .

وكان وقتَ مجيء الحاجِّ من خُرَّاسان ، فجلستُ على باب داري من غَدَرِ تلك الليلة ، وإذا جمَّالٌ يقود جملين عليهما حملان رَزَقاً^(١) ، وهو يسألُ عن منزل إبراهيم الحربي ، فأنتهى إلي ، فقلت : أنا إبراهيم الحربي ، فحطَّ الحِمْلَينِ وقال : هذان الحملان أنفذَهما لك رجل من أهل خراسان ، فقلت : من هو؟ فقال : قد استحلَفَني أن لا أقول من هو .

قال أحمد بن سَلَمَانَ النجَّاد : فقممت من عند إبراهيم الحربي ، ومضيتُ إلى قبر أحمد فزُرْتُهُ ثم انصرفت ، فبينما أنا أمشي إلى جانب الخندق ، إذ لقيتني عجوز من جيراننا فقالت لي : مالك مغموماً؟ فأخبرتها ، فقالت : إن أمك قَبْلَ موتِها أعطتني ثلاثَ مِئَةِ درهم ، وقالت لي : أخبئي هذه عندك ، فاذا رأيت ابني مُضِيقاً مغموماً فأعطيه إياها ، فتعالَ معي حتى أعطيك إياها ، فمضيتُ معها فدفعَتُها إلي .

١٣٦ — وكان أحمد بن سَلَمَانَ النجَّاد هذا — كما حكى الخطيب في ترجمته في « تاريخ بغداد » ٤ : ١٩١ — يصوم الدهر ، ويفطر كل ليلة على رغيف ، ويترك منه لقمة ، فإذا كان ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف ، وأكَل تلك اللقم التي استفضلها .

(١) الرزق : ما ينتفع به ، والجمع أرزاق ، كما في « لسان العرب » .

١٣٧ - ثم ساق الخطيب البغدادي بسنده إلى أبي القاسم بن الحَبَّال قال : « اعتلَّ إبراهيم الحربي علّة حتى أشرف على الموت ، فدخلتُ إليه يوماً فقال لي : يا أبا القاسم : أنا في أمرٍ عظيمٍ مع ابنتي ، ثم قال لها : قومي اخرجي إلى عمّك ، فخرجتُ وألقتُ على وجهها خمارها ، فقال لها إبراهيم : هذا عمّك كلّميه ، فقالت لي :

يا عمّ نحن في أمرٍ عظيمٍ ! لا في الدنيا ولا في الآخرة ! الشهر والدهر ما لنا طعام إلا كِسْرٌ يابسة ومِلْح ، وربما عدّ منا المِلْح ! وبالأمس قد وجه إليه المعتضدُ مع بَدْرٍ ألفَ دينار فلم يأخذها ! ووجه إليه فلان وفلان فلم يأخذ منهما شيئاً ! وهو عليل !

فالتفتَ إبراهيمُ إليها وتبسّم فقال لها : يا بُنَيّة إنما خفت الفقر ؟ ! قالت : نعم ، فقال لها : انظري إلى تلك الزاوية ، فنظرتُ فإذا كُتُبٌ ، فقال : هناك اثنا عشر ألفَ جزءٍ لغةٍ وغريبٍ ، كتبتها بخطّي ، إذا ميتٌ فوجهي كلَّ يومٍ بجزءٍ تبّيعينه بدرهمٍ ، فمن كان عنده اثنا عشر ألفَ درهمٍ فليس هو بفقر ! » .

ثم ساق الخطيب البغدادي بسنده وابنُ الجوزي في « مناقب الإمام أحمد » ص ٥٠٨ بسنده أيضاً إلى أبي عمران الأشيب قال : « قال رجل لإبراهيم الحربي : كيف قويتُ على جمع هذه الكتب ؟ فتغضبَ إبراهيم الحربي وقال : قويتُ عليها بلحمي ودمي ! بلحمي ودمي ! » .

١٣٨ - قال عبد الفتاح : إذا عرفنا تعلّق الحربي بكتبه وكيف جمّعها بلحمه ودمه ، فكيف يُعقّل أن يستجيب لزوجته حين قالت له كما سبق : « هات شيئاً من كتبك حتى نبهه أو نرهنه » . فكتبُ العالم (خلاياه) التي يعيش بها ، والعالمُ يسبّعُ ثيابه ، ولا يسبّعُ كتابه . وقد قال الزمخشري في كتابه « نوابغ الكلم » : مَجْدُ التاجر في كيسه ، ومَجْدُ العالم في كراريسه . والكتبُ عند النساء هي الضرائر المضارّة ، فأول ما تمسّهن الضائقة يتجه

تفكيرهن إلى بيعها وإخراجها من البيت ، والكتب عند العلماء هي الإخوان والأعوان ، فاذا مستتهم الضائقة صبروا على الجوع والعُري والفقر ، ولم يصبروا على فراق الكتب وإخراجها !

الخبر الثاني : خبر محمد بن طاهر المقدسي

١٣٩ — جاء في ترجمة (الحافظ المحدث الجوال محمد بن طاهر المقدسي) المولود في بيت المقدس سنة ٤٤٨ ، والمتوفى سنة ٥٠٧ ، جاء في ترجمته الملحقمة بآخر كتابه « الجمع بين رجال الصحيحين » ص ٦٣٣ ما يأتي :

« قال السمعاني : سمعتُ بعضَ المشايخ يقول : كان محمد بن طاهر يمشي في ليلةٍ واحدةٍ قريباً من سبعة عشر فرسخاً^(١) ، وكان يمشي على الدوام بالليل والنهار عشرين فرسخاً ، وكان داوُدِي المذهب — أي ظاهري المذهب — ، وهو أحدُ الرحّالين في طلب الحديث .

سمِعَ الحديثَ بمصر والثغور الشامية وببلاد الشام والحجاز والجزيرة والعراق وفارس وخراسان والإسكندرية وتينيس وبيت المقدس ودمشق وحلب ومكة وبغداد وأصبهان وجرجان ، وأميد ونيسابور وهراة ومرو ، وما أظن أحداً رحلَ في عصره مثل رحلته ، وكتب بخطه كثيراً من الكتب والمصنّفات الكبار والمسانيد والأجزاء المنثورة .

قال الحافظ السلفي : سمعت الحافظ محمد بن طاهر المقدسي يقول : كتبتُ « صحيح البخاري » و « مسالم » و « أبي داود » سبعَ مرات بالوراقة أي بالأجرة ، وكتبتُ « سنن ابن ماجه » عشرَ مرات بالوراقة ، سوى التفاريق بالري .

قال محمد بن طاهر : بُلْتُ الدَّمَّ في طلب الحديث مرّتين : مرةً ببغداد ، ومرةً بمكة ، وذلك أني كنت أمشي حافياً في حرّ الهواجر بهما فلَحِقَنِي ذلك !

(١) الفرسخ يزيد على خمسة كيلو مترات .

وما ركبْتُ دابَّةً قط في طلب الحديث إلا مرة ، وكنتُ أحملُ كَتَبِي على ظهري ، إلى أن استوطنتُ البلاد ، وما سألتُ في حال طلبِي أحداً ، وكنتُ أعيش على ما يأتيني من غير سؤال .

ورحلتُ من طُوس إلى أصبهان لأجل حديث أبي زُرعة الرازي ، الذي أخرجه مسلم في « الصحيح » ، ذاكرَني به بعضُ المحدثين الرحالة بالليل ، فلما أصبحتُ شددتُ على رحلي وخرجتُ إلى أصبهان ، ولم أحلُ عنه حتى دخلتُ على الشيخ أبي عَمْرٍو ، فقرأته عليه عن أبيه عن أبي بكر القطان عن أبي زُرعة ، ودفعَ إليَّ أبو عَمْرٍو ثلاثةَ أرغفة وكمشَّراتين ، وما كان وقع إليَّ تلك الليلةَ قووتي ، ولم يكن لي قُوتٌ غيره ، ثم لزمته إلى أن حصلَ ما كنتُ أريد ، ثم خرجتُ إلى بغداد ، فلما عدتُ إلى أصبهان كان قد توفِّي رحمه الله تعالى .

وكنتُ يوماً أقرأ على أبي إسحاق الحبال بمصر « جزءاً » ، فجاءني رجل من أهل بلدي من بيت المقدس ، وأسرَّ إليَّ كلاماً قال فيه : إنَّ أخاك قد وصلَ من الشام ، وذلك بعد دخول الأتراك بيت المقدس وقتل الناس بها ، فأخذتُ في القراءة فاختلطتُ ولم يُمكنني أن أقرأ ! فقال لي أبو إسحاق : مالك ؟ قلتُ : خير ، قال : لا بُدَّ أن تُخبرني ما قال لك هذا الرجل ، فأخبرته فقال لي : وكنم لك لم ترَ أخاك ؟ قلتُ : سنيين ، قال : ولم لا تذهبُ إليه ؟ قلتُ : حتى أتمَّ « الجزء » ، فقال : ما أعظم حرصكم يا أصحاب الحديث ؟ ! قد تمَّ المجلسُ وصلى الله على محمد ، وانصرف .

وأقيمتُ بتينيس مدةً على أبي محمد بن الحدَّاد ونظرائه ، فضاقتُ بي ، ولم يبقَ معي غيرُ درهم ! وكنتُ في ذلك اليوم أحتاجُ إلى خبز وإلى ورق للكتابة ، فكنتُ أترددُ إن صرفته في الخبز لم يكن لي ورق للكتابة ، وإن صرفته في الورق لم يكن لي خبز ! ومضَى على هذا ثلاثةَ أيام ولياليهن لم أطعمُ فيها !

فلما كان بكرةَ اليوم الرابع قلتُ في نفسي : لو كان لي ورقٌ لم يمكنني أن أكتبَ فيه شيئاً لما بي من الجوع ، فجعلتُ الدرهم في فَمِي ، وخرجتُ

لأشترى الخبز ، فبلعتُ الدرهم ! ووقع عليّ الضحك ! فلقيني أبو طاهر بن خطاب الصائغ المواقيتي بتينيس وأنا أضحك ! فقال : ما أضحكك ؟ قلت : خير ، فألح عليّ وأبيتُ أن أخبره ، فحلفَ بالطلاق : لتَصْدُقَنِّي لم تضحك ؟ فأخبرته ، فأخذ بيدي وأدخلني منزله ، وتكلف لي في ذلك اليوم ما أطعمه .

فلما كان وقتُ الظهر خرجتُ أنا وهو إلى الصلاة ، فاجتمعَ به بعضُ وكلاءِ عاملٍ كان بتينيس يُعرفُ بابن قَادُوس ، فسأله عني فقال : هو هذا ، فقال : إنَّ صاحبي — أي أميرَ تينيس — أمَرَنِي أن أُوصلَ إليه كل يومٍ عشرةً دراهمٍ قيمتها رُبْعُ دينار ، وسهوتُ عنه ، فأخذَ منه ثلاثَ مئةٍ درهمٍ وجاءني وقال : قد سهَّلَ الله رزقاً لم يكن في الحساب ، وأخبرني بالقصة ، فقلتُ : يكونُ عندك ونكونُ على ما نحن عليه من الاجتماع إلى وقتِ خروجي ، فإنني وحدي ، وليس لي من يقوم بأمري ففعل ، وكان بعد ذلك يصلني ذلك القَدْرُ إلى أن خرجتُ إلى الشام . انتهى .

* * *

١٤٠ — هذه صَفَحَاتُ أو قَبَسَات من تاريخ العلماء ، وما لا قُوَّة من شدائدِ وأهوالٍ ومتاعبٍ في تحصيل العلم وتلقيه ، وقد بذلوا في سبيله المِهْجَ والأرواح كما رأينا ، وصبروا أشدَّ الصبر حتى نالوه ، فكانوا الأئمةَ الهداةَ لمن بعدهم ، فرحمةُ الله عليهم ورضوانه العظيم .

وقد استحسنتُ أن أورد في ختام هذه الأخبار ، عن أولئك الأخيار الأبرار ، قصيدةَ القاضي الجرجاني ، التي جمَعَ فيها ما ينبغي أن يكون عليه طالبُ العلم ، ليسمُوَ به عِلْمُهُ إلى أعلى المقامات ، ويتنبَّلَ قَدْرُهُ ، وينتفعَ الناسُ به .

١٤١ — وهو القاضي أبو الحسن عليُّ بن عبد العزيز الجرجاني ، الفقيه الأديب الشاعر المتوفى سنة ٣٩٢ ، صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبئ وخصومه » ، قال فيه الثعالبي وهو يصف كثرة تطوافه في تحصيل العلم من

البلدان — كما نقله عنه ابن خلكان في « الوفيات » ١ : ٣٢٤ — :

« وكان في صباه خلفَ الخَضِرَ في قَطْعِ الأرض وتدويخِ بلا دالعراق والشام وغيرهما ، واقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به في العلوم علماً ، وفي الكمال عالماً ، فهو فردُ الزمان ، ونادرةُ الفلك ، وإنسانُ حَدَقَةِ العلم ، وقُبَّةُ تاجِ الأدب ، وفارسُ عسكرِ الشعر ، مَجْمَعُ خَطِّ ابنِ مُقْلَةَ ، إلى نثر الجاحظِ ونظم البحري » .

١٤٢ — وقصيدته العصماء في وصف (العالم الأبي) مشهورة تناقلتها كتبُ الأدب وكتبُ الأخلاق والتعليم ، واختلفت في تعدادها وترتيبها وألفاظها ، وأوسع ما وقفتُ عليها فيه : « المضمون به على غير أهله » لعز الدين الزنجاني ، بشرح عبّيد الله بن عبد الكافي العبّيدي ، فقد أوردتها الزنجاني ٢٠ بيتاً ، وجاء في تعليقه بحاشية الشرح المذكور أنها تبلغ ٤٤ بيتاً ، فأنا أنقلها هنا من كتاب الزنجاني ص ٧ — ١٥ ، بزيادة البيت السادس عشر من كتاب « أدب الدنيا والدين » للماوردي ص ٤٧ ، مع تعديل في البيت ٣ و ١٩ أخذاً ببعض الروايات التي رأيتها — في غير هذين الكتابين — أكثر اتساقاً مع المعنى .

يقولون لي : فيك انقباضٌ وإنما	رأوا رجلاً عن موقف الذلِّ أحجماً
أرى الناسَ من دانا همُ هان عندهم	ومن أكرمته عزّةُ النفسِ أكرماً
ولم أقضِ حقَّ العلمِ إن كنتُ كلِّماً	بدا مطمَعٌ صيرتُه لي سلماً
وما زلتُ مُنحازاً بعيرُضي جانباً	عن الذلِّ أعتدُّ الصَّيانةَ مغنماً
إذا قيل : هذا منسهلٌ قلتُ : قد أرى	ولكنَّ نفسَ الحرِّ تَحتمِلُ الظُّمأ
أنزّهها عن بعض ما لا يشينها	مخافةَ أقوالِ العِدا : فيمَ أو لما ؟
فأصبحُ عن عيب اللّيمِ مسلماً	وقدرُحتُ في نفسِ الكريمِ معظماً
وإني إذا ما فاتني الأمرُ لم أبتُ	أقلِّبُ كَفِّي إثْرَهُ متندماً
ولكنه إن جاء عَفْوَاً قبيلته	وإن مالَ لم أتبعه : هلاً وليتما

وَأَقْبِضْ خُطُوتِي عَنْ حُظُوظِ كَثِيرَةٍ
وَأَكْرِمْ نَفْسِي أَنْ أَضَاحِكَ عَابِسًا
وَكَمْ طَالِبٍ رِقَّتِي بِشُعْمَاهُ لَمْ يَصِلْ
وَكَمْ نِعْمَةٍ كَانَتْ عَلَى الْحُرِّ نِقْمَةً
وَلَمْ أَبْتَدِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُسْهِجَتِي
أَشَقَّتِي بِهِ غَرَسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً
فَإِنْ قُلْتُ: زَنْدُ الْعِلْمِ كَابٌ، فَإِنَّمَا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانِهِمْ
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَتَّسُوا
وَمَا كُلُّ بَرَقٍ لَاحٍ لِي يَسْتَفْزِنِي
وَلَكِنْ إِذَا مَا اضْطَرَّنِي الضَّرُّ لَمْ أَبِتْ
إِلَى أَنْ أَرَى مَا لَا أَغْصُ بِذِكْرِهِ

إِذَا لَمْ أَتْلُهَا وَافِيرَ الْعِزِّضِ مُكْرَمًا
وَأَنْ أَتَلَقَّى بِالْمَدِيحِ مُدَمَّمًا
إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ الرَّئِيسَ الْمُعْظَمًا
وَكَمْ مَغْنَمٍ يَسَعِدُهُ الْحُرُّ مَغْرَمًا
لَا خِدْمَ مَنْ لَا قِيَتُ لَكِنْ لَا خِدْمًا
إِذَا فَاتَّبَعَ الْجَهْلُ قَدْ كَانَ أَحْزَمًا
كَبَا حِينَ لَمْ نَجْرُسْ حِمَاهُ وَأَظْلَمَا
وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لِعَظَّمَا
مُخَيَّاهُ بِالْأُطْمَاعِ حَتَّى تَجْهَتَمَا
وَلَا كُلُّ مَنْ لَا قِيَتُ أَرْضَاهُ مُنْعِمًا
أَقْلَبُ فِكْرِي مُنْجِدًا ثُمَّ مُشْهِمًا
إِذَا قُلْتُ: قَدْ أَسَادَى إِلَيَّ وَأَنْعَمَا



خاتمة

١٤٣ — وبعد فهذه نُبَيِّدُ سيرة من حياة علمائنا السابقين ، وآبائنا المتقدمين نُدْرِكُ منها : كيف كان عيشُ الكثيرين منهم ، يَتَدَثَّرُونَ الفقرَ ، وَيَلْتَحِفُونَ الطَّوْىَ ، وَيَأْكُلُونَ الْحَشِينَ وَالْقَلِيلَ عُدْمًا وَفَاقَةً ، مع إظهار التَّجَمُّلِ وَالْغِنَى . ويمتطون المصاعبَ والشدائدَ ، ويصبرون حتى يكادُ الصبرُ يتملصُ من مُصَابِرَتِهِمْ لَهُ ، كلُّ ذلك في سبيل العلم وتحصيله .

وكانوا يجمعون إلى ذلك في قرارة نفوسهم الرضا عن الله تعالى ، والحمد لله والشكر له سبحانه ، حتى كانوا القُدُوةَ الصالحةَ لمن بعدهم من طلبة العلم وأهله ، فرضي الله عنهم ، وجزاهم عن العلم والدين والإسلام خير الجزاء .

١٤٤ — وأخلصُ من هذا إلى بعض ما تفيدها هذه الصفحات ، من عِبَرٍ وَعِظَاتٍ ، فأقول : هذه وقائع لَدَلَّنا دَرَسُهَا ، وطاب لنا سَمْعُهَا ، وَعَظُّهَا لَدَيْنَا وَقَعُهَا ، وَتَحَمَّلَهَا آبَاؤُنَا بِصَبْرٍ وَرِضَا ، ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى ، وفي سبيل خدمة كتاب الله وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَعُلُومِهِمَا ، فَكَانَتْ عَطْرًا يُطَيِّبُ بِهِ تَارِيخُ الْعِلْمِ وَالْعِلْمَاءِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَيُشْنَفُ بِهِ سَمْعُ الزَّمَانِ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ :

أولئك آباؤني فجيئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرييرُ المسجَم

١٤٥ — شهدنا في هذه الصفحات أخباراً عن صبر العلماء وشدائد حياتهم وما لاقوه في سبيل العلم والتحصيل ، وليست هذه الصفحات على كثرتها إلا نزريراً يسيراً من تاريخهم في هذا الجانب ، وعلى قلة ما سمعنا أو قرأنا من أخبارهم ، نُدركُ مدى ما بذله علماء الإسلام في سبيل المعرفة والعلم ، ومدى ما تحمّلوه من شدائدٍ ومِحَنٍ وتضحيات ، فهذه باقيةٌ من مكارم الآباء ، تُهدى إلى كبرام الأبناء .

١٤٦ — شهدنا في هذه الصفحات : بطولات وتضحيات ، وعزائم نافذات ، وقعت من أناس متباعدي الديار ، مختلفي البيئات والأقطار ، فيهم العربي والعجمي ، والمشرقي والمغربي ، والشامي والمصري ، والخراساني والعراقي ، والأبيض والأسود .

وهي تُعرفنا أن ننبُلَ المقامات العلمية الرفيعة ، لا يقتصر على جنس دون جنس ، ولا بلد دون بلد ، ولا لون دون لون ، ولا عرق دون عرق ، ولا قوم دون قوم ، بل كل من جدَّ واجتهد ، ودأبَ واصطبر ، وتفرَّغ وأقبل : نال وارتفع بقدر جِدِّه ومَوَاهِبِهِ وفضلِ الله عليه . فالمقامات والمكارم العالية لا تُنال إلا بالاجتهاد والدأب ، ومتابعة الجِدِّ والطَلَب ، كما قال :

فَقُلْ لِمُرجِي مَعَالِي الْأُمُورِ رِ بغير اجتهاد: رَجَوْتَ الْمُحَالَا !

وقد وقعت منهم هذه الوقائع المتشابهة والمتوافقة ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وتباعُد أجناسهم وأوطانهم ، ولكن الناظر في أخبارهم لا يلمح لهذه المفارقات أي أثر ، ذلك لأن الإسلام هو الذي سَوَّاهم فأحسن تسوييتهم وصقلهم فوحد سيرتهم ، وكونتهم هذا التكوين الفريد العجيب ، ولسان حال كل واحدٍ منهم يقول :

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقبائس أو تميم

١٤٧ — شهدنا في هذه الصفحات أن مرحلة تحصيل العلم مرحلة صعبة

شاقة جداً، تنقطع دون بلوغها حيازيم الصبر، وتنحسر أمامها عزَمات الرجال، ولا يصبر على اجتيازها إلا الأفذاذ الأبطال، ممن كان مُغرماً بالعلم، ذائقاً لذته، عازماً على تحصيله ولو لقي في سبيله الألفي !

١٤٨ — شهدنا في هذه الصفحات رجال العلم وطُلابه يواجهون الفقر والإملاق تارة، والعُري والجُوع والعطش تارة أخرى، والعقبات والنوائب حيناً آخر، وشهدنا في هذه الصفحات بعض أئمة العلم والدين يُطالع العلم في الليل على ضوء سراج الحارس، لفقده المال لشراء زيت السراج! وشهدنا فيهم من يقنع بورق الكُرنب يعيش عليه في سبيل العلم، ولديه من العقل والذكاء ما لو صرّفه لتحصيل المال والغنى، لغنمير بالمال غنماً، ولكن من أغنى الناس يداً، ولكنه آثر الفقر على الغنى من أجل تحصيل العلم، وشهدنا فيهم من يقنع برائحة الخبز يشمّها يتغذى بها، ومن يتناول الأيام الطوال حشيش الأرض ومنبوذ القمامات يقتات به !

بل لقد جعل بعض أئمة العلم منهم الجُوع ونسيان الجوع في سبيل العلم : شرطاً لحصول لذّة العلم، فكان أبو الحسن المازني البصري (النضر ابن شُمَيْل) اللغوي المحدث الحافظ الإمام في العربية والحديث والأدب والشعر يقول : لا يجيد الرجل لذّة العلم حتى يسجوع وينسى جوعه. نقله الحافظ الذهبي في ترجمته في « تذكرة الحفاظ » ١ : ٣١٤

١٤٩ — شهدنا كل هذا وأمثاله ينتاب أولئك الرجال خدَمَة الشريعة والدين، فما وَتت هِمَمُهم، ولا استكانت عزائمهم، ولا اختلّت موازين الحق والعلم والدين بين أيديهم، بل كانوا أحرص الناس على دينهم، وأزعى الناس لأماناتهم، فما تأثروا بتلك الشدائد والأزمات التي تأخذ بالأنفاس والتلابيب، في آرائهم واستنباطاتهم وأحكامهم على غيرهم من الناس، أغنياء كانوا أو فقراء أصدقاء كانوا أو أعداء.

١٥٠ — شهدنا في هذه الصفحات : أن علوم الإسلام العظيم، لم تُدوّن

على ضيفاف الأنهار ، وتحت ظلال الأشجار والأثمار ، وإنما دُونَتْ باللحم
والدم وظمأ الهواجر ، وسَهَرَ الليالي على السراج الذي لا يكاد يُضيء نفسه ،
وفي ظِلِّ العُرْي والجُوع وبيع الثياب ، وانقطاع النفقة في بلد الاغتراب ،
والرحل المتواصلة المتلاحقة ، والمشاق الناصبة المتعانقة ، والصبر على أهوال
الأسفار ، وملاقاة الخطوب والأخطار ، والتيه في البسند والغرق في البحار ،
وفقد الكتب العزيزة الغالية والأسفار ، وحلول الأمراض والأسقام ، مع
البعد عن الأهل والدار ! فما أثر كل ذلك في أمانة علم أهلها ، وما نقص
من متانة دينهم ، وما وهن من قوّة شكيمتهم ، وما أخلّت خشونة
الغيشن القاسية فيهم ، بإحقاق الحق والعدل الذي بين أيديهم ، مع التفاني في
سبيله .

١٥١ - شهدنا من هذه الصفحات أن المكارم والمعالي ، منوطة بالمكاره
والمصاعب ، ومحفوفة بالعقبات الصعداء ، لا يُعْبَرُ إليها إلا على جسر من
المشقة والتعب ، ولا تقطعُ فيها فيها إلا على راحلة الجد والنصب ، وكما
قال الإمام يحيى بن أبي كثير : لا يُستطاعُ العِلمُ براحة الجسم . كما رواه عنه
الإمام مسلم في « صحيحه » ، في (باب أوقات الصلوات الخمس) ١١٣ : ٥ .

فمن طمحت نفسه إلى مراقبي هؤلاء الأئمة ، فواجبٌ عليه أن يسير على
المحجّة التي سلكوها ، ويخوض الغمرات التي خاضوها ، وهي في ابتدائها
لا تنفك عن ضروب المشقة والكراهية والتأذي ، ولكن متى أكرهت النفسُ
عليها ، وسيتبت طائعةً أو مكرهةً إليها : صبرت على لأوائها وشدّتها ،
واستلانت ما استوعره غير أبناء بجدتها ، وأفضت من رحلتها هذه إلى
رياض مؤنقة ، ومقاعد صدق رفيعة متألقة ، ومقام كريم ، ونعيم
مقيم ، تجد كل لذة كانت بلغتها قبل لذة هذا المقام : مثل لذة لعب
الصبي بالعصفور ، بالنسبة إلى لذات الملوك وأرباب القصور ، كما قال :

وَأَكُنْتُ أَرَى أَنْ قَدْ تَنَاهَيْتُ بِهِيَ الْهَوَى إِلَى غَايَةٍ مَا بَعْدَهَا لِي مَدَّ هَبْ

فلما تلاقَيْنَا وعَايَنَتُ حُسْنَهَا تَيَقَّنْتُ أَنِّي إِنَّمَا كُنْتُ أَلْعَبُ !

١٥٢ — شهدنا من هذه الصفحات : أن طالب العلم إذا بذلَ جهده في الطالب والتحصيل ، وتحملَ المشاقَّ والمتاعب ، وغالبَ الصَّعَابَ والعَقَبَات ، لَا يُخَيِّبُ اللَّهُ مَسْعَاهُ ، وَلَا يَهْضُمُ النَّاسُ حَقَّهَ ، وَلَا يَتَخَلَّفُ عَنْهُ التَّفَوُّقُ والنَّبُوخُ ، فالنبوغُ صبرٌ طويل . كما قال الهذلي :

وإنَّ سِيَادَةَ الْأَقْوَامِ فَاعَالِمٌ لَهَا صَعْدَاءُ مَسْطَلَعُهَا طَوِيلٌ^(١)

١٥٣ — رأينا في هذه الصفحات من بدأ حياته فقيراً مُعْزِزاً ، لَا يَسْمَلِكُ من الدنيا شيئاً ! فما اخضرَّ عِذارُه ، وطَرَ شاربُه إلا وهو الإمامُ المُقَدَّمُ في الأمَّةِ ، والمرجعُ الموثَّق عند الناس في دينهم وشريعتهم ، وقد فَتَحَتْ عَلَيْهِ أبواب الخير والرزق من كل جانب .

وهذه سُنَّةٌ مطَّردة في الحياة ، أنَّ « من كانت بدايته مُسْحَرَقَةً ، كانت نهايته مُسْحَرَقَةً » ، وأنَّ من جوَّدَ وأحكم ما يزاوله في أمر الدين أو أمر الدنيا نَجَحَ وأفلح ، فكيف بطالب العلم الذي تَضَعُ له الملائكةُ أَجْنَحَتَهَا رِضَاءً بما يصنع ، فان عون الله لَا يتخلف عنه ، بل ما أَسْرَعَهُ منه .

١٥٤ — شهدنا في هذه الصفحات دروساً في الصبر على الشدائد والمكاره والفقر والعُدْم والعُرْي والضيق ، فينبغي أن نتعلم منها : البُعْدَ عن النفاق والتماق إذا أُمْلِقْنَا ، فان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، ونتعلم منها : أن الصبر على الحق ، والتضحية في سبيله ، هي مفتاحُ العون الإلهي والإمداد السماوي للعالم الصالح .

(١) أي لها طريق عالية يشتد صعودُها على الراقي ، فلا تُبْلَغُ إلا بالدأب المتواصل والصبر الطويل .

١٥٥ — شهدنا في هذه الصفحات أن العِفَّة عن المال من يد الحُكَّام، سبب لاستنارة البصائر، وانبساط اللسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووضع القبول في الأرض، فالحلال الطيب القليل أَرْضَى الله، وأَبْرَكَ عَلَى صاحبه، وأَصْلَحَ فِي سلوكه، من الكثير المدخول.

١٥٦ — شهدنا من هذه الصفحات أن الذي يتعَفَّف عن الحرام أو المشبوه مع شِدَّة الحاجة والفقر، يُعَوِّضُهُ اللهُ الطيبَ الطاهرَ الحلال، فيأكل طيباً، ويقول طيباً، ويجعل الله في كلامه النفع والقبول، والخير المشير للناس، ويكون كلامه شفاءً للقلوب وبلسماً للأرواح.

١٥٧ — شهدنا من هذه الصفحات أن العلم يُذَكِّرُ أهله على وجه الدهر، ولو كانوا في حياتهم فقراء مُعْوِزِينَ، وإذا كان العُدْمُ لِحَقِيقَ بهم، فإنما لحِقَ بهم في مظاهر الحياة الماضية الزائلة، ولكنهم عاشوا بعد موتهم أغنياء بالذكر الحسن، والسيرة العظيمة، وكانوا القدوة الحسنة لمن بعدهم في التدرُّع بالصبر عند الشدائد، فلم يزلوا بذلك أحياء في الناس وإن ماتوا، ولم يَفُتْ التَخَافُ بِأَخْلَاقِهِم الحميدة وإن فاتوا:

جَمَالَ ذِي الْأَرْضِ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ وَهُمْ بَعْدَ الْمَمَاتِ جَمَالَ الْكُتُبِ وَالسِّيَرِ
وكما قال الآخر:

يَسْمُوتُ قَوْمٌ فَيُحْيِي الْعِلْمُ ذِكْرَهُمْ وَالْجَهْلُ يُلْحِقُ أَمْوَاتًا بِأَمْوَاتٍ!

١٥٨ — شهدنا في هذه الصفحات أن العلم الحق يأخذ الناس من عالمه وحافظه، دون تمييز بين أن يكون ذلك العالم من سادات البيوتات، أو من الموالى الذين أَعْتَقَتْهُمْ السادات، فالعلم في ذاته شَرَفٌ وسيادة، ونَسَبٌ رفيع لحامله وشهادة، فبعد ثبوت الأمانة من ناقله، لا يُسَلِّفُ إِلَى عنصره أو جنسه، أو كونه حُرّاً أو رقيقاً، أو مولى أو مُعْتَقاً، أو فقيراً أو غنياً، أو مُتَقَشِّفاً أو مُتَبَسِّطاً أو مخشوشيناً. فالعلم سُدَّةٌ رفيعة تُحَنِّي لها الجباه،

وَحَكَمٌ عَدْلٌ يَخْضَعُ لَهُ الْمُتَكَبِّرُونَ وَالْكِبَرَاءُ ، وَالْمُلُوكُ وَالْعُظَمَاءُ :

إِنَّ الْمُلُوكَ لَيَحْكُمُونَ عَلَى الْوَرَىٰ وَعَلَى الْمُلُوكِ لَتَحْكُمُ الْعُلَمَاءُ

١٥٩ — شهدنا في هذه الصفحات : المفارقة الكبيرة بين حالنا اليوم وحال طلاب العلم في القديم ، فقد كانوا يضربون آباط الإبل ، ويقطعون الفيافي والقفار في الليالي والهواجر مشياً على الأقدام ، ويقعون في المتاعب والمهالك حتى يَلْقَوْا عالماً ، أو يَسْمَعُوا محدثاً ، أو يأخذوا عن فقيه ، أو يَلْقَوْا من أديب .

كل ذلك يكون منهم وهم صامتون ، فلا تشهد منهم غرور المغرورين ، وانتفاخ المدّعين ، كالذي تَبَلَّسَ به من بعض الناس اليوم . وقد أوتوا — رحمهم الله — من دقة العلم وكثرته وإتقانه ما يَبْهَرُ الأنظار ، وَيَخْضَعُ لعظمته ومُسْتَانَتِهِ وتحقيقه واستيعابه المُجِدُّون المنصفون ذوو الألباب ، فدَوَّنُوا كل ذلك ، بصمّت العابد ، وتواضع العالم ، وأمانة الفطن الصالح الدقيق البصير ، الذي لَا يُفَرِّطُ فِي قِيرٍ وَلَا قِطْمِيرٍ ^(١) .

(١) وأحبُّ أن أُطْلِعَكَ عَلَى صورة صادقة من الموازنة بين جهود المُجِدِّين النابيين المعترفين منا اليوم ، وجهود بعض أئمة العلم الذين جاوزَ تعدادُ مؤلفاتهم المئة ، مثل الحافظ شمس الدين الذهبي رحمه الله تعالى ، لتشهدَ منها حال المدّعين منا المتطاولين ! على الأئمة العباقرة الماضين .

قال العالم الثَّابِتُ الْمُتَتَبِّعُ الأستاذ سعيد الأفغاني ، عميد كلية الآداب بجامعة دمشق سابقاً ، في مقدمته التي كتبها لترجمة (السيدة عائشة رضي الله عنها) ، المستخرجة من كتاب « سِيرَ أعلام النبلاء » للحافظ الذهبي . قال حفظه الله تعالى : ما يلي :

« ترجم السيدة عائشة كثيرون من أعلام المؤرخين ، إلا أن هذا المصنّف : (سِيرَ النبلاء) يَتَفَرَّدُ بمزايا ليست في مصدر آخر ، إنها ترجمة فَنِّيَّة من الوجهة الحَدِيثِيَّة . ثم أشار إلى عظم جهود المحدثين وبالعِـ تَفَنُّنِهِمْ في خدمة التاريخ في الحضارة الإسلامية بما يُدهِشُ الألباب ، إلى أن قال :

« ولكي يخرج القارئُ بفكرة مُجْمَلَةٍ عَجَلَتِي عن المجهود العظيم المُعْجِز ، الذي

واليوم - والحمد لله - تيسّرت السبيل ، ولانّت الوسائل ، ودنا القاصي
والبعيد ، وطوّيت أبعاد الزمان والمكان ، ومع هذا اليُسْر كَلَّه : وَنَتَّ الهِمَمَ
وفتّرت العزائم ، وضعُف الإنتاج ، وغاب النبوغ ، والحالُ في العلوم
الإسلامية وأهلها إلى ما تَرى ! ومع هذا : كَثُرَ في الناس اليوم المدّعون ، مع
كثرة الشطَطِ وتجهيل السلف !

١٦٠ - رأينا في هذه الصفحات : كيف بلغ أولئك الأئمةُ الأعلام
الذروة في العلم ، دون تشجيع يُصنَعُ إليهم ، أو مكافأة مادّيّة تُدرُّ عليهم ،
أو منزلة حكومية يرتقبونها ، أو وظيفة دنيوية يتشبهون بها ، إنّما كان همّهم
وقُصارى مُرادهم مما ركبوا فيه الصعَبَ والذلُول : خِدْمَةُ دينهم ، وإرضاء
ربهم ، ونَصْرَ كتابهم ، ونَشْرَ سُنّة نبيّهم ، وعلومِ إسلامهم ، فنالوا ما
أمّلوه في الدنيا ، ولهم عند الله تعالى من الأجر والمقام المحمود : ما لا عَيْنُ
رأت ، ولا أُذنٌ سَمِعَتْ ، ولا خطرَ على قَلْبٍ بَشَر .

وما أغمِضَتْ منهم العيونُ لوداعِ هذه الدارِ الفانية ، حتى تَلَقَّتْهم رِحابُ

قام به المحدثون ، وخاصةً الذهبيّ في « سِيَرِ النبلاء » ، أذكرُ أن الإمام الزركشي
في كتابه عن السيدة عائشة : « الإجابة لإيزاد ما استدرّكته عائشة على الصحابة » ، ذَكَرَ
من الرواة عنها : اثني عشرَ راوياً ، وأني أضفتُ عليهم نحواً من ثمانين راوياً . جمعتُ
أسماءَهم في أعوامٍ متطاولة ، بعد الاطِّلاع على كتب الطبقات المخطوطة
والمطبوعة ، وعلى مصادر كثيرة جداً ، حتى التي لا يُظَنُّ أن يكون فيها شيء عن
السيدة عائشة ، فأوصلتُ بعد هذا العناء : عددَ الرواة عنها إلى التسعين ، وأنا أرى
أني أتيتُ بما لم يأت به الأوّلون ولا الآخرون !

ولكنني لم أكّدْ أقرأ هذه الرسالة للذهبي ، وأراه قد زاد على هؤلاء التسعين نحو المئتين !
وأدهشني أنه أوردَ أسماءَهم مرتبةً على الحروف ... ! أقول : لم أكّدْ أجيدُ ذلك ،
حتى انطَفَأَ فيّ ذلك الزَّهْوُ المُنتَفِخ ، وعَرَفْتُ أَنِي وألُوفاً من أمثالي ! مهما
جهدنا لا نَبْلُغُ أن نكون من أصغرِ تلاميذِ مؤرِّخينا من أهل الحديث ، لقد وقَفُوا
أنفُسَهم على خدمة العلم ، فأخلصوا له الخِدمة ، فاتاهم الله في ذلك المُعْجِزَات .

الجلد واستقبلتهم حورُها في الدار الباقية ، فلقُوا التكريمَ والهناء ، ونسُوا
الشقاءَ والبلاء ، فكان لهم كما قيل :

هَنَاءٌ مَحَا ذَاكَ الْعَزَاءَ الْمَقْدَمَا فَمَا عَبَسَ الْمَحْزُونُ حَتَّى تَبَسَّ مَا

١٦١ — شهدنا من خلال هذه الصفحات : ألوانَ الصبرِ العجيب ،
والجهودَ الجبَّارة ، والعزائمَ الخارقة ، والعقولَ الكبيرة المبدعة ، التي شادتْ
هذه المكتبة الإسلامية التي ملأت الخافقين ، مع ما ذهب منها وسود ماء
دجلة أياماً طويلاً ، ومع ما أحرقتْهُ محاكمُ التفتيش والأسبان أشهراً كثيرة ،
ومع ما أتلَفَتْهُ أيدي المغُول والتر في عيشِهم في بلاد الإسلام فساداً .

١٦٢ — شهدنا من خلال هذه الصفحات ، سرَّ عَظَمَةِ هذه المكتبة
الإسلامية وسِرِّ سَعَتِهَا ، وأنها ما كانت تكون بهذه الكثرة التي لا تنقطع ،
لولا تلك العزائمُ الإيمانية ، والقلوبُ الطاهرة ، والنفوسُ الزكية ، التي وهبتْ
وجودَها للإسلام وعلومه .

فرضوانُ الله تعالى على تلك الأجساد التي بنَتْ لنا هذه الأمجاد ، وأشادتْ
بدمها ونُورِ عيونها وشُعْلَةِ عقولها : ما خضعَ لفضله وتَفَوَّقَ كلُّ عدوٍّ وصديق .
وبارك الله في شبابنا المتعلم ، وجعلَ فيه من يَخْلُفُ أولئك العلماء : علماءً
وعملًا وسيرةً ، ونشرًا للعلم وتأليفًا فيه . وذَوْبَانًا في تحصيله ، ومكَّنَ لهم
نَصْرَ كلمة الحق في الأرض ، لتَقَرَّ بهم العيون ، وتستنيرَ بهم العقول ،
وتستروحَ بهم القلوبُ والأرواح ، وبذلك فليفرحَ المؤمنون .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
تسليماً كثيراً .



يقول جامعهُ الفقيرُ إلى الله تعالى عبد الفتاح أبو غدة : فرغتُ من خدمة هذا الكتاب
في طبعته الثانية يوم الاثنين ٢١ من رمضان المبارك سنة ١٣٩٤ في مدينة بيروت . وأرجو من
يَتَنَفَّعُ به أن يَذكُرَني بِصالحِ دعواته ، واللهُ المَسْئُولُ أن يَغْفِرَ لي وله ولسائر المسلمين .
ويَجْعَلَنِي وإياه من الذين يَسْتَمْعُونَ القولَ فيَتَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وهو أرحمُ الراحمين .

المحتوى :

- ١ - الآيات القرآنية
- ٢ - الأحاديث النبوية
- ٣ - المصادر
- ٤ - كتب ذُكِرَتْ خِلالَ الكتاب
- ٥ - الأعلام
- ٦ - الشعر
- ٧ - الموضوعات

١ - الآيات القرآنية

الصفحة	
٥	وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك
٥	أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده
٥	لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب
١١	الله يخلق ما يشاء
١٣	هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً
١٤	أرأيت إذ أؤينا إلى الصخرة فإني نسيت الخوت . . .
٢١	والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم
٣١	فسبحوا في الأرض أربعة أشهر

٢ - الأحاديث النبوية

١٣	بينما موسى في ملاء من بني إسرائيل . . . حديث الخضر وموسى عليهما السلام
١٥ - ١٨	حديث إسلام أبي ذر الغفاري . . .
١٧	إنها - أي زمزم - مباركة إنها طعام طعم
١٩	يحشر الله الناس يوم القيامة عدراً غرلاً بهماً . . .
٦١	أفطر الحاجم والمحجوم
٦١	احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقميص
٦١	ما مررت بملاء من الملائكة . . .
٦١	شفاء أمتي في ثلاث . . .
٦١	لا تحتجموا يوم كذا ، ولا ساعة كذا (موضوع)
٦٤	إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سيداد من عوز
٧٠	حديث أبي هريرة في ملازمة للرسول صلى الله عليه وسلم لشيع بطنه . . .

٣ - المصادر

اقتصرتُ على ذكر ما عزوتُ إليه منها ، وما طُبِعَ منها بمصر أغفلتُ ذكر بابه .

- ١ - ابن حزم لأبو زهرة . دار الثقافة العربية للطباعة . دون تاريخ
- ٢ - إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين . للمرئضي الزبيدي .
- ٣ - الإجابة لإيراد ما استدرسته عائشة على الصحابة للزركشي . الهاشمية بدمشق ١٣٥٨ .
- ٤ - أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من «معجم السَّفَر» للسَّلفي استخرجها الدكتور إحسان عباس . بيروت ١٩٦٣ .
- ٥ - اختصار طبقات الخنابلة للنبالسي . مطبعة الاعتدال بدمشق ١٣٥٠ .
- ٦ - أدب الدنيا والدين للماوردي . مصطفى الباني الحلبي ١٣٣٩ .
- ٧ - الأدب المفرد للبخاري . السلفية الطبعة الثانية ١٣٧٩ .
- ٨ - أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمؤرخ المقرئ . القاهرة ١٣٦٢ .
- ٩ - الاعتبار لأسامة بن منقذ . الولايات المتحدة ١٩٣٠ .
- ١٠ - إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم . السعادة ١٣٧٤ .
- ١١ - إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء لراغب الطباخ . العلمية بحلب ١٣٤٥ .
- ١٢ - الأعلام لخير الدين الزركلي . القاهرة الطبعة الثانية ١٣٧٨ .
- ١٣ - الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التورينخ للسخاوي . الترقى بدمشق ١٣٤٩ .
- ١٤ - الاغتباط بمعرفة من رُمي بالاختلاط لسبط ابن العجمي . العلمية بحلب ١٣٥٠ .
- ١٥ - الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبد البر . المعاهد ١٣٥٠ .
- ١٦ - البداية والنهاية لابن كثير . السعادة ١٣٥١ .
- ١٧ - بلوغ الأماني في سيرة الإمام محمد بن الحسن الشيباني للكوثري . السعادة ١٣٥٥ .
- ١٨ - تاج العروس من جواهر القاموس للمرئضي الزبيدي . الخيرية ١٣٠٦ .
- ١٩ - تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي (القسم المخطوط منه) .
- ٢٠ - تاريخ بغداد للخليفة البغدادي . السعادة ١٣٤٩ .
- ٢١ - تاريخ الخلفاء للحافظ السيوطي . المنيرية ١٣٥١ .

- ٢٢ - تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي . الطبعة الثالثة حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٧٥ .
- ٢٣ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، للقاضي عياض ، المطبعة الملكية بالرباط بالمغرب الأقصى ١٣٨٤ .
- ٢٤ - مقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي . حيدر آباد ١٣٧١ .
- ٢٥ - تهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي . المنيرية دون تاريخ .
- ٢٦ - تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ المزي (مخطوط) .
- ٢٧ - تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر . حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٢٥ .
- ٢٨ - توضيح الأفكار شرح تنقيح الأنظار للصنعاني . السعادة ١٣٦٦ .
- ٢٩ - جامع بيان العلم وفضله للحافظ ابن عبد البر . المنيرية ١٣٤٦ .
- ٣٠ - الجمع بين رجال الصحيحين لابن طاهر المقدسي . حيدر آباد ١٣٢٣ .
- ٣١ - الجواهر المضية في طبقات الحنفية للحافظ القرشي . حيدر آباد ١٣٣٢ .
- ٣٢ - الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب لابن فرحون المالكي . مطبعة المعاهد ١٣٥١ .
- ٣٣ - ذيل طبقات الحنابلة للحافظ ابن رجب . السنة المحمدية ١٣٧٢ .
- ٣٤ - الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي . مطابع المجد ١٣٨٩ .
- ٣٥ - رفع الإصر عن قضاة مصر للحافظ ابن حجر . طبع القاهرة .
- ٣٦ - زاد المعاد في هدى خير العباد للإمام ابن القيم . السنة المحمدية ١٣٧٠ .
- ٣٧ - سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة . مطبعة المدني ١٣٨٣ .
- ٣٨ - شرح ألفية مصطلح الحديث للحافظ العراقي . فاس ١٣٥٤ و مصر ١٣٥٥ .
- ٣٩ - شرح الإمام النووي على صحيح مسلم . المصرية ١٣٤٧ .
- ٤٠ - صحيح الإمام البخاري المطبوع معه « فتح الباري » الآتي ذكره .
- ٤١ - صحيح الإمام مسلم المطبوع معه شرح النووي المتقدم ذكره .
- ٤٢ - صفة الفتوى والمفتي والمستفتي لابن حمدان . دمشق .
- ٤٣ - صيد الخاطر لابن الجوزي . دار الفكر بدمشق ١٣٨٠ .
- ٤٤ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي . مكتبة القدسي ١٣٥٥ .
- ٤٥ - طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى الحنبلي . السنة المحمدية دون تاريخ .
- ٤٦ - طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي . الحسينية ١٣٢٤ .
- ٤٧ - الطبقات الكبرى لابن سعد . دار صادر ودار بيروت ١٣٧٦ .
- ٤٨ - ظهير الإسلام لأحمد أمين . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٠ .
- ٤٩ - العبير في خبر من غير للحافظ الذهبي . مطبعة الحكومة بالكويت ١٣٨٦ .

- ٥٠ — عجائب المخلوقات لخرجي زيدان . القاهرة .
- ٥١ — فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر . بولاق ١٣٠٠ .
- ٥٢ — فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للسخاوي . لكنو بالهند ١٣٠٣ .
- ٥٣ — الفلاكة والمفلوكون للدبلي . مطبعة الشعب ١٣٢٢ .
- ٥٤ — القاموس المحيط للفيروز آبادي . الحسينية ١٣٣٠ .
- ٥٥ — كتاب العلم لأبي خيثمة النسائي . المطبعة العمومية بدمشق ١٣٨٥ .
- ٥٦ — الكامل في التاريخ لابن الأثير . المنيرية ١٣٤٨ .
- ٥٧ — كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة . طبع إصطنبول ١٣٠٨ .
- ٥٨ — الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي . حيدر آباد الدكن ١٣٤٧ .
- ٥٩ — كنوز الأجداد لمحمد كرد علي . الترقى بدمشق ١٣٧٠ .
- ٦٠ — لسان العرب لابن منظور . بولاق ١٣٠٠ .
- ٦١ — المحدثات الفاصلة للرامهرمزي دار الفكر بيروت ١٣٩١ .
- ٦٢ — مروج الذهب للمسعودي . طبع باريس ١٩١٤ .
- ٦٣ — المزهري في علوم اللغة للإمام السيوطي . عيسى البابي الحلبي دون تاريخ .
- ٦٤ — مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل .
- لعبد الفتاح أبو غدة . دار القلم ببيروت ١٣٩١ .
- ٦٥ — المصنوعون به على غير أهل له لغز الدين الزنجاني . السعادة ١٩١٣ .
- ٦٦ — معجم الأدباء لياقوت الحموي . دار المأمون ١٣٥٥ .
- ٦٧ — معجم البلدان له أيضاً . السعادة ١٣٢٣ .
- ٦٨ — معجم السلفر للحافظ السلفي (بالاختصار منه) انظر الكتاب المتقدم بجانب الرقم — ٤ .
- ٦٩ — المعجم الوسيط في اللغة العربية لجماعة من العلماء . دار المعارف ١٣٩٢ .
- ٧٠ — معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري . دار الكتب المصرية ١٣٥٦ .
- ٧١ — مقدمة القاضي ابن خلدون . بولاق ١٢٧٤ .
- ٧٢ — المكافأة لأحمد بن يوسف الكاتب . الجمالية ١٣٣٢ .
- ٧٣ — مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي . السعادة ١٣٤٩ .
- ٧٤ — مناقب الإمام الشافعي للبيهقي . دار النصر للطباعة ١٣٩١ .
- ٧٥ — من أخلاق العلماء للقاضي محمد سليمان . السلفية ١٣٥٣ .
- ٧٦ — المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد للعليني . المدني ١٣٨٣ .
- ٧٧ — ميزان الاعتدال للحافظ الذهبي . عيسى البابي الحلبي ١٣٨٢ .

- ٧٨ - نفح الطيب للمؤرخ المقرئ . الأزهرية ١٣٠٤ .
 ٧٩ - النهاية في غريب الحديث لابن الأثير . العثمانية ١٣١١ .
 ٨٠ - نوابغ الكلم للزمخشري . المطبعة الكلية ١٣٣٢ .
 ٨١ - هدي الساري مقدمة فتح الباري للحافظ ابن حجر . المنيرية ١٣٤٧ .
 ٨٢ - وفيات الأعيان للقاضي ابن خلكان . الميمنية ١٣١٠ .

٤ - كتب ذُكرت خلال الكتاب
 وجاء حول بعضها كلام يتعلق بذلك الكتاب

الصفحة

١٠٨	البنية شرح الهداية للعيني
٥٣	تشریف الفقر على الغنى لابن زبیر قاضي مصر
٣٤	التهديب للأزهري
٩٦	الجمهرة لابن دريد
١١٤	سنن ابن ماجه
١١٤	سنن أبي داود
٣٨	سنن الدارمي
١١٤	صحيح البخاري
١٢٥	سير أعلام النبلاء للذهبي
١٠٣	عقيدة الطحاوي
١٠٧	فتح باب العناية لعلي القاري
٦٤	مثالب البصرة لأبي عبيدة
١٠٤	كتاب أقليدس
١٠٤	كتاب المجسطي
٩٦	المسند لعلي بن المديني
١٠٢	معجم الحافظ ابن حجر العسقلاني
١٠٣	مناقب أبي حنيفة لابن حجر الهيتمي
١١٦	الوساطة بين المنتهي وخصومه للجرجاني

٥ - الأعلام

اقتصرتُ في (الأعلام) على من كان له خبر في الكتاب ، أو قول يتصل بالخبر .
وأما من سُمي تسمية فقط مثل ابن خلكان والذهبي وابن حجر وغيرهم ، ممن
تكرر اسمه كثيراً عند النقل المجرد من كتابه ، فلم أشر إلى ذكره في ذلك الموطن .
وذكرتُ بعض الأعلام في حرفين مثل ابن جرير الطبري في (ابن جرير) و(الطبري).

- | | |
|-----------------------------|---|
| ابن راهويه ٨٢ . | ادم بن أبي إياس ٨٣ . |
| ابن رزيك ٦٩ ، ١٠٠ . | ابراهيم الحربي ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ . |
| ابن سعد ٥٥ ، ٧٠ . | ابراهيم النظام ٤٨ ، ٧١ . |
| ابن سلام الجمحي ٣٦ . | ابراهيم بن الحسين بن ديزيل ٥٧ . |
| ابن سينا ٤٣ . | ابراهيم بن عبد العزيز ٧٢ . |
| ابن شبرمة ٢٣ ، ٤٠ . | ابن إسحاق ٢٤ . |
| ابن عبد البر ٢٢ ، ٤٨ ، ٥٥ . | ابن أبي حاتم الرازي ٢٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٨٣ . |
| ابن العديم ١٠٣ . | ابن أبي كامل ٣٠ . |
| ابن عساكر ٣٦ . | ابن الأثير ٢٠ . |
| ابن القاسم ٤٠ ، ٥٣ . | ابن بسام ٦٥ . |
| ابن القيم ٢٠ ، ٦١ . | ابن جرير الطبري ٦٣ ، ٨٧ ، ٨٨ . |
| ابن كثير ٢٢ . | ابن الجوزي ٢٥ ، ٣٤ ، ٥٧ ، ٧٦ ، ١٠٢ . |
| ابن مصحح ٨٧ . | ابن حجر ١٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ٧٠ ، ١٠٢ . |
| ابن المقرئ ٣١ ، ٧٣ . | ابن حزم ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ . |
| ابن مقلة ١١٧ . | ابن حمزة ٣٠ . |
| ابن الملقن ١٠٢ . | ابن الخاضبة ٦٨ ، ٩٥ . |
| ابن منده عبّيد الله ٣٢ . | ابن خراش ٧٨ . |
| ابن منده محمد بن إسحاق ٣١ . | ابن خزيمة ٦٣ . |
| ابن المديني ٩٥ . | ابن خلدون ٢١ ، ٤٥ . |
| ابن نباتة المصري ٤٨ ، ٧١ . | ابن خلكان ٩٧ . |
| ابن هشام النحوي ٥١ . | ابن دريد ٩٦ . |
| أبو أحمد فستق ٩٢ . | ابن الدهان ٦٨ ، ٩٩ . |

- أبو إسحاق الحبال ٣٢ ، ١١٥ .
 أبو إسحاق الشيرازي ٨٠ .
 أبو إسحاق الغزي ٢٢ ، ٥٢ .
 أبو إسحاق اليزدي ٨١ .
 أبو بكر بن علي ٧٣ .
 أبو بكر الصديق ١٧ ، ١٨ ، ٥٦ .
 أبو بكر القطان ١١٥ .
 أبو بكر محمد بن عبد الباقي ٧٤ .
 أبو جعفر القصري ٩٨ .
 أبو جعفر الكاتب ١٠٤ .
 أبو جعفر المنصور ٣٥ ، ٣٦ .
 أبو حاتم الرازي ٢٩ ، ٧٩ ، ٨٣ .
 أبو الحسين بن المهدي ٦٨ .
 أبو حنيفة ٥ ، ٣٣ ، ٥٤ .
 أبو خيثمة النسائي ٤٠ .
 أبو داود الطيالسي ٣١ .
 أبو ذر الغفاري ١٥ ، ١٦ .
 أبو زرعة الرازي ١١٥ .
 أبو زكريا بن منده ٣٢ .
 أبو زهرة محمد ٤٦ ، ٤٧ .
 أبو زهير المروزي ٨٤ .
 أبو سعد السمان ٣٣ .
 أبو شهاب الحناط ٧١ .
 أبو الشيخ بن حيّان ٧٣ .
 أبو العالية رُفيع بن مهران ٢٢ .
 أبو العباس البكري ٦٣ .
 أبو عبد الله الناتلي الحكيم ٤٤ .
 أبو عبيدة ٦٤ .
 أبو عرب تاجر دمشقي ١٠٩ .
 أبو العلاء المعري ٣٤ ، ٦٦ .
 أبو علي بن شوكة ٦٧ .
 أبو علي القالي ٩٧ .
 أبو علي الهاشمي الحنبلي ٦٧ .
 أبو عمران الأشيب ١١٣ .
 أبو عمرو الأصبهاني ١١٥ .
 أبو قلابة ٢٣ .
 أبو القاسم ١١١ .
 أبو القاسم بن الجبلي ١١٣ .
 أبو محمد بن الحداد التنيسي ١١٥ .
 أبو منصور الأزهري ٣٤ .
 أبو نصر السجزي ٣٢ .
 أبو نعيم الفضل بن دُكين ٦٢ .
 أبو نواس ٥٢ .
 أبو هريرة ٤٩ ، ٦٩ ، ٧٠ .
 أبو وهب ٢٤ .
 أبو يوسف القاضي ٥٤ .
 أبو يعقوب الشريطي ٦٠ ، ٦١ .
 أبو طاهر أحمد بن محمود ٣١ .
 أبو طاهر بن خطاب الواقفي ١١٦ .
 الأبّي ١٦ .
 أبيّ بن كعب ١٣ .
 الأبيوردي ٧٩ .
 إحسان عباس ١٠ .
 أحمد بن حنبل ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ،
 ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٤٠ ، ٨١ ، ١٠٢ ،
 ١١٢ .
 أحمد بن حمدان الحنبلي ٢٥ .
 أحمد بن داود ٨٢ .
 أحمد بن سلمان النجاد ١١١ ، ١١٢ .
 أحمد بن سنان الواسطي ٨٢ .
 أحمد بن طولون ٦٣ .
 أحمد الحجار ١٠٦ .
 أحمد عبيد ١٠٨ .
 الأرغواني ٣٠ .

الحارث العكلي ٤٠ .
 الحاكم النيسابوري ٣٢ ، ٣٦ .
 حبيب الرحمن الأعظمي ٧١ .
 الحداد المهدوي ٩٨ .
 الحر بن قيس الفزاري ١٣ .
 حسان بن محمد ٢٥ .
 الحسن البصري ٢٢ ، ٦٤ .
 حمدي السفرجلاني ١٠٨ .
 الحنظل ١٣ ، ١٤ ، ١١٧ .
 الخطيب البغدادي ١٤ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ .
 الحليل بن أحمد الفراهيدي ٥٣ .
 خيشمة أبو الحسن بن سليمان الطرابلسي ٣٠ .
 الدارمي ٣٨ .
 داود بن علي الظاهري ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ .
 الذكواني ٤٣ .
 الذهبي الحافظ المحدث ١٢٥ .
 راغب الطباخ ١٠٦ .
 الرامهرمزي ٢٣ .
 رشيد الخواصلي ٩٠ و ٩١ .
 الروياني محمد بن هارون ٦٣ .
 الزركشي بدر الدين ١٢٦ .
 زكريا بن دكويه ٥٩ .
 الزمخشري ٤٤ ، ١١٣ .
 سبط ابن العجمي الحلبي ١٠٢ .
 السبكي تاج الدين ٤٠ .
 السخاوي ٥ ، ٢٠ .
 سعيد الأفغاني ١٢٥ .
 سعيد بن جبير ٣٨ .
 سعيد بن المسيب ٢٢ .
 سفيان الثوري ٣١ ، ٤٠ ، ٧٠ .
 سفيان بن عيينة ٢٤ .
 سلمة بن كهيل ٤٠ .

أسامة بن منقذ ١٠٠ .
 إسحاق بن إبراهيم الشهيدي ٦٠ .
 إسحاق بن راهويه ٨٢ .
 أسد بن الفرات ٤٢ .
 أسعد الميهني ٩٩ .
 إسماعيل بن عياش الحمصي ٣٩ .
 الأسود بن يزيد النخعي ٢١ .
 الأشجع عبد الله بن سعيد الكندي ٨٦ .
 الأعمش ٢٤ .
 امرؤ القيس ٦٦ .
 أمية بن زيد ١٨ .
 أنيس الغفاري ١٥ ، ١٦ .
 أوس بن خولي الأنصاري ١٨ .
 الباجي أبو الوليد ٤٦ ، ٤٧ .
 البحري ١١٧ .
 البخاري ١٣ ، ٤١ ، ٧٩ ، ٨٣ .
 البرقاني ٨٦ .
 بطليموس الفلكي المصري ١٠٤ .
 بقي بن مخلد الأندلسي ٢٦ ، ٦٢ .
 البكري ٥٦ .
 البيهقي ٣٧ ، ٤٨ .
 التبريزي ٣٤ ، ٩٦ .
 الثعالبي ١١٦ .
 جابر بن عبد الله الأنصاري ١٨ .
 الجاحظ ٧١ ، ١١٧ .
 جارية سوداء ٣٩ .
 الجرجاني أبو الحسن علي بن عبد العزيز ٥٠ ،
 ٩٤ ، ١١٦ .
 الجرجاني أبو العباس ٨٠ .
 الجرجاني رجل من محبي الخير ٥٩ .
 جعفر المستغفري ٣٢ .
 جمال الدين الأصبهاني ٩٩ .

- السَّافِي الحافظ ١٠ ، ٩٨ ، ١١٤ .
 السمعاني ٨٠ ، ٨١ ، ١١٤ .
 سنن بن علي ١٠٤ ، ١٠٥ .
 السنوسي ١٦ .
 السيوطي ٣٦ .
 الشاذكوني سليمان بن داود ٨٢ ، ٩٥ .
 الشافعي الإمام ٣٣ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٥ .
 شجاع بن أسلم ١٠٤ .
 الشريف المرتضى ٩٦ .
 الشعبي ٢٢ ، ٢٣ ، ٦٤ .
 الشيرازي أبو إسحاق ٨٠ .
 الصالح بن رزيك ٦٩ ، ١٠٠ .
 الصنعاني الأمير ٦٢ .
 الصومعي أبو عبد الله ٧٦ .
 ضياء الدين بن عبيد الله الحسيني ٦٩ .
 طاهر بن عبد الله الخزاعي ٥٩ .
 الطبراني ٤٣ ، ٧٣ .
 الطبري محمد بن جرير ٦٣ ، ٨٧ ، ٨٨ .
 عائشة رضي الله عنها ١٢٥ ، ١٢٦ .
 العباس بن سعيد ١٠٥ .
 عبد الرحمن بن قاسم العتقي ٣٩ .
 عبد الرزاق الصنعاني ٢٥ ، ٨١ ، ٨٢ .
 عبد الفتاح أبو غدة ٤٨ ، ٦٢ ، ٧٣ ، ٨٨ .
 ٩١ ، ١٠٦ ، ١١٣ ، ١٢٧ .
 عبد القادر الجيلاني ٧٥ .
 عبد القادر الطشقندي ١٠٩ .
 عبد الله بن أحمد بن حنبل ٢٠ .
 عبد الله بن أنيس ١٨ ، ١٩ .
 عبد الله بن أبي داود السجستاني ٨٦ .
 عبد الله بن زبهر قاضي مصر ٥٣ .
 عبد الله بن الصامت الغفاري ١٦ ، ١٨ .
 عبد الله بن عباس ١٣ ، ١٥ ، ١٨ ، ٣٧ .
 ٣٨ ، ٦٤ .
- عبد الله بن فَرْوْخ ٢٤ .
 عبد الله بن طيعة ٩٥ .
 عبد الله بن مالك ٥٧ .
 عبد الله بن المبارك ٣٩ .
 عبد الله بن محمد بن عقيل ١٨ .
 عبد الله بن مسعود ٢٠ ، ٢٢ .
 عبد الوهاب بن نصر المالكي ٦٥ .
 عبيد الله بن منده ٣٢ .
 عبيد الله بن عبد الكافي ١١٧ .
 عثمان بن جعفر اللبان ٧٨ .
 العراقي الحافظ ٣١ .
 عروة بن الزبير ٣٨ .
 عزت القصيمي ١٠٨ .
 عز الدين الزنجاني ١١٧ .
 عفان بن مسلم ٥٧ .
 عكرمة ٣٧ .
 علقمة بن قيس النخعي ٢١ .
 علي بن أبي طالب ١٥ ، ٢٠ .
 علي بن أحمد الخوارزمي ٤٣ .
 علي بن الحسن بن شقيق ٣٩ .
 علي بن المديني ٩٥ .
 علي الطنطاوي ٧٧ .
 علي القاري ١٠٧ .
 عمر بن حفص الأشقر ٧٩ .
 عمر بن الخطاب ١٨ ، ٢١ .
 عناية الله الطشقندي ١٠٩ .
 عوف بن أبي جميلة ٦٤ .
 القاضي عياض ٢٤ .
 العيني الإمام المحدث الفقيه ١٠٨ .
 غاندي الزعيم الهندي ٧٧ ، ٧٨ .
 الغزالي الإمام ٩٩ .
 الفألي أبو الحسن ٩٦ ، ٩٧ .
 الفيربيري ٤١ .

محمد بن عبدالله الأنصاري ٣٨ .
 محمد بن المسيب الأرغواني ٣٠ .
 محمد بن نصر الطبري ٥٨ .
 محمد بن نصر المروزي ٥٨ ، ٦٢ ، ٧٨ ، ٩٥ .

محمد بن يوسف ٤١ .
 محمد بن يونس الكندي ٣١ .
 المرتضى الزبيدي ٥٨ .
 الميزي الحافظ ٥٨ .
 مسروق بن الأجدع ٢٢ .
 مسروق التابعي ٢٠ .
 مسعود الملك ١٠١ .
 المسعودي ٥٥ .
 مصطفى بن محمد الشنقيطي ١٠٨ .
 مصطفى صبري شيخ الإسلام ٧٧ .
 مصطفى كمال الطاغية ٧٧ .
 المغيرة ٤٠ .
 المفضل بن فضالة ٣١ .
 المقري المؤرخ ٥ .
 مكحول الشامي ٢٣ ، ٢٤ .
 المهدي الخليفة العباسي ٧٠ .
 موسى النبي عليه السلام ١٣ ، ١٤ .
 مير عناية الطشقندي ١٠٩ .
 الميهني أسعد ٩٩ .
 النضر بن شميل (المازني) ٥٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ١٢١ .

النظام ٤٨ ، ٧١ .

نظام الملك ٨٧ .

نور الدين الشهيد ١٠٠ .

النووي الإمام ١٦ .

النيسابوري شيخ ٨٤ .

هارون الرشيد ٥٤ .

الهذلي الشاعر ١٢٣ .

الفرغاني تلميذ ابن جرير ٨٧ .

الفضل بن سهل ٦٥ .

الفضل الشعرائي ٣٠ .

الفضيل بن عياض ٤٠ .

القادر بالله الخليفة العباسي ٦٨ .

القاسم بن أبي صالح ٥٧ .

القاسم بن داود البغدادى ٣١ .

القاضي عبد الوهاب المالكي ٦٥ .

القاضي عياض ٢٤ .

قتيبة بن سعيد ٤٠ .

القرشي الحافظ عبد القادر ٣٣ .

الققعقاع بن يزيد ٤٠ .

الكندي محمد بن يونس ٣١ .

الكوثري ٤٢ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .

الكوسج أبو يعقوب المروزي ٢٥ .

اللمتوني أبو محمد ١٠ .

الليث بن سعد ٩٥ .

المأمون الخليفة ٦٤ ، ٦٥ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .

المازني (النضر بن شميل) ٥٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ١٢١ .

مالك الإمام ٢٢ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٥٣ .

الماوردي ١١٧ .

مجالد ٦٤ .

المحاملي أبو عبدالله ٥٩ ، ٦٠ .

محمد بن أبي حاتم وراق البخاري ٤١ .

محمد بن الحسن الشيباني ٤٢ .

محمد بن رافع النيسابوري ٥٨ ، ٥٩ .

محمد بن سعد ٥٥ .

محمد بن سلام الحمصي ٣٦ .

محمد سليمان القاضي ٦٠ .

محمد بن طاهر المقدسي ٣٥ ، ٦٨ ، ١١٤ .

- هشام بن عمار ٢٧ .
 هشيم ٦٤ ، ٦٥ .
 وادع الراسبي ٢٣ .
 الواقدي محمد بن عمر ٥٥ ، ٥٦ .
 الوخشي أبو علي الحسن بن علي ٨٧ .
 وكيع بن الجراح ٤٠ .
 ياقوت الحموي ٤٦ .
 يحيى بن خالد ٥٥ ، ٥٦ .
 يحيى بن سعيد ٢٢ .
 يحيى بن علي التبريزي ٣٤ ، ٩٦ .
 يحيى بن معين ٢٠ ، ٢٧ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٨١ .
 يحيى القطان ٤٠ .
 اليزدي ٨١ .
 يعقوب بن سفيان الفسوي ٣٠ ، ٨٦ .
 يوسف بن بحر ٣٠ .
 يونس بن محمد المؤدب ٣١ .

٦ - الشعر

ذكرتُ هنا الشعر مرتباً بحسب القافية ، وقد يكون مع البيت المذكور أبيات أخرى ، فيستدل بقافية المذكور عليها ، ولم أذكر اسم القائل هنا لسهولة كشفه من داخل الكتاب ، أو كشف اسم الشاعر المطلوب للباحث من (الأعلام) .

الصفحة

١٢٥	وعلى الملوك لتحكم العلماء	إن الملوك ليحكمون على الورى
٤٩	قال لي في عمائم الفقهاء	قات للفقير أين أنت مقيم
٥٠	فلما رأواني معسراً مات مرحباً	وكان بنوعي يقولون مرحباً
١٢٢	إلى غاية ما بعدها لي مطلب	وكنت أرى أن قد تناهى بي الهوى
٥٢	كما حمل العظم الكسير العصائب	حماننا من الأيام ما لا نطيقه
١٢٤	والجهل يلحق أمواتاً بأموات	يموت قوم فيحيي العلم ذكرهم
٢٢	جهل فان العمى يغني عن السُّرُج	لا تعجبن لمن أغناه عن أدب
٥٢	من البلوى لأعوزك المزيد	ولو أني استزدتك فوق ما بي
٥١	لكنه بسكون الباء مفقود	الصبر يوجد إن باء له كُسر
٧٨	صومة المستميت والمتحدي	صام شيخ الهند الحديثة غنّدي
٣٥	وإن ترك المطايا كالمراد	جزى الله المسير إليه خيراً
٥٠	وما علموا أن الخضوع هو الفقر	وقالوا توصل بالخضوع إلى الغنى
٦٦	بلادنا فحمدنا النأي والسفرا	والمالكي ابن نصر زار في سفر
٥١	فقال الصبور يا صبر صبرا	صابر الصبر فاستغاث به الصبر
٥٠	تكرور تبرا	أمطري لؤلؤاً سماء سرنديب
٦٥	ليوم كريمة وسداد ثغر	أضاعوني وأي فتى أضاعوا
٨٨	بطر الغنى ومذلة الفقر	خُلِقَ لَان لا أرض طريقتهم
١٢٤	بعد الممات جمال الكتب والسير	جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم
٩٤	صيرت للبيت والكتاب جليسا	ما تطعمت لذة العيش حتى
٩٨	بليد تسمى بالفقيه المدرس	تصدر للتدريس كل مهوس

- أولئك آبائي فجئني بمثلهم
قالت وأبدت صفحاً
سلام على بغداد في كل موطن
ليس ممن شدة تصيبك إلا
سهرى لتنقيح العلوم السدلي
بغداد دار لأهل المال طيبة
جزى الله الشدائد كل خير
إذا أعسرت لم يعلم رفيقي
ولا تمدن للعلاء منك يسداً
وذاش شجو أسال البين عبرتها
وإن سيادة الأقوام فسا علم
سألت الناس عن خيل وفي
فقل لمرجى معالي الأمو
ومن يضطر للعالم يظفر بنياسه
قوم إذا غسلوا ثياب جملهم
وبدر أضاء الأرض شرقاً ومغرباً
يقولون لي فيك انقباض وإنما
هنا محاذك العزاء المقدما
أبي الإسلام لا أب لي سواه
تنكر لي دهري ولم يسدر أني
لا يزعجك يا سراج الدين إن
أنست بها عشرين حولاً وبعثها
إن الفقيه هو الفقير وإنما
قد قضى الله أن أموت غريباً
لما تبدلت المجالس أوجهها
ألا موت يباع فأشتريه
متى يصل العطاش إلى ارتواء
- إذا جمعتنا يا جرير المجمع
كالشمس من تحت القناع
وحق لها مني سلام مضاعف
سوف تمضي وسوف تكشف كشاف
من وصل غانية وطيب عناق
وللمفاليس دار الضنك والضيق
وإن كانت تغصني بريقي
وأستغني فيستغني صديقي
حتى تقول لك العلاءات يدك
كانت تؤمل بالتنفس إمساكي
لها صعداء مطلعها طويل
فقالوا ما إلى هذا سبيل
ر بغير اجتهاد رجوت المحالا
ومن يخطب الحساء يصبر على البذل
لبسوا البيوت إلى فراغ الغاسل
وموضع رحلي منه أسود مظلم
رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً
فما عبس المحزون حتى تبسماً
إذا افتخروا بقيس أو تميم
أعز وأحداث الزمان تهون
لعبت بكتبك ألسن النيران
لقد طال وجدي بعدها وحنيني
راء الفقير تجمعت أطرافها
في بلاد أساق كرهاً إليها
غير الذين عهدت من علمائها
فهذا العيش ما لا خير فيه
إذا استقت البحار من الركايا

٧ - الموضوعات

- ٥ مقدمة الطبعة الثانية وفيها ذكر تأثير أخبار الصالحين ووقائعهم في النفوس
٧ مقدمة الطبعة الأولى وفيها بيان الحاجة إلى هذا الكتاب وسبب تأليفه
٨ التاريخ الطويل تقع فيه العجائب الغرائب وشرح ذلك وبعض النماذج منها
١١ فَرَضُ الفقهاء بعض الصور الغريبة للتفقيه ولا احتمال وقوعها على الزمن
١١ ذكر تقسيم (الصفحات) إلى ستة جوانات من حياة العلماء وخاتمة

الجانب الأول

- ١٣ في أخبارهم في التعب والنصب والرحلة في طلب العلم وقطع المسافات
١٣ ركوب سيدنا موسى البحر لطلب العلم وذهابه للخضر عليهما السلام
١٤ تعليق الخطيب وابن حجر على هذه الرحلة ، ودلالاتها على شرف العلم
ارتحال أبي ذر الغفاري من بلد قومه غفار لمكة المكرمة للعلم بما جاء به الرسول صلى الله
عليه وسلم ، وتلطّف سيدنا علي بجمعه مع الرسول صلى الله عليه وسلم
١٥ رواية ثانية في رحلته ، وفيها ذكر ما ناله من أذى قريش ، واقتيائه بماء زمزم
ثلاثين يوماً حتى سَمِن وترهّل ...
١٦ التنبيه تعليقاً على تحريف وقع في « صحيح مسلم » في لفظ (فاكفني) ...
١٦ تناوب عمر بن الخطاب وجاره في النزول للمدينة لمعرفة خبر الوحي ...
١٨ ارتحال جابر مسيرة شهرة لحديث واحد ، ونص ذلك الحديث
١٨ تفضيل الإمام أحمد الرحلة لطالب العلم على التزام عالم كبير في بلده
١٩ معنى قول الإمام أحمد (يُشَامُ النَّاسَ) أو (يُشَافِيهِ النَّاسَ)
٢٠ قول يحيى بن معين من لم يرحل في طلب الحديث لا يؤنس منه الرشد
٢٠ ارتحال علقمة النخعي والأسود النخعي من الكوفة إلى عمر بالمدينة لحديث
٢١ موقع الرحلة لطلب العلم في نظر القاضي ابن خلدون وفوائدها
٢١ شعر لأبي إسحاق الغزي في الحضر على الارتحال وأنه منبهة للعالم
٢٢ رحلة مسروق التابعي من أجل كلمة واحدة ، وكذلك الحسن البصري

- ٢٢ ارتحال أبي العالية من البصرة للمدينة للسمع من الصحابة أنفسهم
- ٢٢ ارتحال سعيد بن المسيب الأيام والليالي من أجل حديث واحد
- ٢٣ رحلة الشعبي من الكوفة إلى مكة المكرمة في ثلاثة أحاديث
- ٢٣ سعة حفظ الشعبي وقوة حفظه ومتانة صبره في طلب العلم
- ٢٣ إقامة أبي قلابة البصري مدة طويلة بالمدينة لأخذ حديث واحد من رايه
- ٢٣ طواف مكحول الشامي التابعي معظم بلاد الإسلام لتلقي العلم منها
- خبر عبدالله بن قروخ القيرواني في رحلته من القيروان للكوفة لسماعه من الأعشى ،
وفيه وقوع مصادفة عجيبة أسعدته بسماعه منه
- ٢٤ تاريخ طلب الإمام أحمد للحديث وبدء رحلاته فيه
- ٢٤ طواف الإمام أحمد على أمصار الإسلام لأخذ العلم عن أهلها
- ٢٥ قول ابن الجوزي : طاف الإمام أحمد الدنيا مرتين حتى جمع (المسند)
- ٢٥ رحلة أبي يعقوب الكوسج المروزي للإمام أحمد راجلاً من مرو إلى بغداد للشيث
من (المسائل) التي أخذها عنه وهو يحملها على ظهره
- ٢٥ رحلة بقي بن مخلد الأندلسي من الأندلس لبغداد على قدميه للقاء الإمام أحمد ،
وهو خبر مدهش عجيب جداً في التحيل لتحصيل العلم
- ٢٦ رحلة الإمام أبي حاتم الرازي سبع سنين من المشرق إلى المغرب ثم إلى الجنوب
ثم إلى الشمال ثم إلى المشرق ، كل ذلك ماشياً على قدميه
- ٢٩ رحلة يعقوب بن سفيان الفارسي ثلاثين سنة وكتابه عن أكثر من ألف شيخ
- ٣٠ طواف الفضل الشعرائي وجه الأرض إلا الأندلس في طلب الحديث
- ٣٠ دخول الحافظ الأرغواني مدُن الإسلام لسماع الحديث
- ٣٠ كارثة خيشمة الطرابلسي في سفره بالبحر وما لقيه من الهوان
- ٣١ طواف ابن المقرئ الأصبهاني الشرق والغرب أربع مرات ابتغاء العلم
- قول ابن المقرئ : مَشَيْتُ ٧٠ مرحلة في (نسخة ابن فضالة) ولو عُرِضَتْ
على خباز برغيف لم يقبلها
- ٣١ ارتحال الحافظ ابن منده (محمد بن إسحاق) ٤٥ سنة ، وطوافه الشرق والغرب
مرتين وأخذه عن ١٧٠٠ شيخ ، وسماعه ألف جزء كبير ، وبلوغ كتبه عند
عودته من الرحلة ٤٠ جملاً
- ٣١ طائفة من المحدثين عُرِفُوا بالكثرة من الشيوخ وأخذوا أحدهم عن ٦٠٠٠ شيخ

- طوائف أبي نصر السجزي الآفاق لطلب الحديث ، وخبر إعراضه عن الزواج
 ٣٢ من امرأة عرضت نفسها عليه مع ألف دينار قدّمته لها
 ٣٣ الإمام الفقيه أبو سعد السمان الرازي طاف البلاد وأخذ عن ٣٦٠٠ شيخ
 ٣٣ قول أبي سعد السمان : من لم يكتب الحديث لم يتغرغر بحلاوة الإسلام
 ارتحال الخطيب التبريزي من تبريز إلى المعرة في بلاد الشام على قدميه ، ليقرأ على
 ٣٤ أبي العلاء المعري (الجمهرة) ، ونفوذ عرق ظهره على نسخة (الجمهرة) ...
 ٣٤ وصف ابن الجوزي لذائد ابتداء التحصيل وفضل انهماكه في طلب العلم
 ٣٥ محمد بن طاهر المقدسي بال دّم مرتين في طلب الحديث لمشيئه في الواجر
 ٣٥ اشتهاه الخليفة أبي جعفر المنصور أن يكون واحداً من أولئك العلماء
 ٣٦ ذكر الحاكم النيسابوري لفضل أصحاب الحديث وطلابه ولألوان صبرهم

الجانب الثاني :

- ٣٧ في أخبارهم في هجر النوم والراحة والدعة وسائر اللذات
 اهتمام ابن عباس بتلقي العلم من أكابر الصحابة وتوسّده على باب من يتلقّى
 ٣٧ منه الحديث منهم
 ٣٨ قيلولة ابن عباس بباب من يأخذ منهم العلم كيلا يشق عليهم
 ٣٨ سعيد بن جبير يُسامِرُ ابنَ عباس في العلم ويكتب الحديث في واسطة الرحل
 ٣٩ إسماعيل بن عياش الحمصي يحيى الليل ويقطع صلاته لتسجيل الحديث في بابه
 ٣٩ مذاكرة عبدالله بن المبارك لعلي بن الحسن بن شفيق من العشاء للفجر
 محيي عبد الرحمن بن قاسم العتقي إلى باب مالك كل سحر ، وإقامته ببابه ١٧ سنة ،
 ٣٩ وقدم ولده عليه شاباً وقد تركه حملاً ...
 ٣٩ الإمام مالك قاماً صلياً الصبح إلا بوضوء العشاء ٤٩ سنة
 ٤٠ الفضيل بن عياض وابن شبرمة والعكلي ... يتذكرون الفقه لصلاة الفجر
 ٤٠ وكيع والإمام أحمد يقفان من العشاء للفجر في المذاكرة للأحاديث
 ٤١ كتابة البخاري عن أكثر من ١٠٠٠ شيخ ، وسمِع منه الصحيح ٧٠ ألفاً
 استيقاظ البخاري من نومه في الليلة الواحدة نحو عشرين مرة ليسجل ما يمر
 ٤١ بخاطره من فوائد العلم
 تلقي أسد بن القرات القيرواني العلم بالكوفة على الإمام محمد بن الحسن الشيباني ،
 ٤٢ وكان إذا نَعَسَ نَصَحَ الإمام وجهه بالماء ، وإمداده له بالنفقة حين طلبه وحين سفره

- ٤٣ جواب الطبراني عن سبب كثرة حديثه : أنه نام على الحُصْر ٣٠ سنة ...
- ٤٣ ابتداء رحلة ابن أبي حاتم الرازي لطلب العلم قبل الاحتلام
- طواف ابن أبي حاتم بالنهار على الشيوخ وسهره بالليل للنسخ والمقابلة ، وأكله السمكة نيئة بعد أن كادت تُتَنّ إذ لم يفرغ لشيئها
- ٤٣ النبوغ العجيب لابن سينا الطبيب الفيلسوف وسهره أكثر الليل في حياة الطالب
- ٤٤ أبيات لطيفة للزمخشري في التلذذ بطلب العلم والسهر فيه

الجانب الثالث

- ٤٥ في أخبارهم في الصبر على الفقر وشطف العيش ومرارته وبيع الملابس أو المفروشات .
- ٤٥ كلام نفيس للعلامة ابن خلدون في سبب اتصاف أكثر العلماء بالفقر
- مناظرة بين ابن حزم والباجي واعتذار الباجي لابن حزم بدراسته على ضوء
- ٤٦ الحارس واعتذار ابن حزم له بدراسته على منائر الذهب
- ٤٧ فقر الباجي في بدء حياته في التحصيل والتعليم ثم انفتاح الدنيا عليه
- ٤٧ موازنة الشيخ العلامة أبي زهرة بين اعتذار الباجي واعتذار ابن حزم
- ٤٨ ترجيح اعتذار الباجي لقول الشافعي لا تستشر من ليس في بيته دقيق ...
- ٤٨ تقسيم الفقر إلى نوعين : مُفْرَغ للعلم وشاغل عنه ...
- ٤٨ قول النّظام في أن المصيبة بالفقر أشد من المصيبة بفقد العزيز !
- ٤٩ فقر سيدنا أبي هريرة كان سبباً في تفرغه لاحتراء العلم ونقله
- ٤٩ أبيات لطيفة في سبب ملازمة الفقر للعلماء والفقهاء
- ٥٠ بيت لطيف في هجر الأقارب لقريبتهم إذا كان فقيراً وتعرّفهم له إذا كان غنياً
- ٥٠ أبيات لطيفة تنسب للإمام الشافعي في عزّة نفس طالب العلم
- ٥٠ أبيات للقاضي الجرجاني في الإباء من الدّلة للتوصل للغنى
- ٥١ أبيات أخرى في العزة والصبر والمصابرة للفقر وبيان فضله بكشف الأصدقاء
- ٥١ شعر لابن هشام النحوي ينصح فيه بالصبر في سبيل العلم لنيل ثمراته
- ٥٢ أبيات لوزير المهلب ينعى فيها الموت حينما حل به الإملاق !
- ٥٢ بيتان له عند اشتداد الفاقة عليه حتى زادت على الموت !
- ٥٢ تملّل الشاعر أبي اسحق الغزي من الفقر والشدائد ببيت لطيف

- ٥٢ تدمر منكب بالفقير الأسود في بيت جامع بديع المعنى
- ٥٣ تأليف القاضي ابن زبیر كتاباً في تفضيل الفقر على الغنى ...
- ٥٣ سكنى الخليل بن أحمد الفراهيدي في كوخ وتلامذته يرفلون في الغنى واليسار
- ٥٣ افتقار الإمام مالك أول طلبه للعلم حتى باع خشب سقف بيته
- ٥٣ قول الإمام مالك : لا يُنالُ العلم حتى يُذاق فيه طعمُ الفقر
- ٥٣ فقر القاضي أبي يوسف في نشأته ، وتعهد الإمام أبي حنيفة له بالمال ، وإنكار أبيه عليه ملازمته لأبي حنيفة ...
- رواية ثانية في نشأة أبي يوسف وإنكار أمه عليه ملازمته لأبي حنيفة وتعهد أبي حنيفة له وإخباره أنه سيأكل (الفالودج) وتحقق أكله له مع الخليفة هارون الرشيد.
- ٥٤ فقر الإمام الشافعي في نشأته حتى كان يستوهب ظهور الأوراق المكتوب عليها ليكتب عليها
- ٥٥ إقبال محمد بن عمر الواقدي وإشاره العجيب ، ومكافأة المأمون له على إشاره وهي واقعة عجيبة نادرة ...
- ٥٥ فقر عفان بن مسلم وحسن عطاءه عنه لجيب في محنة خلق القرآن ، وتعهده
- ٥٧ سمان من العامة له كل شهر بألف درهم نصرة للدين
- بذل يحيى بن معين (مليون درهم) وزيادة في طلب العلم حتى لم يبق له نعل يلبسها
- ٥٧ وتخليفه عند موته ١١٤ قمطرًا من الكتب و ٤ حباب شبرانية ...
- ٥٨ تفسير معنى (القمطر) في كلام العلماء و (الحباب) و (شبرانية)
- إباء محمد بن رافع النيسابوري ٥٠٠٠ درهم من الأمير وبقاؤه على أكل الفجل
- ٥٨ وربما عديم الحبز
- فقر داود بن علي الأصهباني الظاهري وخشونة عيشه واهتمام المحاملي به ،
- ٥٩ وزجر داود له على تقديم المال له وإبائه وزهده ...
- ازدراء داود الظاهري لعالم فقير تصدّر في مجلسه ، وتفوق العالم الفقير عليه بالعلم ،
- ٦٠ وهي واقعة طريفة ذات عبر كثيرة ...
- الفضل بن دكين يأخذ على التحديث أجراً ويلازم على ذلك ، فيعتذر أن في بيته
- ٦٢ ١٣ إنساناً ولم يكن عنده رغيغ !
- ٦٢ بقي بن مخلد شيخ الأندلس ، يعيش على ورق الكرنب لا يجد غيره ... !
- ٦٢ محمد بن نصر المروزي كان قوته وثيابه وورقه وحبره في السنة ٢٠ درهماً

- ٦٢ حكاية إملاق (المحمّدين في مصر) وهي واقعة مذهشة عجّاب ، تبدو فيها سرعة
 العون الإلهي للصادقين في طلب العلم ونشره
- ٦٤ لمضائق النضر بن شُمَيْل (المازني) حتى لم يجد في البصرة حفنة فول يعيش بها ، ثم يساره
 وغناه بسبب تصحيحه لحناً وقع في حديث رواه المأمون
- ٦٥ خروج القاضي عبد الوهاب المالكي من بغداد لجوعه فيها ، ثم حلوله بمصر وموافاته
 أجله حين اتسعت عليه الدنيا وقوله : إذا عشنا ميتنا !
- ٦٦ شعر لطيف له في سبب هجره بغداد وخروجه منها
- ٦٦ شعر رفيع لأبي العلاء المعري يمدحه به حين مرّ به في المعرة
- ٦٧ أبيات نفيسة للقاضي عبد الوهاب في ترفع الوضعاء بتقاعس الرُفعا
- ٦٧ خبر القاضي ابن علي الهاشمي في فقره حتى باع رَحْل بيته وخشب سقفه ثم انفراج
 الغمة عنه . . .
- ٦٨ إملاق ابن الخاضبة حتى اشتغل بالنسخ ليُعيش نفسه ووالدته وزوجته وبناته ،
 وفرحه بدخول الجنة في الرؤيا ليسترى من تعب النسخ بالأجرة !
- ٦٨ إملاق ابن الدهان الموصلّي وتوجهه لمصر لطلب الرّفد من وزيرها ، وشعر لطيف له
 في ذلك ، وبيتان لبعض العلماء يشكو الغربة فيهما إذ مات غريباً

الجانب الرابع

- في أخبارهم في الجوع والعطش في المواجر والأيام والساعات
- ٦٩ حديث أبي هريرة في جوعه وملازمته رسول الله لشبع بطنه ، وما كان لملازمته هذه
 من ثمرات وفوائد عظيمة تعود لحفظ السنة المطهرة
- ٧٠ تواري الإمام سفيان الثوري من الخليفة المهدي لكلمة حق قالها فأغضبته ، وهجره
 وطنه ، وجوعه الشديد ثلاثة أيام . . .
- ٧١ خبر إبراهيم النظام في تكذيب التشاؤم بالأشياء ، وشدة فقره حتى باع قميصه وأكل
 الطين وتمنّى الموت ! ورحل للأهواز فأسعفه أحدُ مخالفيه في الرأي رعايةً لحق
 الحرية والإنسانية ، وهي واقعة تستحقّ الدرس ، وتحوي الفضل والنبل
 والعجائب الغرائب فقف عليها
- ٧٢ مواصلة الصيام من ابن المقرئ والطبراني وأبي الشيخ حين أُمْلِقُوا وجاعوا ، حتى
 أغاثهم الله برؤيا نبوية وقعت لبعض الشرفاء . . .

- إملاق القاضي محمد بن عبد الباقي البغدادي بمكة وجوعه الشديد ، والتقاطه كيساً فيه عقد لؤلؤ وأمانته عليه ، وهي حادثة عجيبة مدهشة انتهت بتزوجه بصاحبة العقد في جزيرة رماه البحر إليها وغناه بامتلاك العقد . . . ٧٤
- جوع الشيخ الزاهد عبد القادر الجيلاني حتى صار يأكل المنبذات إذا وجدها ، ووصول النفقة له من أمه وهو أشد ما يكون جوعاً وفقراً . . . ٧٥
- تحدث الإمام ابن الجوزي عن اشتداد الفقر والجوع عليه في بدء طلبه للعلم ، وعن محاميد صبره على تلك الشدائد . . . ٧٦
- أبيات بليغة لشيخنا مصطفى صبري آخر شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية ، يوازن فيها بين جوعه الدائم الصامت وجوع (غاندي) الزعيم الهندي العابر الصاحب . . . ٧٧

ذكر بعض أخبارهم في العطش

- غرق محمد بن نصر المروزي ثم عطشه المميت ثم غوث الله له عطش ابن خيرايش المروزي وشربه بولته خمس مرات . . . ٧٨
- عطش الإمام أبي حاتم الرازي هو ورفيقه حتى قارباً الموت . . . ٧٩

الجانب الخامس

- في أخبارهم في العُري الدائم ونفاد المال والنفقات في الغربات ٧٩
- عُري الإمام البخاري لنفاد نفقته وانقطاعه عن كتابة الحديث أياماً ٧٩
- عُورُ الفقيه الأبيوردي سنين لحبّة يلبسها في الشتاء ٧٩
- عُري أبي إسحاق الشيرازي وعُورُهُ حتى كان لا يقوم للداخل من العُري . . . ٨٠
- شعر جيد لأبي إسحاق الشيرازي في فقدان (الحِلِّ) والتمسك بذيل (الحُرِّ) ٨٠
- تعريف الإمام الشافعي رضي الله عنه (الحُرِّ) بالطف عبارة ٨٠
- عُري أبي إسحاق الميزدني وأخيه وتناوبُهما عمامة وقميصاً إذا خَرَج أحدهما بهما جلس الآخر في البيت . . . ! ٨٠ - ٨١
- نفاد نفقة الإمام سفيان بن عيينة حتى باع طَسْتَ أمه ! ٨١
- نفاد نفقة الإمام أحمد في خروجه لعبد الرزاق في اليمن حتى صار يصنع التَّكَّكَّ ويُفطر على ثمنها . . . ٨١

- رهنُ الإمام أحمد (سَطْلًا) عند البقال لأخذ ما يتقوت به ، ثم تركهُ السطل ورَّعَا
 ٨٢ لما اشتبه عليه بغيره
- عرَّضُ الإمام عبد الرزاق على أحمد المال لما أملق وإبأؤه قبوله وتأجيرهُ نفسه
 ٨٢ من بعض الحمَّالين ، ورهنهُ نعلهُ من أجل طعامه !
- ٨٣ نفاد نفقة البخاري حتى تناول حشيش الأرض فأكله جوعاً !
- نفاد نفقة أبي حاتم الرازي وجوعه أياماً وانقطاعه عن سماع الحديث حتى واساه
 ٨٣ رفيقه في الرحلة فعادت له القوة والحياة . . .
- ركوب أبي حاتم الرازي ورفيقه البحر وأنحباسهم فيه ثلاثة أشهر حتى فني الزاد ،
 ثم خروجهم للفلوات وتيهيم فيها وإصابتهم بالجوع والعطش الشديد حتى
 قاربوا الموت ثم أغاثهم الله في خبر طويل يعد من العجائب الغرائب في المشاق
 ٨٣ - ٨٦ والمتاعب ، فقف عليه
- نفاد نفقة يعقوب بن سفيان الفارسي وفقدُه بصره من كثرة النسخ بالأجرة ليلاً ،
 ٨٦ ثم عودة بصره إليه برؤيا منامية نبوية
- عيشُ عبدالله بن أبي داود على درهم ثلاثين يوماً ! وكتبَ فيها ٣٠ ألف حديث
 ٨٦ ضياع نفقة البرقاني وعيشه بدرهم ثلاثين يوماً ثم رحيله مكرهاً بالفتن
- ٨٦ نفاد نفقة الوَحْشي فكان يَشْمُ رائحة الخبز ليتقوى بها ثم استغنى
- ٨٧ بيعُ الإمام ابن جرير لِكُمِّي قميصه لنفاد نفقته في الاغتراب !
- ٨٧ شعرُ للإمام ابن جرير في الصبر والعفة ورفعة النفس وبذل المال للرفيق
- ٨٨ واقعة لجامع هذه (الصفحات) في نفاد النفقة في الاغتراب
- ٨٩ - ٩١ نفاد نفقة شيخنا الكوثري بدمشق مرتين وإغاثة الله له عند اشتداد الفاقة والجوع
- واقعة ثانية في نفاد النفقة لجامع هذه (الصفحات) في أثناء سفره لبلده ، وإنقاذ الله
 ٩١ - ٩٤ له في أشد العسر والضيق

الجانب السادس

- ٩٤ في أخبارهم في فقد الكتب أو بيعها أو نحو ذلك عند الملومات
- ٩٤ شعر للقاضي الجرجاني في لذاة الحياة بالانفراد بالكتاب والبيت
- ٩٤ احتراق كتب ابن لهيعة و(اختلاطه) بعدها ووصل الليث له بألف دينار
- ٩٥ انكباب الشاذكوني على كتبه طول الليل بطريق أصبهان وقاية لها من المطر

- ٩٥ فقدُ علي بن المديني لكتابه (المسند) إذ أكلته الأرَضَة وصيَّرتَه تراباً
بيع أبي الحسن الفاي لنسخته من (الجمهرة لابن دريد) لفافة نزلت به ، وكتابتُه عليها
٩٦ أبياتاً يبكي فيها فراقها له ، ثم عودتها إليه مع ثمنها . . .
نسبة هذه الحادثة إلى (أبي علي القالي) خطأ وتخريفاً من عدد من العلماء ، وبيان أن
٩٧ صاحبها (أبو الحسن القالي) لا غير
٩٨ شعر لطيف لأبي الحسن الفاي في تحول مجالس العلماء إلى جهلاء !
٩٨ شعر لأبي الحسن الخولاني يرثي حاله لزوجه عند بيعه كتبه !
٩٨ أبو جعفر القَصْرِي القيرواني ربما باع ثيابه واشترى كتاباً أو ورقاً
٩٩ تسلط الصوص على (تعليقة) للغزالي في سفره ورجاؤه لهم إعادتها
ذهاب مكتبة ابن الدهان في بغداد بطوفان وقع فيها ، وفقدَه بصره ونور عينيه
بسبب معالجته كتبه مما أصابها . . .
٩٩ فاجعة كبرى تنزل بأسامة بن منقذ في فقده ٤٠٠٠ مجلد من الكتب الفاخرة
١٠٠ غرقُ كتب ابن الجوزي سنة ٥٥٤ في غرق بغداد وفيها ورقتان بخط الإمام
أحمد بن حنبل
١٠٢ احتراق كتب ابن الملقن التي لا تدخل تحت الحصر يُسببُ له (اختلاطاً) بعدها
١٠٢ ذهاب نقائس من المخطوطات لشيخنا الكوثري في حادثة غرقه
١٠٢ بيع سنَد بن علي (بغلة) أبيه خيالة لشراء كتاب المِجَسَّطِي ، وما كان
لذلك من عاقبة حميدة رفَعته إلى مُجالسة المأمون وأُغتته . . .
١٠٤ - ١٠٦
١٠٦ بيع الشيخ أحمد الحجار الحلبي بعض ثيابه التي عليه لشراء كتاب
١٠٦ - ١٠٧ بيع جامع هذه (الصفحات) بعض ملابسه لشراء بعض الكتب
١٠٧ - ١١٠ واقعة له عجيبة في السعي للحصول على كتاب (النقاية) لعلي القاري

خبران جامعان لجُلِّ ما تقدم من الجوانب

- الخبر الأول : خبر إبراهيم الحربي ، وفيه العجائب من خشونة العيش والصبر على
الفقر والجوع والمرض ، ثم إغاثة الله له أشد ما يكون ضائقةً وبُؤساً ، وفيه بيان
عفته عن أموال الحكام والأمراء واستغناؤه بالله تعالى ، وفيه ذكر ضائقة (أحمد
بن سلمان النجاد) صاحبه . . .
١١٠ - ١١٣
١١٣ كُتِبَ العالم خلاياه التي يعيش بها ، والعالم يُسبِعُ ثيابه ولا يبيع كتابه

الخبر الثاني : خبر محمد بن طاهر المقدسي ، وفيه العجائب من الجلود على المشي في
 الهواجر وطوافه جنبات الأرض بقدميه ، وكتابه الكتب الكثيرة العديدة
 للتعيش بأجرتها ، وبوله الدم مرتين لسيره في حرّ مكة وبغداد ، ورحلته من
 طوس لأصبهان من أجل حديث واحد ، وإملاقه وجوعه أياماً ثم ابتلاعه
 الدرهم الباقي معه سهواً ! ثم إغاثته الله له في تلك الحال بالمال الوفير ... ١١٤ - ١١٦
 طواف القاضي الجرجاني في أطراف الأرض لاقتباس العلم والأدب ... ١١٧
 ذكر القصيدة العصماء في وصف (العالم الأبني) للقاضي الجرجاني ، وهي قصيدة
 نفيسة بليغة خليق بكل عالم ومتعلّم أن يحفظها ... ١١٧ - ١١٨

خاتمة

وفيها لمحات نحو العشرين ، مما يُستخلص من هذه (الصفحات) من العبر والعظات ،
 والبطولات والتضحيات ... ويليهما اختتام الكتاب ١١٩ - ١٢٧